أنور الجندي

من التبعية إلى الأصالة

في مجال التعليم واللغة والقانون

دار الاعتصام

دار الإعتصام

٨ شارع حسين حجازى - ت: ٣٥٤٦٠٣١/٣٥٥١٧٤٨ ص.ب ٤٧٠ القاهرة

للطبع والنشر والتوزيع



بسم الله الرحمن الرحيم

من التبعية إلى الأصالة :

من سنن الفكر الإسلامى وقانونه القائم الذى لا يتحول ولا يتغير : قدرته على تصحيح مساره عندما ينحرف ، وانبعاث حركة اليقظة من داخله دون عامل خارجى ، وفى حالة الأزمة التى تفرض التبعية الفكرية ، فإنه يملك القدرة على التحول نحو الأصالة والخروج من دائرة الأممية والاحتواء التى تفرض عليه .

ويبدو هذا جلياً فى مواقف كثيرة من مراحل الفكر الإسلامى خلال تاريخه وخاصة فى أزمتيه الكبيرتين : أزمة العقلانية التى أطلق عليها الاعتزال ، وأزمة التصوف الفلسفى .

وفى العصر الحديث نجد هذه الصورة واضحة تماماً : نجد المدرسة التى حملت لواء الدعوة إلى الثقافة الغربية تنسحب حثيثاً من موقفها إلى معادلة جديدة عندما ينكشف لها أنها كانت لا ترى أبعاد الأمور . أو أنه قد غرر بها فى كلمات غربية براقة : كالحرية والإخاء والمساواة . ثم أثبتت الأحداث فساد ذلك ، وزيفه . ومن ثم نرى هؤلاء الذين حملوا لواء الدعوة إلى الفكر الغربى وإلى الفرعونية ، وإلى الإقليمية (هيكل ومنصور فهمى والعقاد وتوفيق الحكيم وزكى مبارك) يثوبون مرة أخرى إلى التراث الإسلامى يستلهمونه ويرون أنه هو وحده المصدر الأصيل القادر على العطاء للمسلمين والعرب .

وبالرغم من خضوع هؤلاء الكتاب لمناهج التحليل الغربى ، وهى مناهج لا تصلح للتطبيق على الفكر الإسلامى وموقف التراث الإسلامى واضح منها تلك المناهج التى طبقها (الرافعى وجاد المولى ومحمد عبده) وغيرهما ، إلا أن هذا يؤكد صدق ذلك القانون الثابت الذى يحرر الفكر الإسلامى من أى إضافات غير أصيلة إليه ، مهما بلغ من عنف التحدى ومهما حاول

الاستعمار والتغريب (إغراق) الفكر الإسلامى فى دوامة عاصفة من هذه المذاهب والدعوات والنظريات . فإن الفكر الإسلامى يأخذ دائماً حاجته وما يراه صالحاً لتصحيح مساره ، ثم يرفض الباقى ويتخلص منه .

واليوم تتكرر هذه التجربة فى الجانب الآخر من الفكر الماركسى ، فبعد أكثر من عشرين عاماً فى تجربة الاحتواء الماركسى ، وارتفاع هذه حتى ظن أنه أغرق الفكر الإسلامى ، نجد لفيفاً من هؤلاء الذين كانوا يتصدرون الدعوة إلى التفسير المادى للتاريخ ونظريات الماركسية يعودون ليصححوا موقفهم ويلتمسوا مفهوم الإسلام ، وأمامنا اليوم (مصطفى محمود على الدالى ، جلال كشك ، لمعى المطيعى) وغيرهم ، يرفضون مفهوم الماركسية للتاريخ والبطولة والاقتصاد . ويحظى مصطفى محمود بقدر كبير من هذا التحول .

وفى كلا المرحلتين نجد أن الفكر الإسلامى هو الحاكم المسيطر ، والمصدر الأصيل الذى لا تجد مجتمعات المسلمين والعرب سبيلا غيره ، وقد مروا بالتجربة من ديمقراطية الغرب إلى ماركسية الشرق،وتبين لهم فشل التجربتين ، بحيث لم يعد أمام العرب والمسلمين إلا منهج واحد : هو منهجهم الأصيل .

نعم . إن الإنسان ابن عصره وابن بيئته ولكن : هو ابن عقيدته وامتداده الإنسانى الذى مرت به تجارب النبوات ومعطيات رسالات السماء وهو لا يستطيع أن ينفصل عن المحورين ، محور الثبات فى شخصيته وفى القيم الأساسية لعلاقته بالكون والحياة ، والمجتمع والموت ، ومحور الحركة بين عصره وبيئته وقد جاء الإسلام خلافاً لكل الأيدلوجيات والمذاهب والدعوات والتفسيرات جامعاً لها .

نعم : لا بد من التغيير ، ولكن فى إطار القيم الثابتة والجوهر القائم الدائم .

لا بد من ثبات الشكل والإطار ، ولا بد من فهم القانون الأساسى للحركة والتطور فى الفكر الإسلامى ، وهو مختلف تماماً عما تحاول الدعوات المختلفة أن تروج له وتخدعنا به ، وهو مترابط بين الثبات والحركة وبين

القيم الأصيلة والوافدة ، ليس كل القديم أو الموروث هو بمثابة تقاليد أو معطيات اجتماعية متغيرة ، وإنما ما نعني به هو الجوهر الأصيل الذى جاءت به رسالات السماء ، وقامت به السموات والأرض .

ونحن نستطيع أن نفرق بينه وبين التقاليد والموروثات التى صنعها المجتمع ، وإن كانت محاولات التفريق ترمى إلى سيطرة التقاليد على الأصول الأساسية ، وذلك لا بد من الحذر من الدعوة الملحة المضللة التى يحاول أصحابها الاندفاع فى حماسة للتغيير بهدف القضاء على الجوهر الثابت مهددين بأن هذا الثبات رجعية وتأخراً ،وكذبوا ،فهم بين واحد لا يفهم حقيقة الفكر الإسلامى ولا أصالته ، وآخر يفهم ولكنه يغرر بنا ويخدعنا .

يقول الدكتور شكرى عياد فى هذا المعنى : إن الشكل لا يغيره المضمون : لك أن تأتى بما شئت من معان تدعى أنها عصرية دون أن يحملك ذلك على العبث بقوالب اللغة أو بنظم القصيد . (إن القالب الشكل والصورة) هو حقيقة الشىء ، فإن لم تكسر الشكل العربى القديم فأنت لم تتجاوز حدود الثقافة العربية الأزلية .

ونحن نجد الآن من أعداء الفصحى والفكر الإسلامى قائلا يقول : « من يكسر النص » ومعنى هذا أن هؤلاء خصوم يعرفون أنهم يهدفون إلى تهديم الأساس ، والقضاء على الجوهر ، ولذلك فنحن نحذرهم ، ومع ذلك فنحن نقول مع الدكتور شكرى عياد « إن قوى الثبات ظلت بفضل ركائزها الضخمة فى الأعماق أقوم سلطاناً من التغيير الذى لم يكن يتجاوز السطح حتى يتعثر وينكفىء راجعاً إليه ، أو يمتص من المستودع الكبير : مستودع القيم الراسخة على مدى القرون » .

وعندنا أن الأمور فى حركة الفكر الإسلامى لو كانت تسير سيراً طبيعياً دون هذه القوى الخفية التى تريد أن تؤخر وتحطم وتدمر ، وتحول بين الحركة الصحيحة لهذا الفكر ، وهذه المؤسسات التى تخدم الصهيونية والماركسية والاستعمار ، لولا هذا لما كان هناك صراع بين الثبات والتغيير فى الفكر الإسلامى الذى يقوم على أساس التكامل والتوازن ، ولتحولت كل

عناصر التغيير إلى ثبات ، ولكن هناك قوى تدفع ، ولا تريد أن تجهض كل شيء ، وترمى أساساً إلى محاولة « هدم الثوابت » .

ولقد تستعير الأمم من الخارج ولكنها لا تعيش على (الاستعارة) وقد تأخذ فى فترات ، ولكنها لا تكون تابعة أبداً ، ومن حقها أن ترفض ما يضير ها ويحول بينها وبين الحفاظ على شخصيتها وذاتيتها ووجودها وكيانها .

وذلك هو التأصيل : الذى يتجه إليه الفكر الإسلامى انتقالا من التبعية إلى الأصالة بعد معركة طويلة « كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » .

نحن لا نأخذ كل معطيات الأمم والحضارات بمثابة «مادة خام » نستعملها كما نشاء ، وليس لأحد أن يفرض علينا منهجاً أو مذهباً . لأن لنا مذهبنا الأصيل ومنهجنا الراسخ ، وما فرضنا منهجنا على أحد يوماً ، وعندما أخذت أوروبا فكرنا أدخلته فى داخل إطارها وثقافتها وعقائدها ، ولم تتغير به ، وإنما صهرته فى جوهرها ، فكيف يراد بنا ونحن الذين نحمل الفكر الجامع المتكامل الذى زود البشرية لأول مرة بالمفهوم الذى يربط بين الروح والمادة ، والفردية والجماعية ، والثوابت والمتغيرات ، والذى ينظر إلى الأبعاد المتصلة بالزمن والبيئة وفى الوقت نفسه إلى الأبعاد المتصلة بالسماء وبالأزل وبالبشرية منذ مبدئها ، وما قدم لها من عطاء ، كيف يطلب منا أن ننصهر فى الفكر الوافد .

إن القول بأن الفكر الغربى هو صاحب العالمية قول مردود ، لأنه ليس هناك فكر غربى واحد . المثالية أم المادية ، الماركسية أم الفرويدية الوجودية أم الهيبية . لقد انتهى خداع هذه النظرة ، ونحن اليوم قادرون على دحض هذه الدعوات التى طالما رددها طه حسين ، وزكى نجيب محمود وسلامة موسى وغيرهم . أولئك الذين قالوا : « خذوا الحضارة الغربية جملة واحدة فكراً ومادة»

إن هذه النظرية إنما وضعت لخداع العرب والمسلمين والإدالة منهم ، ولم تكن ذات أصالة فى الفكر الغربى نفسه لأنه لم يفعل هذا حين اتصل بالفكر الإسلامى ، وحمل منه عصارة معطياته ، وفى مقدمتها المنهج التجريبى قوام الحضارة الحديثة .

لقد وجدنا مختلف مناهج الفكر الغربي : ليبرالية أو مادية جدلية — أو وجودية أو فرويدية عاجزة عن أن تستوعب المجتمع الإسلامى . هى عاجزة أساساً بالنسبة لمجتمعاتها وهى عاجزة قبل ذلك لانشطاريتها ولعدم قدرتها على الربط بين الثابت والمتغير والمادى والروحى والأرض والسماء .

إنها قد أنكرت جانباً أساسياً خصباً هو جانب الروح والنفس والوجدان، وألغته تماماً إزاء العقلانية ، ولكن خطأها الأكبر أنها أنكرت ترابط الجانبين فى كيان واحد . وهو مالا يعرفه مذهب أو منهج غير الإسلام وهو الحلقة المفقودة التى ما تزال البشرية تسعى إليها ، والتى ما تزال عاجزة عن أن تستوعبها بالرغم من ذلك التقدم الخطير فى مجالات التكنولوجيا ويوم تعرفها سوف ترى ضوء الحق الباهر : ولن تعرفها إلا عن طريق الإسلام .

« ما يزال الكيان الإسلامى يرفض الجسم الغريب » .

على المسلمين أن يواجهوا التحديات الخطيرة الثلاث :

١ — تغريب اللغة .

٢ — تغريب الشريعة .

٣ — تغريب التعليم .

ثلاث تحديات خطيرة ما تزال فى مواجهة المجتمع الإسلامى المعاصر تشكل أخطر الآثار فى حياته وتكوينه وحركته . فرضت على المسلمين فرضاً من خلال الاستعمار السياسى والعسكرى واستمرت بفضل الغزو الثقافى وخطط التغريب التى لم يبرأ منها المجتمع الإسلامى بالرغم من أنه تحرر من الاستعمار السياسى والاحتلال العسكرى منذ سنوات .

تلك هى محاولة تغريب التشريع ، وتغريب التعليم ، وتغريب اللغة . أما محاولة تغريب التشريع فقد أحدثت فى المجتمع الإسلامى ثغرات عميقة وفتحت الباب واسعاً أمام أخطار الزنا والخمر والميسر ، وأدت إلى اضطراب كيان الأسرة وزلزلت وجود المرأة الطبيعى : (أما وزوجة وسيدة بيت) فقد حجب عن المسلمين تشريعهم الأصيل بعد أن عاش به المجتمع الإسلامى تلك القرون الطويلة مستظلا بظله محمياً بحدوده وضوابطه التى أقامها الحق

تبارك وتعالى ، فإذا بها تنهار على أيدى القوى الاستعمارية التى استبدلت بالشريعة الإسلامية قانوناً وضعياً مغايراً للطبيعة البشرية والنفسية والاجتماعية التى عرفها المسلمون ، فسرعان ما فتح أمامهم باب الشر والخطر ، واستطاع المستعمر عن طريق ذلك أن يفسر الفطرة الإسلامية بالرشوة والمرأة والخمر والمخدرات ليستطيع عن طريق هذه البطانة سرقة ثروات الأمم وتهريبها وإفسادها والسيطرة عليها فضلا عن إثارة روح التحلل فى مجموع الأمة : شبابها وشيبها ، رجالها ونسائها ليكون له بعد سنوات قليلة أولياء وأتباع يوالونه ويشيدون به ويتنكرون لأمتهم ولقيمهم . وقد استطاع الاستعمار عن طريق تعطيل الشريعة الإسلامية السيطرة على الاقتصاد الإسلامى ، فتحولت أملاك المسلمين وثرواتهم بعد وقت قليل إلى أيدى المرابين والأجانب الذين فتحوا باب الاستدانة . ثم أخذ ثراة المسلمين هذه الأموال وأنفقوها على موائد الخمر والقمار ، وبذلك وقعت أراضى هؤلاء المسلمين وثرواتهم فى أيدى المرابين .

تلك هى أخطر التحديات التى واجهت الأمة الإسلامية نتيجة الاحتلال العسكرى الذى لم ينسحب إلا بعد أن ترك له ركائز ممثلة فى دور اللهو والمصارف الربوية والطرق المفتوحة إلى الجنس والأهواء والشرور والرشاوى

أما محاولة تغريب التعليم فقد كانت أشد خطراً فقد سيطرت على العقول المسلمة عن طريق مدارس الإرساليات وجامعاتها التى سيطر عليها المبشرون وتخفى وراءها المستشرقون وحولت سموم الفكر التلمودى والاستعمارى إلى مناهج ، ثم جاءت المدارس الوطنية الخاضعة لنفوذ الاحتلال ، فنقلت هذه المناهج إلى مدارسها . وبذلك نشأ تيار خطير يتنكر كل التنكر للتاريخ الإسلامى واللغة والعقيدة والتراث ، واستعملت دعوات الإعجاب والتقدير لأبطال الغرب ولغة الغرب وفكره ومفاهيمه وعقائده ، وذهبت البعثات تحمل الشباب الغض الطرى الذى لم تشكل له حصانة عقائدية وافرة نحو دينه ووطنه فإذا بالعواصف الهوج تجتاحه ، وإذا به صريع التغريب والولاء للغرب والإعجاب بالعدو الخصم الألد ، وإذا به يعود ليدعو له ولمذاهبه ومناهجه وقوانينه وأيدلوجياته ، ويتنكر للأصل الأصيل الذى عرفته أمتها والذى أحياها وأقامها وصنع لها البطولة الحقة ، والتاريخ الناصع بالرحمة والعدل

والإخاء حين انتشر ذلك الضوء الساطع الذى جاء به محمد – عليه الصلاة والسلام – فبدد ظلمات البشرية التى كانت قد ارتكست وراء ماديات وإباحيات ووثنيات الفكر البشرى .

أما محاولة تغريب اللغة فقد كانت من أخطر التحديات التى واجهت المسلمين ، فقد جرت المؤامرات لتدمير الفصحى بإثارة دعوات العاميات فى قلب الوطن العربى ، إيماناً بأن الوطن العربى هو الذى حمل دعوة القرآن الكريم ورسالة الإسلام إلى العالمين جميعاً خلال أربعة عشر قرناً كاملة ، وما زال مؤملا لأداء هذه الرسالة . فإذا انفرط عقد (الأمة العربية) حاملة لواء القرآن بانفراط عقد لغتها الفصحى ، وسيطرت العاميات على أقاليمها . فقد أصبح الإسلام فى أشد الخطر ، وأصبح القرآن لا يفهم إلا بقاموس ، وتلك أمنية غالية فى قلوب مليئة بالحقد والحسد والكراهية لهذه الأمة التى جمعها القرآن وهذه اللغة التى عاشت تلك القرون المتطاولة وأهلها قادرون على أن يفهموا ما كتب بها قبل خمسة عشر قرناً وحتى لو بعث امرؤ القيس من رمسه لاستطاع أن يتحدث إلى أى مسلم أو عربى بلغته الفصحى فيجيبه ويقضى حاجته .

وهذا هو الخطر الخطير الذى يؤرق الاستعمار ويؤرق التغريب ويؤرق خصوم الإسلام ويدعوهم إلى طرح مزيد من المشروعات والمحاولات فى سبيل الفصل بين اللغة وبين بيان القرآن ، وذلك بالدعوة إلى اللغة الوسطى وإلى تأصيل العامية وإلى استعمال الكلمات المتداولة ، وإلى إذاعة أدب الشعب مما يسمونه الفلكور من الأمثال والأزجال وكلمات العامة والحوارى والأزقة ومن عجب أن الخطر يقترب اقتراباً شديداً من مجامع اللغة التى حملت لواء دراسة العامية . واستقبلت بعض الدعاة إلى الحروف اللاتينية .

تلك هى المحاذير الثلاثة والأخطار الكبرى التى تمثل التحدى الخطير أمام المسلمين اليوم وهم يقتحمون أبواب القرن الخامس عشر الهجرى ، وفى إطار الحركة الواسعة التى ينتقلون بها الآن من اليقظة إلى النهضة بعد أن أصبحوا يملكون مقدرات الطاقة والثروة والتفوق البشرى ، ومن حيث أخذوا طريقهم

الصحيح منذ حركة اليقظة إلى التماس طريق الأصالة ، وحيث ترى أعداء الإسلام ودعاة التغريب يتكتلون ويتكاتفون فى سبيل مقاومة هذا الخطر الجديد للقوى العميق . ويحاولون اختراقه وتبديد هذه المسيرة الصادقة إلى منهج الله تبارك وتعالى وفى سبيل إقامة المجتمع الربانى .

ولكن حركة اليقظة ما تزال تزداد قوة وصلابة وثباتاً على الحق . وما يزال العمل الإسلامى متصلا عميقاً يلتمس من مفهوم الإسلام الأصيل ومن منابعه الثرة مدده وقوته . وما يزال الكيان الإسلامى بالرغم من كل ما وجه إليه قادراً على المعارضة والرفض لكل ما يتعارض مع قيمه وعقائده وأسلوب العيش الإسلامى الأصيل .

ما يزال الكيان الإسلامى يرفض الجسم الغريب الذى يحاول أن يخترق جدرانه ، ولا بد أن يتخذ المسلمون كل أسباب القوة ويحتشدوا بعلمائهم ومفكريهم فى سبيل هذه التحديات الثلاثة فيقاومون الحملة على اللغة العربية ويلتمسون منهجاً جديداً أصيلا للتعليم الإسلامى فى إطار التربية الإسلامية ، فيأخذون أصولهم الأصيلة ، ويضيفون إليها ما يجدون فى الدراسات الحديثة من أساليب عصرية ، ويقيمون بناء الشباب المسلم والأجيال القادمة على الصمود والقوة والإيمان ، ويفطمونها عن الأهواء والآثام ويجعلونها خشنة قوية مدربة قادرة على احتمال الجهاد ، ويعلمونها كيف تعيش فى رباط دائم ويقظة كاملة وترقب كامل للعدو الذى لا يلبث أن يلتمس من المسلمين ضعفاً أو غفلة ليستدير لهم ويسيطر عليهم : وليذكروا أن القرآن الكريم كتاب ربهم قد حذرهم ودعاهم إلى أن يعدوا ما يستطيعون من قوة يرهبون بها عدو الله وعدوهم .

أما تطبيق الشريعة الإسلامية فى المجتمع الإسلامى فهو ضرورة حاسمة لا سبيل للتراجع عنها أو تأخيرها ، وخاصة فى وجه التحدى الشيوعى الماركسى الذى حاول أن يعرض نظامه وأن يقدمه لبعض الأقطار .

ولقد لقيت النظم الغربية والماركسية جميعاً شر هزيمة فى أفق المجتمع الإسلامى ، فإنها قد عجزت أساساً أن تحقق للنفس الإسلامية أشواقها ومطامعها

التى لا يحققها إلا تشريعها . كذلك فقد عجزت أساليب التعليم الغربى أن تخرج الشاب المسلم القادر على حماية أمته . والآمن على نفسه . أو المطمئن لعقيدته . ولذلك فمن الضرورى أن يواجه المسلمون التحديات الثلاثة اليوم ويتعرفوا على أبعاد الخطر الجاثم وراءها والخسارة التى تحققت نتيجة السنوات التى مضت وهى ماضية فى إفساد مجتمعهم وشبابهم .

* * *

مدخل
الغزو الثقافى وصولاً إلى التغريب

تستهدف خطة « الغزو الثقافى » فى مجموعها العمل على نقل المسلمين والعرب والشرقيين من قيم فكرهم وعقائدهم وارتباطاتهم النفسية والروحية والاجتماعية إلى عقائد الغرب وفكره وقيمه وهذا هو ما أطلق عليه « تغريب الشرق والإسلام » .

ذلك أن محاولة الغرب فى السيطرة على عالم الإسلام باسم الاستعمار . كانت قد أقيمت فى الأساس للسيطرة على الإسلام نفسه باعتباره مصدر القوة المعنوية التى أمكنت للمسلمين من رد كل قوى الغزو الغربى فى الحروب الصليبية خلال قرنين كاملين ، وذلك وفق المخطط الذى رسمه لويس التاسع بعد هزيمته فى المنصورة حيث وضع الأسلوب الذى سار عليه مخطط الغزو الثقافى من خلال التبشير والاستشراق وصولا إلى التغريب الكامل الذى يقطع بين المسلمين وبين تلك القوة المعنوية التى تجعلهم قادرين على النصر على كل من يطمع فيهم أو يغزوهم ، وهذه القوة المعنوية إنما تتمثل فى الجهاد الأصغر والأكبر ، وحماية بيضة هذا الدين القائم على العزة والكرامة والقوة . إن الهدف هو استسلام المسلمين فى أتون التبعية الغربية الأكبر ، الذى يحتويهم ويصهرهم فلا يكونوا إلا صورة باهتة للأممية والعلمانية الضالة . إن الهدف هو تقليم أظافر هذه الأمة حتى تكون عاجزة عن المقاومة والحياطة لكيانها ووجودها ، ثم إن هذا التغريب والغزو الثقافى إنما أعدت له الخطة ليسرى فى العروق دون أن يرى ، ويجرى فى الأوردة سماً زعافاً دون أن يكتشف أمره ، حتى يقضى على هذه الأمة فتهوى عاجزة عن حمل أمانة هذه الرسالة التى اعتنقتها وعاهدت الله على الدفاع عنها وحمايتها ونشرها فى العالمين .

وهذا السم الذى يسرى فى العروق إنما يتمثل فى هذه المناهج التربوية .

والنظم والأيدلوجيات والمذاهب والدعوات التى تحملها الرياح إلى أفق الإسلام فتثير الشبهات والشكوك وتمزق وحدة الأمة وتخلق تضارباً وتصنع شقاقاً كثيراً .

وإذا كان الشاعر الفيلسوف محمد إقبال قال فى عام ۱۹۳۱ إن الإسلام مهدد بخطرين مصدرهما الغرب أولها الإلحاد وثانيهما الاستعمار فإننا نقول اليوم إن الإسلام مهدد بثلاثة أخطار هى الاستعمار والصهيونية والماركسية . وأن « بيت المقدس » هو بؤرة المؤامرة كلها لأن سيطرة هذه القوى الثلاث على قلب الإسلام إنما يهدد مصدر النور كله .

ولقد عمل الغزو الثقافى فى قلب العالم الإسلامى من وراء الاستعمار وبفضل نفوذه . فى مجالات التبشير ومعاهد الإرساليات ومن خلال المدرسة الوطنية التى بثت مناهج التبشير . ومن خلال الثقافة التى حملت شبهات الاستشراق ومن خلال الصحافة التى روجت لذلك كله . وتبنت دعوات الإقليميات التى فرقت وحدة الأمة الإسلامية ودعوات التحلل والإباحية بالقصة المكشوفة والصورة العارية والكلمة الجارحة حتى إذا رأى الاستعمار العسكرى والسياسى أنه قد أعد ركائزه فى المؤسسات والأفراد انحسر مطمئناً إلى أن عمله سوف لا يتوقف .

لقد تكاتفت المدرسة والصحيفة والمسرحية والأغنية على تركيز التغريب وإزالة القيم الأساسية وإحلال بديل منها .

يقول الفريد كانتول سميث : إن الغرب يوجه كل أسلحته الحربية والعلمية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية إلى العالم الإسلامى بغرض إذلاله وتحقيره وإشعاره بالضآلة والخنوع . وأن الغرب وقف فى صف الصهيونية ضد العرب والمسلمين متأثراً بتلك العداوة القديمة بين المسيحية والإسلام .

وهناك عشرات من التصريحات والنصوص التى ألقاها كبار المفكرين الغربيين (ولهم ولاء المستشرقين) وهى تكشف فى مجموعها عن الأهداف النفسية العميقة التى تكمن وراء التغريب والغزو الثقافى .

من ذلك قول (ماسنيون) إن هؤلاء الطلاب المسلمين الذين يصلون إلى فرنسا يجب أن يصاغوا صياغة غربية خالصة حتى يكونوا أعواناً لنا فى بلادهم .

ومن قول المارشال ليوتى – قرين كرومر وعميد الحماية الفرنسية فى المغرب قوله : إننا نعد العدة لإنشاء جيل جديد لا صلة له بالماضى : هذا الجيل نصنعه وننشئه على الإيمان بالغرب وبذلك يتم لنا عن طريقهم وضع يدنا على البلاد » .

(٢)

لقد كانت دعوة التغريب هى : حجب المناهج الإسلامية وتوجيه المسلمين إلى العلوم العصرية ولا شك أن العلوم العصرية لا تفيد المسلمين إلا إذا اقترنت بتربيتهم الإسلامية وسارت جنباً إلى جنب مع أوضاعهم وعقلياتهم . وأن تهذيب المسلمين بالمعارف العصرية الأوربية خارجاً عن دائرة تقاليدهم وعقائدهم يزيدهم انحطاطاً وفساد أخلاق ولن تنفعهم هذه العلوم إلا إذا كانت ضمن دائرة عقيدتهم – وهذا ما كشف عنه مبكراً واحد من أصدق مفكرى الإسلام : الأمير شكيب ارسلان .

ولقد أشار الغربيون إلى أن الهدف من « الغزو الثقافى وصولا إلى التغريب » هو إنشاء « عقلية عامة » تحتقر كل مقومات الحياة الإسلامية بل والشرقية وإبعاد العناصر التى تمثل الثقافة الإسلامية عن مركز التوجيه . والمعتقد أن إخراج الإسلام ذاته من مقومات فكرهم ليس هو الهدف وإنما الهدف إخراج المسلمين من مقومات فكرهم وذلك بتفسيره تفسيرات مختلفة مرة عن طريق النظرية الغربية الليبرالية ومرة عن طريق النظرية الماركسية (هو المادية) وذلك فى محاولة لإثارة الشبهات حول قيمه الأساسية ومفاهيمه الكبرى وبث السموم المضللة بالقول بأن الإسلام ليس إلا مجرد دين تعبدى لا صلة له بالمجتمع أو السياسة أو الاقتصاد .

وليس لهذا من هدف إلا إقصاء الإسلام – الذى يعترف خصومه فى الغرب بأنه منهج حياة ونظام مجتمع . – إقصاؤه عن الفاعلية والتطبيق .

وعزله عن التأثير فى واقع الحياة . وهذا الهدف إنما رمى أساساً إلى أن يتحول المسلمون إلى الصورة الغربية العصرية الممسوخة . التى تفقد كل مقوماتها وماضيها وتراثها . وبذلك يصبحون شيئاً تائهاً فلن يصبحوا غربيين . ولن يعودوا مسلمين . إنما يصبحون كما مهملا عاجزاً عن مقاومة أى نفوذ أجنبى . بل يكونوا قد انصهروا بعد جيل أو جيلين فى الأممية انصهاراً نهائياً .

ومن أجل هذا يقوم التغريب على تحريف مفاهيم الإسلام نفسه ، ويثير الشبهات حول حقائقه . وحول الوحى والنبوة والقرآن والسنة ، وحول كل القيم الأساسية . ثم ينتقص الدور الذى قامت به الحضارة الإسلامية . والتاريخ الإسلامى .

وذلك كله يهدف خلق شعور بالنقص والازدراء فى نفوس المسلمين تحقق قبول ذهنية الغرب والخضوع لها .

وقد قام على هذا العمل مستشرقون ومبشرون وكتاب غربيون . ثم نشأ جيل من الذين يكتبون بالعربية ممن تربوا فى تلك المعاهد الغربية الخاصة ليكونوا أولياء للثقافات الغربية فى بلادهم .

ومن أخطر الشبهات التى تثار : إيجاد الفرقة والخلاف بين العرب والمسلمين بما يطرح حول الحضارة التى قامت فى العالم الإسلامى وهل هى عربية أم إسلامية والادعاء بأن الذين نبغوا فى الإسلام لم يكونوا عرباً وإنما كانوا فرساً . وبطرح مفهوم القوميات الغربى ليكون منهجاً للعرب فى حركتهم التى تستهدف مقاومة النفوذ الأجنبى والتحرر منه . وإعلاء شأن الجنس والدم والعنصر . وتقسيم التراث الإسلامى والفكر الإسلامى إلى ثقافات تركية وفارسية وعربية وهندية بينما يؤمن المسلمون بوحدة فكرهم وكيانهم ويرون أن هذه الأوضاع الوطنية أو القومية إنما هى حلقات متصلة ترتبط بالوحدة الإسلامية الكبرى وتتحرك فى إطارها .

ولقد هوجمت حضارة الإسلام على نحو لم تهاجم فى التاريخ البشرى حضارة مثل تلك الشراسة والضراوة التى وجهها التغريب لحضارة الإسلام ، ولولا سلامة الأصول التى قامت عليها هذه الحضارة وعمقها لتزلزلت أركان تاريخ الإسلام .

ولا ريب أن وحدة الإسلام هي وحدة فكر لا وحدة جنس ولا عنصر وأن عظماء الفكر الإسلامى لم يكونوا غير ثمرة هذا الروح الإسلامى الذى شكل عقولهم ونفوسهم استمداداً من القرآن وشمائل الرسول الكريم .

(٣)

ولا ريب أن « أصالة » الإسلام كانت بعيدة الأثر فى الفكر الإسلامى وحصناً حصيناً إزاء هذه الرياح المحملة بالسموم ، حتى إن طائفة من الذين كانوا فى معسكر التغريب انكشف لهم زيف هذه الدعوة وخطرها على وطنهم وأمتهم فأصبحوا من خصومها وعملوا فى صف حركة اليقظة .

يقول الدكتور محمد حسين هيكل صاحب كتاب حياة محمد :

كنت عظيم الثقة بالعلم وبالطريقة العلمية الغربية ، وأنها ستؤدى بالإنسانية إلى معرفة حقيقة الكون معرفة هى ملاك سعادة الإنسانية ، وظلت ثقتى قائمة حتى أعلنت الحرب الكبرى .

وكان أكبر رجائى أثناء ذلك أن أسيغ فى حياتنا فى الشرق صوراً من ثقافة الغرب وأدبه وفنه ، فلما وضعت الحرب أوزارها لبثت انتظر نتائجها العالمية فى السلام العام وحرية الشعوب وحقها فى تقرير مصيرها ، وكانت السنون كلما توالت تفتح عينى على حقيقة بدأت تقوى صورتها عندى حتى بلغت غاية القوة . هذه الحقيقة هى أن العالم يعانى قبل كل شىء أزمة روحية دفعت كتاب الغرب وفلاسفته إلى التماس العلاج لها فى فلسفة الهند الروحية ! وإلى جانب هذا لاحظت فى اتجاه السياسة الأوربية ظاهرة غريبة : تلك هى نشاط التبشير المسيحى فى الأمم الإسلامية .

وأدركت بعد لأى وأنا أنقل لأبناء لغتى ثقافة الغرب المعنوية وحياته الروحية ، أننى أضع البذر فى غير منبته فإذا الأرض تهضمه ولا تتمخض عنه ولا تبعث الحياة فيه ، وانقلبت ألتمس تاريخنا البعيد فى عهد الفراعنة موئلا لوحى هذا العصر ينشىء فيه نشأة جديدة فإذا الزمن وإذا الركود العقلى قد قطع ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب .

وروأت فرأيت أن تاريخنا الإسلامى هو وحده البذر الذى ينبت ويثمر ففيه حياة تحرك النفوس وتجعلها تهتز وتربو » .

وهكذا نجد أن « المد التغريبى » لم يلبث أن انحسر فى هذه المرحلة .

ثم جاءت مرحلة مد تغريبى ماركسى بعد ذلك وهذه الموجة قد بدأت تنحصر فى السنوات القليلة بعد حرب رمضان .

ولا ريب أن « الالتباسات » المختلفة « والشبهات » المتعددة و « السموم » التى أثارها التغريب والغزو الثقافى لم تكن جديدة تماماً على المسلمين . فقد كانت مستقاة مما أثاره الزنادقة والباطنية فى العصور السالفة . وقد جاءت حقائق التاريخ والعلم لتزيف هذه الالتباسات والشبهات .

فمحاولة الفصل بين العرب والإسلام . أو إعلاء العروبة قد فصل فيها التاريخ فصلا صحيحاً . ذلك أن العرب كانوا بالإسلام فهو الذى صنع لهم وحدتهم ومجدهم وهم من غيره لم يكونوا شيئاً .

ومحاولة إعلاء الفرعونية أو الفينيقية قد فصل فيها التاريخ فصلا كاملا فما الفراعنة والفينيقيون إلا موجة من موجات الجزيرة العربية ، فهى موجات عربية أصلا ولقد انقطعت الصلات والروابط وأسباب اللغة والأخلاق والتراث فلم يعد منها خط واحد وكل المحاولات لربط خيوطه الرثة قد باء بالفشل ذلك أن الإسلام قد أنشأ العرب أمة جديدة حتى أصبح كل ما سبق من تاريخها مقدمة له لا تنهض بنفسها لحياة إنما تدعو إلى هذه الالتباسات شكوك وشبهات وسموم تعصف بنفوس خصوم المسلمين والعرب تحاول أن ترد التاريخ القهقرى وتمزق هذه الوحدة الجامعة التى صنعها الدين الحق .

حاول سلامة موسى أن يستغل كلمة للدكتور محمد شرف عن صلة بين المصريين والفراعنة فقال الدكتور شرف : إنى لا أعتقد أن مصر ستحيى حياة الفراعنة وليس لدى أقل شك فى أن حضارة المستقبل فى مصر ستكون إسلامية عربية لأن اللغة العربية — واللغات هى أساس الحضــارة — غنية بمادتها الرائعة وبلاغتها الكاملة .

ولقد حاول الغزو الفكرى وصولا إلى التغريب وضع هالات من البطولة حول شخصيات باهتة مارقة ضالة فى القديم كأبى نواس وبشار والسهروردى وابن عربى والحلاج .

وما استطاعت هذه المحاولات أن تنفخ الحياة فى الموات .

كذلك وضع التغريب هالات من البطولة حول غردون ولورنس وولفنجستون وستانلى وكلهم من المستعمرين وما استطاعت هذه المحاولات أن تبعث الثقة فى المبطلين .

ولقد حاول دعاة التغريب التمّوية بالقول بأن الحضارة الغربية وفكرها « كل لا يتجزأ » وأن على المسلمين والعرب إذا أخذوا الحضارة المادية أن يأخذوا فكرها. وكذبوا، فإنهم لم يعطوا المسلمين والعرب من علوم الحضارة شيئاً وإنما أعطوهم فتات الموائد والاستهلاكات . وحجبوا عنهم أسرار التكنولوجيا والعلوم ، وكذبهم التاريخ فى أسلوب التعامل فإن الغربيين حين انتزعوا أسرار العلوم من المسلمين فى الأندلس ، لم يأخذوا عقيدتهم ولا أسلوب عيشهم ، وإنما أخذوا تلك العلوم وصاغوها فى لغاتهم ومناهجهم . فلماذا لا يفعل المسلمون ذلك . ولماذا حين يجيء الدور عليهم يقال لهم إن الحضارة وفكرها كل لا يتجزأ . نحن نؤمن بأن العلوم الغربية ما هى إلا « مادة خام » من حقنا أن نأخذها لأننا أصحاب الفضل فى بنائها الأول . ومن حقنا أن نصوغها فى لغتنـــا العربية وفى فكرنا الإسلامى ، حتى يكون العلم ربانى وتكون الحضارة الإسلامية الحديثة « ربانية » قائمة على العدل والحق والإخاء الإنسانى ولن نسير سيرة الأوربيين أو نسلك طريقهم لأن لنا سيرة متميزة وطريقاً أصيلا ولن نأخـــذ « الحضارة خيرها وشرها وحلوها ومرها » كما دعانا إلى ذلك عميد الأدب العربى ولن نحتوى ولن نصهر فى بوتقة الأممية ، ولن ننخرط فى الحضـــارة الغربية كما سقطت بعض الدول الإسلامية مثل تركيا ثم عرفت أنها جاوزت الحق وأخذت تعود إلى الأسلوب الصحيح .

إن مواجهة الغزو الثقافى والتغريبى يجب أن تكون أكبر وجهة كتابنا ومفكرينا وهناك عدد من الميادين تحتاج إلى النظر والدراسة .

أولا : لكى نحرر الفكر الإسلامى يجب أن نفرق بين الأصيل والوافد :

فى كل مسألة اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية للإسلام وجهة نظر ، وهى مختلفة بالطبع مع وجهة نظر الفكر الوافد . ذلك أن الإسلام إنما يستمد وجهة نظرة من معين مختلف قوامه التوحيد ودعامته الفطرة وطابعه الوقوف على حدود الله دون تجاوزها وشمول النظرة وتكاملها جامعة بين الروح والمادة والنفس والعقل والدنيا والآخرة : تلك النظرة تختلف عن نظرة الغرب التى تقوم على الجزئية وتقتصر على المادة والعقل والدنيا دون اعتبار للروح أو الوجدان أو الآخرة وبذلك تقصر النظرة عن الوصول إلى الآفاق الكاملة وتظل محجوبة فى حدود ضيقة ونحن إزاء كل نظرية وافدة يجب أن نستعمل حقنا فى وضعها تحت المجهر الإسلامى لتراها على حقيقتها ومن حقنا أن نقبل كل ما يتفق مع مفهومنا الأصيل ونرفض ما يخالفه .

ثانياً : يجب أن نفرق بين أصول الإسلام وبين وقائع التاريخ الإسلامى :

بحيث لا تتخذ هذه الوقائع حجة على الإسلام وإنما نتخذها حجة على المسلمين الذين انحرفوا عن المنهج الربانى والتمسوا غيره من المناهج .

ذلك أن وقائع التاريخ الإسلامى سارت مع أصول الإسلام فى بعض الأحوال واختلفت عنه فى أحوال أخرى . ومن هنا فإننا لا نقبل أن يتخذ التاريخ الإسلامى الذى هو عمل المسلمين حكماً على عقيدة الإسلام .

كذلك فإن القاعدة الأصيلة هى أن الضعف والتخلف ليس نتيجة تطبيق الإسلام وإنما هو نتيجة تجاوز المسلمين لأصول الإسلام وقواعده .

ولقد حاول التغريب أن يصور حركة التاريخ الإسلامى كلها على أنها من صميم الإسلام .

ثالثاً : التفرقة بين الأخلاق وبين التقاليد :

فالأخلاق شطر من صميم الإسلام ، تجتمع مع العقيدة والشريعة فى

منهج متكامل . الأخلاق ربانية المصدر وهى من أصل الدين ثابتة على الزمن لم تتغير . وهى متصلة بالإنسان نفسه الذى يجمع فى تكوينه بين الروح والمادة والشر والخير فله إرادته الحرة فى اختيار أيهما وعليه مسئوليته والتزامه وجزاؤه .

ولقد كان الحق ولا يزال وسيظل هو الحق والباطل هو الباطل . ولقد كان الخير هو الخير والشر هو الشر منذ عرف الإنسان الحياة ، تلك هى فطرة الإنسان القادرة على التمييز بين الحلال والحرام وهذه أصول لم تتغير أبـــداً .

ومن هنا فهى قيم ثابتة مستقرة . ربانية المصدر ، من أصل الدين .

أما التقاليد فهى غير ذلك . إنها استجابات زمنية وبيئية لضرورات الحركة فى المجتمعات والأمم . وهى من صنع الناس . وهى لذلك متغيرة ويجب أن تتغير ، فإذا ثبتت فسدت وأسنت لأن الزمن يتجاوزها وذلك بخلاف قيم الأخلاق .

ومن أخطار التغريب أنه أخذ يعلى من شأن التقاليد والعادات حتى سودها على الأخلاق التى أخذت تختفى من المجتمعات الإسلامية بتغلب التقاليد . وذلك أمر من أخطر التحديات التى تواجه المصلحين المسلمين .

ولقد حاولت الفلسفات المادية أن تصور الأخلاق وكأنها تقاليد ، ولذلك قالت بنسبية الأخلاق وارتباطها بالبيئات ، وهى تعنى التقاليد ويرجع ذلك إلى أن الفلسفات المادية لا تقر الأديان السماوية وبالتالى فهى لا تعترف بالأخلاق كجزء ثابت منها وهذا هو « الاستشكال » القائم فى المجتمعات الإسلامية نتيجة لطرح مثل هذه النظريات .

ولكى نحرر موقفنا يجب أن نفهم الفارق العميق والواسع بين الأخلاق والتقاليد وأن نعرف أن الأولى من صميم الدين وهى ثابتة . وأن الأخرى من صناعة المجتمع وهى متغيرة . وعلينا أن نحرر المجتمع الإسلامى من سلطان التقاليد والعادات الذى لا يتفق مع الأخلاق .

رابعاً : الارتباط بالجذور وخطر تجاوزها :

ذلك أن كل نهضة ليست متصلة بالمصادر الأولى فهى نهضة زائفة ، ويمكن أن تضل طريقها وهذا هو ما تحاوله التغريب مع الفكر الإسلامى حين يهدف إلى حجب الأدب الحديث والفكر الحديث عن جذوره وأصوله الإسلامية تحت اسم الفكر العربى ، بديلا للفكر الإسلامى . وهذه ولا شك من أخطر التحديات فلنحذر من هذه النغمة الضالة المضلة . وعلينا أن نظل مرتبطين بأولياتنا الإسلامية وأصولنا التاريخية ، ولاريب أن النهضة الحديثة فى عالم الإسلام إنما صدرت عن المنابع الأولى . وليست عن أى مصدر آخر .

ولقد كان الإسلام قادراً دائماً على التجدد من الداخل وعلى انبعاث النهضة من أعماقه حين تقع الأمة فى أزمة التخلف .

ولا ريب أن كل مظاهر التجدد فى الأدب والفكر والثقافة الآن إنما هى مرحلة جديدة لحلقات متتابعة ، وأن دور الاتصال بالغرب منها لا يعدو أن يكون شبيهاً بدور الاتصال بالفكر اليونانى فى القرنين الثالث والرابع الهجريين فقد ترجم المسلمون التراث اليونانى والفارسى والهندى ، ولكنهم لم يسقطوا فى هوة التبعية لهذا التراث وإنما أخذوا منه ورفضوا وما أخذوه منه أعادوا صياغته وتشكيله فى إطار عقيدتهم وقيمهم . ثم بنوا عليه الجديد الذى بهر البشرية كلها فقد صاغ المسلمون المنهج العلمى التجريبى ومنهج المعرفة القائم على العقل والوجدان معاً ؛ وكشفوا عن سنن الله فى الكون وفى الأمم والحضارات وكل ذلك كان جديداً على الفكر البشرى وما زال متفاعلا مع الفكر الإنسانى .

فالمسلمون اليوم حين يواجهون التراث الغربى بشطريه إنما ينظرون فيه بحرص وحذر وهم قادرون على الانتفاع به دون أن يستوعبهم أو يحتويهم

ولقد استطاع شبابنا أن يجاوزوا سارتر وفرويد وماركس إلى آفاق أكثر سعة وأكثر عمقاً وأكثر اتصالا بالعصر وبالذات الإسلامية فى الوقت نفسه . إن معطيات الإسلام الثرة فى الحرية والإخاء الإنسانى والعدل الاجتماعى هى وحدها القادرة على أن تعطى البشرية كلها فى هذا العصر حاجتها الحقيقية .

لقد جمع الإسلام بين الروح والمادة ، والفرد والجماعة وربط بين الثابت الإلهى والمتحرك البشرى فى تناسق عجيب ، وفى مواءمة صادقة هى الفطرة الإنسانية لتسترد طمأنينتها ، وسعادتهــا . وهو ما تعجز كل النظريات والأيدلوجيات الوافدة عن تحقيقه .

(٥)

لا ريب أن التماس المنابع والحفاظ على الأصالة فى مواجهة الاستعمار والصهيونية والماركسية هو أقوى الوسائل القادرة على دفع الغزو الفكرى والتغريب . ذلك أن المحاولة كلها إنما تستهدف أمراً واحداً هو « إذابة » شخصية هذه الأمة . وقد جاءت كل الشبهات المطروحة من أجل تحقيق هذا الهدف . من أجل احتواء هذه الأمة فى بوتقة الأممية حتى تفقد طابعها الأصيل وروحها الحق . ذلك هو الخطر الماثل والأمر القائم الذى لا يغفل عنه مسلم ولا ينام .

ولقد استمات المسلمون أحقاباً دون أن يتحقق هدف عدوهم فى إذابتهم أو احتوائهم أو صهرهم فى بوتقته ، ولم يحرصوا على شىء قدر حرصهم على المحافظة على طابعهم الخاص . الربانى المصدر . الإنسانى المظهر . لأنهم إنما جاءوا ليقيموا هذه الملة الربانية المتميزة فى الأرض ، ويثبتوا دعائمها (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة) جاءوا ليكونوا كالشامة البيضاء فى الناس كما عبر الأثر الشريف .

والإسلام لم يحذر من شىء قدر تحذيره من التبعية والتقليد والاحتواء ولن يحول هذا التحرز والإصرار على ثبات الشخصية بيننا وبين تلقى أحدث معطيات العلم والفكر والمعرفة واستيعابها والترقى بها فى مختلف مجالات النهضة الحضارة والتقدم مادمنا نعتبر أن كل هذه المعطيات بمثابة « مواد خام » تجرى عليها عملية سبك وتحويل وانصهار فى داخل إطار فكرنا وقيمنا . والمسلمون يفهمون « التقدم » جامعاً بين التقدم المادى والتقدم المعنوى وليس تقدماً مادياً خالصاً والمسلمون لا يرفضون الجديد ولكن يقيسونه بحاجتهم وبأخلاقياتهم وقيمهم ويقبلون منه ما يزيدهم قوة دون أن يفقدهم

ذلك كيانهم وذاتيتهم ، والمسلمون يفرقون بين نقل العلوم التجريبية ونقل الفكر البشرى ، ونحن نريد أن نذكر أنفسنا دائماً بأننا أمة ذات حضارة متميزة وذات أصول فكر لها طابعها الخاص ، وقد دعينا إلى المحافظة على ذاتيتنا . ونحن نعرف أن هذه الذاتية الآن هى أكبر أهداف الغزو الاستعمارى والأيدلوجية التلمودية المنتشرة وراء عديد من المذاهب والدعوات .

ولنذكر أن الإسلام يدعو أصحابه دوماً إلى التحرر من التأثير الأجنبى الذى يخرجهم عن طبيعتهم وأصالتهم وإلى الحذر من الدعوات التى تقضى على الذات والهوية وتغير المعالم الأصيلة لعقيدتهم وفكرهم وثقافتهم ومزاجهم النفسى .

* * *

الباب الأول
تغريب الشريعة

الفصل الأول : تغريب الشريعة .

الفصل الثانى : الشبهات التى وجهت إلى الشريعة وكيف دحضها مفكرو الإسلام .

الفصل الأول

أولاً : تغريب الشريعة

كانت الشريعة الإسلامية والتعليم واللغة العربية هي كبرى أهداف النفوذ الأجنبي فقد حرص الاستعمار أن يفسدها جميعاً ليتمكن من السيطرة وفرض سلطانه وليستطيع أن يحول بين المسلمين وبين القدرة على مقاومة أو استرداد إرادتهم على ما يملكون .

ولقد كانت الشريعة الإسلامية هي القانون السائد فى البلاد الإسلامية منذ دخلت فى الإسلام قبل أربعة عشر قرناً حتى جاء الغزو الاستعمارى الغربى الذى كان حريصاً على إفساد المجتمعات والقضاء على مقوماتها الأخلاقية والمعنوية وإشاعة روح الرذيلة والجريمة فيها والتمكين لنفسه فى البقاء واحتواء العناصر الضعيفة التابعة والموالية له . « لقد حكم البلاد الإسلامية إبان حضارتها قانون منبعث من عقيدتها ، فاستطاع هذا القانون أن يرسى دعائم العدل والرحمة والكرامة بين أهل هذا المجتمع سواء من كانوا من أهل الكتاب المقيمين أو من الأجانب ، فلما جاء النفوذ الأجنبى أزاح ذلك كله وأقام نظاماً جديداً قوامه القانون الغربى فى مختلف مسائل الأسرة والمجتمع والتجارة والمعاملة فأحدث ذلك اضطراباً شديداً وقد دعم النفوذ الأجنبى سلطانه السياسى والاجتماعى والاقتصادى بأن أقام معاهد الحقوق والتجارة لتدرس النظم الأجنبية القائمة على إباحة الربا والزنا والخمر والميسر فى المجتمع الإسلامى وكان قانون العقوبات من أخطر هذه القوانين التى أباحت جرائم الزنا وهتك الأعراض وأخرجت المجتمع الإسلامى من ضوابطه وقيمه وكان الأمر كذلك فى دائرة المعاملات حيث فرضت القوانين التى تبيح الربا وتجعله أساس جميع وجوه التعامل فى البيع والشراء والإجارة وغيرها .

وقد جاء هذا التحول الخطير في أعقاب الأزمة الاقتصادية التي وقعت فيها مصر نتيجة لاستدانة إسماعيل باشا من المصارف الأجنبية ، تلك المبالغ التي جرت معها نفوذ الدائنين وسيطرتهم على الاقتصاد المصرى ثم الحكومة نفسها . ومطالبتهم بنظام غربي جديد يمكنهم من فرض سلطانهم على الاقتصاد المصرى وقد جرى ذلك في دائرة الامتيازات الأجنبية التي مكنت الأجانب من إقامة محاكم خاصة لهم للفصل بين رعاياها وبين أهل البلاد وكان لها أحكامها بتعويضات باهظة تجاه الحكومة المصرية نفسها بلغت في أربع سنوات نحو ثلاثة ملايين من الجنيهات .

وكان المخرج من هذا هو إنشاء المحاكم المختلطة لتكون بديلا للقضاء القنصلي وقد قامت هذه المحاكم ١٨٧٥ واشتركت فيها أغلب الدول الأوربية واستدعت إنشاء قوانين غربية المصدر منها القانون المدني والقانون التجاري والقانون البحري . وقانون العقوبات ، وقانون تحقيق الجنايات وقانون المرافعات وكانت هذه القوانين هي الأساس الذي قامت عليه من بعد نظم المحاكم الأهلية وبذلك سيطرت القوانين الأجنبية على مختلف شئون المجتمع المصري بديلا للشريعة الإسلامية التي انحسر نفوذها في دائرة الأحوال الشخصية وهي مجموعة القواعد التي تحدد العلاقة بين الفرد وأسرته وهكذا حجب القانون الفرنسي الشريعة الإسلامية عام ١٨٨٥ في مؤامرة واسعة النطاق إشترك فيها الخديوي والحكومة المصرية والاحتلال الأجنبي واستمر العمل بهذه القوانين في المجال المدني والتجاري والاجتماعي حتى الآن مع تعديلات يسيرة أدخلت خلال تلك المدة الطويلة التي قاربت قرناً من الزمان

وما تزال المحاولات تجرى بشأن تعديل هذه القوانين وإن كانت صيحة الدعوة إلى العودة إلى الشريعة الإسلامية لم تتوقف .

(٢)

في الدولة العثمانية كانت الشريعة الإسلامية هي شريعة البلاد الأولى ، وقد قام المشرعون المسلمون بإعداد هذا النظام في إطار قانون مدني عرف باسم المجلة عام ١٨٦٩ قننت فيه أحكام الشريعة الإسلامية على مذهب الإمام أبي حنيفة وكان هذا القانون مطبقاً على جميع رعايا الإمبراطورية

العثمانية وعلى جميع الأقطار التابعة لها وخاصة فى الشام (سوريا ولبنان) حتى جاء الاستعمار الفرنسى فأدخل تعديلات على القوانين المدنية والجنائية والتجارية تستهدف فرض سلطانه ونفوذه وإقصاء مبادئ الشريعة الإسلامية التى كانت تقف فى وجه مطامعه وأغراضه .

ثم أسقطت تركيا نظام التشريع الإسلامى بعد الحرب العالمية الأولى ، واتخذت بدلا منه تشريعات غربية سويسرية وإيطالية .

ولا ريب فى أنه كان للعهود والمواثيق التى وقعتها الدولة العثمانية مع الدول الأوربية والتى أطلق عليها من بعد اسم (الامتيازات الأجنبية) أثرها فى سيطرة الدول الغربية على خيرات البلاد وقد ظلت هذه الامتيازات قائمة فى مصر حتى ١٩٢٧ وفى سوريا حتى عام ١٩٤٧ وعن طريق هذه الاتفاقيات تسرب النفوذ الأجنبى فى مجال التعليم والثقافة وكان لهذه القوانين حمايتها للإرساليات التبشيرية .

بدأت هذه الاتفاقيات عام ١٥٢١ بين الدولة العثمانية وفرنسا ثم امتدت إلى عديد من الدول الأوربية إنجلترا وهولندا وغيرها ونصت هذه العهود على السماح للأوربيين بدخول الأراضى العثمانية والاستقرار فى أى جزء من أجزائها دون ضغط أو إزعاج والمتاجرة وحرية التنقل واستيراد مختلف البضائع وضمنت للأجانب الحرية الشخصية ، وحرية الديانة وعرف هذا النظام باسم القناصل وأخذت الدولة العثمانية تتوسع فى اقتباس التشريع الأجنبى منذ أقرت قانون التجارة الفرنسى ١٨٥٠ الذى تختلف نصوصه اختلافاً واضحاً عن أصول الشريعة الإسلامية ثم صدر قانون المحاكم التجارية ١٨٥٨ وقانون الانتقال فى الأراضى الأميرية الذى أخذ عن القانون الألمانى والسويسرى وفيه مخالفة صريحة لأحكام الميراث التى وردت فى القرآن حيث سوى بين الزوج والزوجة فى الميراث ثم جاءت قوانين العقوبات وقانون التجارة البحرية وقانون أصول المحاكمات وغير ذلك من القوانين . وكانت وثيقة (كونخانه) أخطر هذه الوثائق حيث أعلنت المساواة بين جميع رعايا الدولة أمام القانون دون تمييز ، وبعدها أصدرت الدولة العثمانية

الخطر الهمايونى الذى يقر ويعترف للمحاكم الطائفية باستقلالها وحق القضاء فى الأحوال الشخصية .

وهكذا « دخلت القوانين الوضعيه بلاد المسلمين مع الامتيازات الأجنبية لتحكم بها المحاكم القنصلية بين التجار المسلمين فى الثغور الإسلامية ولم تكن أول أمرها لتطبق على المسلمين فلما اشتد ضعف الدولة العثمانية وطغيان دول الغرب اعتدوا بها على سيادة الإسلام فحكموا بين المسلمين والنصارى بها ثم جاء عهد الاستعمار ففرض قوانينه ومحاكمه وقضاته فى دار الإسلام على المسلمين وأمرائهم ووزرائهم بالقوة والقهر ، أو بالكيد والمكر وهذا ما حدث فى الجزائر ومصر .

وكانت مصر المدخل الرئيسى للقوانين الأجنبية ومنها تسرب إلى باقى البلاد القريبة . وقد تجرأ على هذه الفعلة (محمد على الكبير) إبان صداقته لفرنسا حيث بدأ يتحيف على الشريعة الإسلامية ويصدر القوانين الوضعية ويذكر فى مقدمتها أنه يتشبه بممالك أوربا بوضع النظامات الجديدة فى مصر ثم جمع هذه القوانين واللوائح فى مجموعة أصدرها عام ١٢٥٣ وأسماها (قانون نامة) وأسس محكمتين تجاريتين بالقاهرة والإسكندرية وعين فيهما قضاة أجانب .

وفى دولة الخلافة تطور تدوين الشريعة وصيغت فى قوالب قانونية أمر السلطان بتطبيقها فى جميع أنحاء الولايات العثمانية ومصر منها . فلما بلغ الأمر إلى إسماعيل رفض أن يطبقها لأنه أعلن استقلاله وكان قد قال إن مصر قطعة من أوربا وبقيت (المجلة العدلية) تطبق فى تركيا على كل الولايات حتى جاء حكم الكماليين ١٩٢١ فألغوا كل اتصال بينهم وبين الشريعة الإسلامية وتمت السيادة للقوانين الوضعية فى مصر فى عهد إسماعيل وابنه توفيق فقد فاوض وزير إسماعيل : نوبار باشا دول الامتيازات الأجنبية فى قوانين للمحاكم المختلطة فتم وضعها ١٨٧٥ .

وحرصت الدول الأجنبية على أن تكون قوانينها مسايرة للقوانين الأوربية بعيدة عن الشريعة . ثم أنشأ نوبار باشا وأولياؤه لجنة لوضع قوانين لتكون دستوراً للمحاكم الأهلية للحكم بها بين المسلمين فوضع قانون مدنى

قانون جنائى . قانون تجارى وصدرت هذه القوانين ١٨٨٣ وعمل بها ١٨٨٤ وعممت فى سائر أنحاء مصر بواسطة المحاكم الأهلية ١٨٨٩ .

وعرضت القوانين على لجنة من علماء الأزهر فقالوا : إن هذه القوانين ببنودها إما أن توافق نصاً صريحاً فى أحد المذاهب الأربعة أو لا تعارض نصاً فيها . أو أنها تعتبر من المصالح المرسلة التى يجوز الاجتهاد فيها رعاية لمصالح الناس .

وارتفعت الدعوة إلى القضاء على المحاكم الشرعية وإلغائها وتحويل اختصاصها إلى المحاكم الأهلية بحجة توحيد القضاء . وقد مهد (بطرس غالى) لإلغاء المحاكم الشرعية من أجل سلب المسلمين آخر ما بقى لهم فى الحكومة من أمورهم المالية .

وقد ألغيت المحاكم الشرعية عام ١٩٥٥ وتابعت مصر فى هذا كثير من الأقطار العربية بحجة توحيد القضاء .

ويلاحظ أن إسقاط الشريعة فى مصر جاء قبل الاحتلال وأنه مر بمرحلتين أولاهما فى عهد محمد على والأخرى فى عهد إسماعيل . ولا ريب أن كلمة الخديو إسماعيل (أنه يخشى أن تجبره أوربا على الحكم بقوانين نابليون) كانت مراوغة ماكرة .

وروى رشيد رضا ومحب الدين الخطيب روايات مختلفة . يقول الدكتور محمد عبد الجواد :

إن إسماعيل طلب من المشايخ وضع قوانين إسلامية على غرار القوانين العثمانية وأنهم اختلفوا فترك لهم إسماعيل قوانين الأحوال الشخصية وزرأ البلاد بالتشريعات الفرنسية التى أخذت قوانينها تستقر بعد إنشاء المحاكم المختلطة لصالح الأجانب وبعد أن استعير قانون نابليون نفسه لهذه المحاكم . وبذلك برز الفكر القانونى الغربى فوق منابر القضاء وعلى ساحة الدراسات القانونية فى مصر وانزوت إلى حين مصادر الشريعة الإسلامية . وعندما قامت الثورة العرابية لمدافعة السيادة الأجنبية على البلاد كان تعبيرها واضحاً تجاه العمل بالشريعة الإسلامية فأحالت على محمد قدرى وزير العدل ١٨٨٠ مهمة وضع قانون مدنى مطابق لأصول ومبادئ هذه الشريعة » (الأخبار ٤ / ٢ / ١٩٧٢)

ويقول رشيد رضا : قعد أهل الأزهر عن إجابة طلب إسماعيل باشا الخديو تأليف كتاب فى الحقوق والعقوبات موافق لحال العصر سهل العبارة مرتب المسائل على نحو ترتيب كتب القوانين الأوربية وكان رفضهم هذا الطلب هو السبب فى إنشاء المحاكم الأهلية واعتماد الحكومة فيها على قوانين فرنسا وإلزام الحكام بترك شريعتهم وحرمانهم من فوائدها وفى توجه عزائم الكثير من نابتة الأمة إلى درس تلك القوانين فى مصر وأوربا ولولا جمود أهل النفوذ من علماء الأزهر لكانت هذه المحاكم شرعية آهلة بالعلماء .

وليس إبطال هؤلاء العلماء للشريعة بعدم إجابة طلب إسماعيل باشا السابق بأعجب من اعتذارهم عنه ، إنهم تعللوا بل احتجوا بأنهم يحافظون بذلك على الشرع وطريقة سلفهم الأزهرى فى كتب التأليف .

حدثنى على رفاعه باشا قال : إن إسماعيل باشا لما ضاق بالمشايخ ذرعاً استحضر والده رفاعه بك وعهد إليه بأن يجتهد فى إقناع شيخ الأزهر وغيره من كبار الشيوخ بإجابة هذا الطلب وقال له : إنك منهم ونشأت معهم فأنت أقدر على إقناعهم فأخبرهم أن أوربا تضطرنى إذا هم لم يجيبوا الطلب إلى الحكم بشريعة نابليون فأجابه رفاعة إننى يا مولاى قد شخت ولم يطعن أحد فى دينى فلا تعرضنى لتكفير مشايخ الأزهر إياى فى آخر حياتى وأقلنى من هذا الأمر فأقاله . وكان إنشاء هذه المحاكم التى يرى المشايخ أنها مؤسسة على الكفر والظلم .

ويبدو من مراجعة الكتابات التى تناولت هذه الفترة أن الاتجاه كان يرمى إلى تقنين الشريعة الإسلامية . ولكن هذا الاتجاه دمر تماماً بعد الاحتلال البريطانى .

فقد أشار الدكتور محمد حسين هيكل فى ترجمته لمحمد قدرى باشا (المتوفى سنة ١٨٨٦) أنه فى عصر إسماعيل عربت القوانين الفرنسية التى وضعت أيام نابليون وعهدت الحكومة المصرية إلى جماعة من المترجمين المصريين بهذه المهمة . فترجم القانون المدنى الفرنسى (رفاعه رافع) كما عرب قانون المرافعات وعرب قدرى باشا قانون العقوبات وعرب صالح مجدى قانون تحقيق الجنايات وطبعت جميعها بالمطبعة الأميرية ١٢٨٣ هـ .

يقول هيكل باشا إن قدرى باشا: اتجه إلى تقنين أحكام الشريعة الإسلامية وزاده فى هذا الاتجاه أن عهد إليه الاشتراك فى ترجمة قوانين المحاكم المختلطة إلى اللغة العربية مع اللجنة التى أنشئت فى وزارة الحقانية للقيام بهذا العمل تمهيداً لوضع تشريع جديد للمحاكم الأهلية التى أزمع أنشاؤها من يومئذ اشتغل بالتوفيق بين أحكام الشريعة الإسلامية. وألف كتاباً ما زال محفوظاً فى دار الكتب عن تطبيق ماوجد من القانون المدنى الفرنسى موافقاً لمذهب أبى حنيفة. وقد عمل قدرى باشا مستشاراً للمحاكم المختلطة وظل فى منصبه هذا إلى أن عين وزيراً للحقانية فى عهد توفيق. وعمل على وضع القوانين للمحاكم المختلطة التى أريد أنشاؤها واشترك بنفسه فى وضع القانون المدنى وقانون تحقيق الجنايات والقانون التجارى.

وأشارت المقتطف فى ترجمة له بمناسبة وفاته فى ٢٢ نوفمبر ١٨٨٨ أنه كان رئيس لجنة ترجمة قانون العقوبات للمحكمة المختلطة وأنه ترجم قوانين المحاكم المختلطة مع بطرس غالى وحسين فخرى.

وله كتبه الثلاثة: الأحوال الشخصية والمعاملات والأوقاف.

ويشير إلى هذا المعنى السيد محب الدين الخطيب فى بحث له فيقول إن إسماعيل عرض على العلماء فكرة قانون مدنى مصرى من أوفق الأقوال فى جميع المذاهب الفقهية الإسلامية فاستنكروا الفكرة وأبو أن يكونوا عوناً على تحقيقها لأنها قائمة على أساس التلفيق بين المذاهب والتلفيق أمره مستنكره وقد قاس المشايخ تلفيق الأحكام فى قانون الدولة بتلفيق الأحكام فى معاملات الأفراد فأبوا الموافقة على قانون لا يتقيد بمذهب فقهى واحد. يقول: وكان نوبار باشا قد عهد فى ذلك الحين إلى مسيو نونورى المحامى فى الإسكندرية أن يترجم للمحاكم المختلطة قوانين فرنسا المدنية والجنائية، والتجارية فلما انقطع الرجاء من جعل قوانين المحاكم الأهلية مستمد أحكامها من الفقه الإسلامى نيط وضع هذه القوانين بلجنة مؤلفة من حسين فخرى وبطرس غالى ومسيو لو ومسيو موريوندو فوضعت القانون المدنى الأهلى باللغة الفرنسية مأخوذاً من القانون الفرنسى بقليل من التعديل ثم قام بطرس بطرس غالى بنقله من الفرنسية إلى العربية.

ولم يتوقف الأمر بعد الاحتلال عند حجب الشريعة الإسلامية عن العمل في ميادين الاجتماع والاقتصاد بل كانت هناك محاولة للقضاء على جذورها في الأحوال الشخصية والمحاكم الشرعية . وقد هاجم اللورد كرومر المحاكم الشرعية في تقريره عام ١٩٠٣ ومنها انطلق الهجوم على الشريعة الإسلامية ووصفها بأنها شريعة صحراوية بدوية ووضعت حكومة بطرس غالى قانوناً لإلغاء المحاكم الشرعية وهدم هذه البقية الماثلة من التشريع الإسلامى وقال الشيخ محمد عبده إن الواضع للقانون هو بطرس غالى وإن الغرض منه التمهيد لإلغاء المحاكم الشرعية وجعل الحكم فى الأمور الشخصية من خصائص المحاكم الأهلية . أورد هذا فى خ‍ ٨ م ٣٠ من مجلة المنار .

وقد وجد ما أشار إليه كرومر معارضة شديدة وتقدم عدد من الباحثين المسلمين لدحض ما ادعاه كرومر ونقضه .

ثم جاءت فرصة أخرى لمعارضة الشريعة الإسلامية إبان وضع الدستور بعد ثورة ١٩١٩ وعندما بدأت مصر تدخل مرحلة الاستقلال إذ انطلق دعاة التغريب إلى ما أسموه : الدعوة إلى توحيد التشريع فى مصر وقد حمل لواءها محمود عزمى صاحب جريدة السفور الذى طالب بتطبيق القانون الوضعى على جميع المصريين مهما تكن أدياتهم ومعتقداتهم بمعنى أن على حد تعبيره يكون — للمصريين كلهم أحكام زواج وطلاق واحدة و بمعنى أنه إذا رغبت مسلمة ولتكن إحدى أخواتنا مثلا أن تتزوج من قبطى فلا يكون هناك مانع ولا اعتراض. وأطلق على هذا الاتجاه « مدنية القوانين » وكتب الشيخ رشيد رضا يواجه هذا التيار فقال : مدنية القوانين أو سعى المتفرنجين إلى نبذ بقية الشريعة الإسلامية من مواد الدستور الأساسية : أن دين الدولة المصرية الرسمى هو دين الإسلام . ساءت هذه المواد بعض ملاحدة المتفرنجين وقام منهم من يقترح الإصلاح لمصر فى عهد الاستقلال والدستور بأن توحد قوانينها فتصبح كلها مدنية بوضع قانون مدنى للأحوال الشخصية من زواج وطلاق .

وقال : إن هذا الفريق من المتفرنجين ربيب بعض ساسة الفرنج الذين سعوا لتحويل حكومة مصر وغيرها من أحكام الشريعة الإسلامية فى المعاملات المالية والعقوبات وغيرها واستبدال قوانينهم بها فكان لنجاحهم تأثير عظيم فى إضعاف مقوماتنا الملية بإعراضنا عن أصول التشريع الذى قامت عليه مدنيتنا العربية الزاهرة والهدف هو السير إلى حل الرابطة الإسلامية فى شعوب المسلمين من طريقين : أحدهما تعميم المدارس الخاصة بهم كمدارس دعاة النصرانية المبشرين فى بلاد الإسلام ومدارس الحكومة التى يسيطرون عليها والطريق الثانى إقناع المتفرنجين من الأدباء والكتاب بوجوب الفصل بين الدين والحكومة وبأن الشرع المبنى على أصول الدين لا يصلح لترقى البشر الدنيوى وبأن الشرع الإسلامى قد وضع لأمة بدوية أو قريبة من البداوة فلا ينطبق على مصالح الناس فى هذا العصر وبوجوب توحيد قوانين الأمة وجعلها موافقة جميع أهل الأديان .

وقال رشيد رضا : ولا يزال خصوم الشرع الإسلامى والكارهون للصبغة الإسلامية فى هذه البلاد يدين سوادها الأعظم بالإسلام يجددون الحملات الظاهرة والدسائس الباطنة لمحو كل ما هو فيها وأن الحكومة المصرية لما قررت العمل بقوانين فرنسا لم يكن للأمة المصرية التى يدين سوادها الأعظم بالإسلام قول ولا رأى فى شئون الحكومة وإن ما تحكم به المحاكم الأهلية من قتل أو مال مخالفاً لنصوص الشريعة القطعية فإنما إثمه على القاضى دون أفراد الأمة الذين لا يملكون منعه من الحكم » .

(٤)

منذ أن جرى تطبيق القانون الوضعى بدأ يتبين عجزه عن تحقيق الأمن من المجتمع الإسلامى وعدم قدرته على استيعاب مطالب المسلمين ومشاكلهم وبدأ قصوره واضحاً فى هذا الميدان وارتفعت الأصوات بالدعوة إلى تعديله وكان ذلك طبيعياً فى مجتمع عاش حياته فى نطاق الشريعة الإسلامية ، وقد تحقق للنفوذ الأجنبى بحجبها وتطبيق القانون الوضعى الغاية المرتجاه والهدف الذى قصد إليه وهو القضاء على مقومات مجتمعنا العربى الإسلامى وتغيير العرف الإسلامى والعربى القائم على القيم الأخلاقية المستمدة من أديان السماء

ذلك أن هذه القوانين الغربية قد وضعت لمجتمع غير مجتمعنا ولعرف غير عرفنا وفى ظل ظروف تختلف تماماً فالمجتمع الإسلامى العربى يقدس العرض ويكرم العلاقة بين الرجل والمرأة ويضعها فى أعلى مكان ورسم لها أرقى النظم وأكملها وأقارها على حماية الأسرة والمجتمع . ومن المسلم به أن القانون فى أمة من الأمم إنما يستمد مواده من قيم المجتمع وأخلاقياته وعاداته وأعرافه . ولما كانت هذه القيم والأعراف فى المجتمع الإسلامى راعية للفضيلة فقد عجزت هذه القوانين أن تستجيب لمجتمعنا . وآية ذلك أنها منذ ذلك التاريخ إلى اليوم وقد مضى عليها قرابة قرن فإن النفسية الإسلامية لا تستسيغها ولا تقبلها ولا تجدها متصلة بها أو مستجيبة لها وأبرز وجوه النقص إنما تتمثل فى القانون الجنائى حيث يقضى القانون الوضعى بعدم توقيع عقوبة على جريمة الزنا أو هتك العرض ويتمحل الوسائل لتبرير هذه الجريمة ويرى أن رضا الطرفين وارتفاع السن عن ثمانية عشر عاماً ووقوع الجريمة فى غير منزل الزوجية . كل هذه تعللات لعدم توقيع العقوبة وهذه الحالات التى يعفى فيها الزانى والزانية وهاتك العرض عن العقوبة بحسب القانون المصرى تشمل فى الواقع معظم الحالات التى تحدث فيها هذه الجرائم لأنه من النادر أن تحدث هذه الجرائم بغير رضا الطرفين كما أنه من النادر أن يرتكب زوج جريمة الزنا فى المنزل الذى يقيم فيه مع زوجته فقانون العقوبات المصرى قد أعفى إذن من العقوبة جرائم الزنا وهتك العرض والشذوذ الجنسى

هذه المواد مقتبسة مع تغيير يسير من قانون العقوبات الفرنسى وعن هذا القانون استمدت معظم القوانين الأوربية والأمريكية . يقول الدكتور على عبد الواحد وافى : إن القوانين تستمد موادها الخاصة بهذا النوع من الجرائم من تقاليد الشعب وعرفه الخلقى ومقاييسه للفضيلة والرذيلة فإلى أى مدى تتفق قوانين الغرب فى الصدد مع تقاليد أهله وإلى أى مدى تتفق مع قوانيننا . إن هذه القوانين تعبر عن أهل الغرب وعرفهم الخلقى ومقاييسهم للفضيلة والرذيلة ونظرتهم إلى هذه الأمور .

أما نحن فلا تزال مسائل العرض عندنا من أهم المسائل التى نحافظ عليها ولا يزال الناس يقاتلون ويقتتلون فى سبيل المحافظة على العرض والذود

عنه ولا نزال ننظر إلى الزنا على أنه من أكبر الفواحش وأعظم الآثام ولا يقبل عرفنا الخلقى أن تعفى الزوجة الزانية من العقوبة .

فإذا جاءت قوانيننا مع ذلك وقررت أن الزنا واللواط لا عقوبة لها فإنها بذلك تنحرف عن ديننا الإسلامى وعن تقاليدنا وعرفنا الخلقى ومقاييسنا للفضيلة والرذيلة ولا شك أن سيرنا وفق القوانين الأوربية فى معظم قضائنا المدنى والجنائى زهاء قرن ونصف ودراستنا لهذه القوانين فى كلياتنا ومعاهدنا واستئثارها بأكبر قسط جعله يظن أنها أفعل طريقة فى التشريع والقضاء ويظن أن قوانين الإسلام قد أصبحت غير ملائمة للعصر الحاضر . ذلك أن ما استوردناه من قوانين الغرب لا يتعارض مع أحكام الإسلام فحسب بل يتنافر كذلك مع طبائعنا وتقاليدنا وعرفنا الخلقى ومقاييسنا للفضيلة والرذيلة ونظرتنا لما ينبغى أن تستقر عليه العدالة وتكون عليه العلاقات بين الناس وأنه لا تستقيم لنا حياة اجتماعية ولا يتحقق لنا استقرار حضارى مع وجود هذا النوع من القوانين .

إن المستعمر لم يدخل هذه القوانين فى بلادنا إلا ليشيع فينا الفاحشة ويشيع بيننا الفجور والانحلال ونتجرد من أهم نواحى المناعة الخلقية التى نستمدها عن عرفنا وتقاليدنا حتى ييسر له بذلك كل وسائل إذلالنا والسيطرة علينا ولا غرابة مطلقاً فى توقيع عقوبة الجلد والرجم على الزانى والزانية فعقوبة الإعدام وعقوبة الجلد وهما عقوبتان مقررتان فى مختلف الشرائع ومختلف الشعوب ومطبقتان فى جرائم تقل كثيراً أضرارها الاجتماعية والعمرانية عن جريمة الزنا واللواط وهتك الأعراض . والشريعة الإسلامية لا توقع حدودها إلا إذا توافرت شروط يندر فى الواقع توافرها بل يكاد يكون من المتعذر توافرها .

(٥)

هذه المعانى كشفها كثير من دعاة اليقظة الإسلامية ولم تتوقفوا عن الإذاعة بها وترديدها فى سبيل المطالبة بالعودة إلى الشريعة الإسلامية ولم يتوقف علماء المسلمين منذ فرضت القوانين الوضعية عن المطالبة بتعديلها ولم يتوقف الحملة على استنكار أحكامها وقد تكشفت هذه الفترة عن شعور عارم

فلق لم يستقر أبداً بقبول القانون الوضعي وأحكام القضاء ويرجع ذلك إلى مدى الفوارق البعيدة بين طبائع المسلمين وفطرتهم وبين هذه القوانين التي لم توضع لهم أساساً والتي وضعت لمجتمعات تختلف اختلافاً كثيراً من حيث العواطف والمشاعر ومن حيث مفاهيمها للحلال والحرام ولما ترضاه وتنكره .

وقد ارتفعت الدعوة بالمطالبة بمراجعة هذه القوانين وتغييرها بقوانين مطابقة للشريعة الإسلامية .

وتعالت هذه الصيحة فى نفس الوقت الذى أخذت المجامع الدولية تعترف بالشريعة الإسلامية وترى أنها أصلح الشرائع لحكم البشرية ومنذ عام ١٩٢٥ دوت صيحة عميد كلية الحقوق فى مؤتمر الحقوقيين الذى عقد فى أثينا حين قال إن البشرية لتفخر بانتساب رجل مثل محمد صلى الله عليه وسلم إليها فقد استطاع برغم أميته أن يأتى العالم بتشريع سنكون نحن الغربيين أسعد ما يكون لو وصلنا إلى قمته بعد ألفى سنة .

وفى مؤتمر القانون الدولى فى لاهاى ١٩٣٧م قرر رجال القانون العالميون اعتبار الشريعة الإسلامية مصدراً من أهم مصادر التشريع العام وأعلنوا أنها شريعة حية صالحة للتطور وأنها قائمة بذاتها وليست مأخوذة من غيرها .

وتوالت اعترافات رجال القانون العالميون بمكانة الشريعة الإسلامية حتى أوصى مؤتمر القانون المقارن فى لندن ١٩٥٠ بعقد دورة خاصة لدراسة أبحاث الفقه الإسلامى فعقدت فى باريس ١٩٥١ وتناولت أبحاث إثبات الملكية ونزع الملكية للمنفعة العامة والمسئولية الجنائية وأعلن المؤتمر فى ختامه شهادة صادقة للشريعة الإسلامية فقال :

إن المبادئ الإسلامية قد سمحت للحقوق بأن تستجيب للرغبات التى تتطلبها الحياة الحديثة وأن المناقشات أوضحت بجلاء ما لمبادئ القانون الإسلامى من قيمة لا تقبل الجدال وأنها تضم أشرف النظريات القانونية والفن البديع وكل هذا يمكنها من تلبية جميع حاجات الحياة العصرية .

وقال نقيب المحامين السابق فى باريس تعليقاً على البحوث : لست أدرى كيف أوفق بين ما كان يحكى لنا عن جمود الفقه الإسلامى وعدم صلاحيته أساساً تشريعياً بما يفى بحاجات المجتمع العصرى المتطور وبين ما نسمعه الآن

لقد ثبت بجلاء أن الفقه الإسلامي يقوم على مبادئ ذات قيمة أكيدة لا مرية في نفعها وأن اختلاف المذاهب الفقهية ينطوى على ثروة ومجموعة من الأصول تتيح لهذا الفقه أن يستجيب بمرونته لجميع مطالب الحياة الحديثة .

وفى عام ١٩٦٨ أقر المؤتمر الدولى للقانون والتنمية الاقتصادية « اعتبار الشريعة الإسلامية مصدراً لجميع التشريعات العربية لما امتازت به من مرونة كبيرة .

(٦)

وكشفت عشرات الأبحاث العالمية عن جوانب كثيرة من الشريعة الإسلامية استطاعت أن تستمد منها القوانين الأجنبية مادة خصبة لقوانينها :

أولا : تبين أن مبدأ حرية التعاقد ومبدأ تقرير قيمة الشهادات وعدم تجزئة الإقرار وفسخ عقود الديون المضرة ومبدأ تغير الأحكام بتغير الزمان والأمكنة والأحوال هذه القوانين الجديدة التى عرفها الغرب فى السنوات المائة الأخيرة تبين أنها مما استمد من دراسات ابن القيم التى كتبها قبل خمسمائة عام .

ثانياً : ما كشفه عمر لطفى فى دراسته عن حرمة المنازل التى استمدها من القرآن الكريم :

« يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم » الآية .

وكان الفرنسيون قد استمدوا من التشريع الإسلامى قانون حرمة المساكن فقال المسيو فرنان راجين : يكاد يكون الاعتقاد السائد فى فرنسا أن احترام المسكن لا يشغل فى تقنين العالم الإسلامى إلا مكاناً قليلا فقد ثبت أن الشريعة الإسلامية تحرم مثل هذا الانتهاك تحريماً مطلقاً فقد ذكر عمر لطفى أن القرآن (مفسراً) يحرم على كل شخص أن يدخل بيت الآخر بغير رضاه إلا فى أربع حالات :

الأولى : إذا كان مرخصاً له فى الدخول فيه عادة .

الثانية : إذا دعى إليه فإن الدعوة تساوى الإذن بالدخول .

الثالثة : إذا دعى فى حالة حريق أو فيضان أو ارتكاب جناية .

الرابعة : إذا كان البيت مفتوحاً للأفراد كالحانوت والحمام . وكل من ينتهك حرمة مسكن استحق التعزير ، والتعزير هو عقاب لكل جريمة ليس لها حد . حده الأول التوبيخ . والأقصى القتل . حسب جسامة الجريمة وحال المجرم . ومع ذلك فإن تحريم دخول المساكن من غير استئذان ليس قاصراً على الأفراد بل يتناول السلطة الحاكمة .

ثالثاً : تبين أن نظرية التعسف فى استعمال الحقوق . التى عرفتها القوانين الحديثة قد أخذت من الإمام الشاطبى الذى أثبت فى تحليل وتفصيل دقيقين أنه يجب منع الفعل المأذون به شرعاً إذا لم يقصد منه فاعله إلا الإضرار بالغير . وفى هذا الموضوع قدم الدكتور محمد فتحى أطروحة الدكتوراه فى فرنسا عن مذهب الاعتساف فى استعمال الحق . وقد علق العلامة كيهلر القانونى الألمانى على هذه الرسالة فقال :

لقد كان العلماء الألمان يتيهون عجباً على غيرهم فى ابتكار نظرية الاعتساف والتشريع لها فى القانون المدنى عام ١٧٨٧ م .

أما وقد ظهر بحث الدكتور فتحى وأفاض فى شرح هذا المذهب عند رجال التشريع الإسلامى وأبان بأن رجال الفقه الإسلامى تكلموا طويلا فى هذا ابتداء من القرن الثامن الميلادى فإنه يجدر بالعالم القانونى الألمانى أن يترك مجد العمل بهذا المبدأ لأهله الذين عرفوه قبل أن يعرفه الألمان بعشرة قرون ، وأهله هم حماة الشريعة الإسلامية .

(٧)

ومع هذا الاعتراف العالمى بالشريعة الإسلامية وعظمتها فقد ظلت القوى الاستعمارية تعارض دعوة حركة اليقظة الإسلامية إلى التماس الشريعة الإسلامية منهجاً للحياة الاجتماعية المصرية والعربية الإسلامية وظلت أغنى الأمم فى مجال التشريع عالة على القوانين الوضعية وإن كان بعض الفقهاء قد خطا خطوات بطيئة فى إدخال الفقه الإسلامى إلى القوانين الوضعية كعامل إضافى أو كمصدر احتياطى لا يرجع إليه إلا إذا عجز القاضى عن أن يجد نصاً تشريعياً يحكم النزاع المعروض عليه أو لم يجد عرفاً جرى عليه لحل هذا النزاع .

ولقد عارض الرأى العام هذا النص وطالب بجعل الشريعة الإسلامية المصدر الرسمى الوحيد لكل تشريع يصدر فى البلاد وتحت هذا الضغط وعند مراجعة المشروع جعلت الشريعة الإسلامية مصدراً تشريعياً فى الدرجة الثالثة يجئ بعد نصوص القوانين وبعد العرف وفى كل مرة تعاد صياغة القانون الجنائى تخطو الصياغة خطوة نحو الشريعة الإسلامية .

ولقد كانت دساتير الدول العربية تنص على أن دين الدولة الرسمى هو الإسلام وفى السنوات الأخيرة أضيفت مادة جديدة إلى بعض هذه الدساتير هى أن الشريعة الإسلامية هى المصدر الأساسى لقوانين الدولة .

وبعد عام ١٩٧١ من الأعوام الحاسمة فى مواجهة القانون الوضعى فقد أعلن الرأى العام ضرورة إضافة هذه المادة إلى الدستور المصرى بأن تكون الشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع ولم تجد معارضاً فيها ومع ذلك فقد صدر الدستور المصرى ينص على أن الشريعة الإسلامية هى (مصدر أساسى) وليس المصدر الأساسى ومازال رجال اليقظة يجاهدون فى سبيل تعديل هذا النص حتى عدل باضافة (ال) كما تجرى دراسة القوانين لمطابقتها للشريعة وهم يؤمنون بضرورة صياغة قانون عقوبات إسلامى وقانون دولى إسلامى . ولا يؤمنون بترميم القوانين الغربية المطبقة حالياً .

* * *

الفصل الثاني
الشبهات التي وجهت إلى الشريعة الإسلامية وكيف دحضها مفكرو الإسلام

تعرضت الشريعة الإسلامية لحملات ضارية من النفوذ الأجنبي ممثلا في رجاله أمثال كرومر في مصر وليوتي في المغرب ومن الاستشراق والتبشير في محاولة للغض من قدر الشريعة الإسلامية ورميها بالجمود أو التخلف وذلك لتبرير فرض الأنظمة السياسية والقوانين الغربية على المجتمعات الإسلامية وقعت تحت سطوة النفوذ الأجنبي ولقد تحقق للنفوذ الأجنبي ما أراد من فرض هذه القوانين الوضعية على أجزاء كبيرة من العالم الإسلامي رهباً ورغباً . ولكن النتيجة التي يواجهها المسلمون الآن بعد التجربة المريرة هي تأكد الحقيقة الوحيدة في تاريخ النهضات والأمم وهي أن المنهج الإسلامي وحده هو القادر على إعطاء هذه الأمة أشواقها ومطامحها ونظامها الاجتماعي السليم الذي هي مطالبة بأن تقدمه للبشرية كلها بعد أن تطبقه على نفسها . ولا ريب أن الشريعة الإسلامية هي تعويض كامل عن الأنظمة الوافدة : فهي اقتصاد وقانون وسياسة وعلاقات بين الأمة الإسلامية والأمم الأخرى وهي نظام اقتصادي إسلامي في مواجهة الرأسمالية والماركسية . وهي إخاء إنساني في مواجهة الوطنيات والقوميات والعنصريات والإقليميات . وهي نظام سياسي إسلامي في مواجهة القانون الوضعي وهي إلى ذلك كله عقيدة ونظام عبادي مرتبط بهذه المفاهيم لا ينفك عنها . وإطار أخلاقي شامل تتحرك فيه المفاهيم المختلفة لا تعدوه ولا تنفك عنه ونحن نوجز عنها أبرز الشبهات التي لو حصرنا عملنا لاحتجنا إلى مؤلفات ضخمة :

أولا : شبهة الصلة بالقانون الروماني .

ثانياً : شبهة القول بأن الإسلام دين عبادة .

ثالثاً : شبهة الصلة بين الشريعة الإسلامية وأعراف الجاهلية .

رابعاً : الادعاء بأن الإسلام ليس له نظام سياسى .

خامساً : شبهة الصلة بين الشورى والديمقراطية .

سادساً : الملائمة بين الشريعة والحضارة المعاصرة .

سابعاً : صهر الشريعة الإسلامية فى أتون القانون الفرنسى .

ثامناً : تعديل القانون الوضعى .

وقد استعنا فى هذا البحث بمجموعة واسعة من الدراسات التى قام بها علماء الفقه والقانون فى العصر الحديث فى مقدمتهم الشيخ أبو زهرة . على على منصور . مصطفى كمال وصفى . عبد القادر السيسى . صالح بن حامد العلوى . دكتور / محمد محمد حسين وغيرهم .

أولا

شبهة الصلة بالقانون الرومانى

ردد الاستشراق الغربى والاستشراق اليهودى شبهة الصلة بين الشريعة الإسلامية والقانون الرومانى بحسبان أن الشريعة الإسلامية جاءت بعد القانون الرومانى فأخذت منه وخاصة فى مناطق الاتصال وهى الشام مثلا . ولكن الحقيقة ستكون مغايرة لذلك تماماً بعد أن نورد حجج القائلين بانتفاء اقتباس الشريعة الإسلامية من القانون الرومانى وهذه هى :

أولا : لم يطلع المسلمون على كتب الرومان فى الفقه ولم يترجموا منها شيئاً ولم يذكروا شيئاً عنها ولو فعلوه لاعترفوا بذلك ولكان أثره باقياً فى كتبهم كما اعترفوا بترجمة كتب اليونان والفرس فى العلوم المختلفة وفى الأدب والفلسفة .

ويرى كثيرون ومنهم دكتور صبحى محمصانى أن الباعث على إحجام الفقهاء عن دراسة القانون الرومانى هو عقيدتهم الثابتة بأن الشريعة الإسلامية شريعة إلهية مبنية على القرآن الكريم فى أساسها وأنها مثل الكمال فى التشريع ولذا كانوا ينبذون كل ما صدر عن غير المسلمين فى هذا العلم ويحرمون الأخذ به .

ثانياً : أن الموافقات بين الشريعة الإسلامية والقانون الرومانى طفيفة جداً بالقياس إلى الفروق . وهى لا تدل بحد ذاتها على تأثر الشريعة الإسلامية بالقانون الرومانى .

ثالثاً : لم يعرف فقهاء المسلمين الفقه الرومانى ولم يطلعوا عليه ولم تصل أخباره إليهم إلا بعد أن ولد الفقه الإسلامى ونما وبلغ أشده كما أن الأسس التى بنى عليها الفقه الإسلامى لم تكن فى عهد الرومان ولم يعرف الرومان طريقها . والفقهاء المسلمون لم يكونوا يعرفون اللغة اللاتينية التى كتب بها القانون الرومانى كذلك فإن هذه القوانين لم تترجم إلى اللغة العربية مع ما ترجم فى عصر المأمون ولم تترجم فعلا إلا فى هذا القرن .

رابعاً : بنى الفقه الرومانى على العرف والعادة وأوامر رئيس الحكومة بينما قام الفقه الإسلامى على الاستمداد من كلام الله عز وجل المنزل بالوحى ومعنى هذا أن أساس القانون الرومانى مستمد من مشيئة الإنسان **بينما تستمد الشريعة الإسلامية من مشيئة الله عز وجل** وبالمراجعة الدقيقة نجد أنه لا مشابهة مطلقاً فى الأسلوب ولا فى الحكم ولا فى النظرة إلى الأمور .

فالشريعة الإسلامية نظرت إلى الإنسان على أنه روح وجسد وأنه مركب منهما بينما لم ينظر القانون الرومانى إلا إلى الجانب المادى وحده . وقد قسم الفقه الإسلامى على أساس العبادات والمعاملات والعقوبات بينما قسم الرومانى على أساس الأشخاص والأشياء والخصومات وقد أهملت كتب الفقه الرومانى المسائل العامة . كالأمور الدستورية وأحكام القانون الدولية وجعلتها من أمور السياسة .

ولا مشابهة بين الشريعة الإسلامية والقانون الرومانى فى أمور النكاح والطلاق .

فالإسلام لا يعرف إلا قسماً واحداً من النكاح هو عقد يجمع بين الزوجين برضاهما وعند الرومانيين توجد أصناف عديدة للنكاح الجائز بينما يعتبر أكثرها عند المسلمين كالزنا ومن الخلاف قانون الوراثة . وتقسيم التركة عند المسلمين

---

(١) دكتور محمد عبد الله .

يغاير ما عند الرومانيين وكذلك نظام القضاء وآداب القصاص . والقانونان يختلفان حتى فى المعاملات المالية وأهم ذلك أن الربا غير محرم عند الرومانيين وحتى أساس التجارة يختلف عندهما فالبيع عند الفقهاء عقد رضا العاقدين وهو عند الرومانيين عقد يتعلق بالمال وفى القتل تشكل العقوبة عند المسلمين حسب النية من حيث العمد أو الخطأ ولا توجد عند الرومانيين . وكذلك الدية والقصاص عند المسلمين .

والحدود فى الشريعة تتعلق بقتل الإنسان والسرقة والزنا والقذف وشرب الخمر والارتداد وهى ليست موجودة فى القانون الرومانى والزنا والقذف وشرب الخمر ليست محرمة عند الرومانيين ومن ثم فلا عقاب عليها .

هذا كله شىء والشىء الأهم الذى كشفت عنه الدراسات التاريخية الحديثة المنصفة هو أنه لم يقم دليل واحد على أن الفقه الإسلامى مأخوذ من الفقه الرومانى بل إن الفقه الرومانى هو المقتبس من الفقه الإسلامى وإليك الدليل :

أولا : أن الفقه اللاتينى المعاصر فى أوربا هو غير القانون الرومانى القديم وأن هذا الفقه نشأ بعد ظهور الإسلام .

ثانياً : أن الفرنسيين وضعوا القوانين فى العالم الغربى الحديث بمجموعة نابليون . هذه القوانين قد استفادت كثيراً من الفقه الإسلامى ومن الفقه المالكى بالذات الذى حمله نابليون معه من مصر عند عودته إلى فرنسا .

وأمامنا لذلك عدة وثائق : الوثيقة الأولى :

يقول الأستاذ صالح بن حامد العلوى :

يتفق المؤرخون على أن القانون الرومانى الحديث الذى ظهر فى أوربا فى القرن الثانى عشر (الميلادى) (يوافق الخامس الهجرى) خلاف القانون الرومانى القديم فى جوهره ومواده وحقيقته (ويتفقون على أنها غير القوانين التى كانت معمولا بها قبل ذلك) وأن الأوربيين نزلوا فى القرن التاسع والعاشر والحادى عشر إلى الأندلس ونهلوا من معارف الإسلام وعرب الأندلس من فلسفة وفلك وطب ، وأن هذه المعارف كلها تدين أوربا

للأندلس بها أو للإسلام بها ونحن نعلم أن أهم ما كان يدرس في الأندلس من ذلك كله هو الفقه الإسلامى . ومن هنا فإن الفقه الرومانى أساس قوانين أوربا وقانون نابليون مأخوذ من الفقه الإسلامى الذى تلقاه أولئك الأوربيون من الأندلس . وليس من المعقول ما يتردد من أن القانون الرومانى ضاع قروناً طويلة من عهد جستنيان فى القرن السادس إلى القرن الثانى عشر ثم ظهر فجأة فى هذا القرن ، تلك الحكاية التى اخترعها (لود فيكوش ١٥٠١ ميلادية) ولم تلبث أن انتشرت فى القرون الوسطى كما حكاه جيبون فى الجزء الرابع ص ٥٥٥ وكان الدافع لهم على هذه الخرافة — ما رأوه من مخالفة ما سموه بالقانون الرومانى فى عصرهم للقانون الرومانى القديم ومخالفة لما كان جارياً من القوانين فى فترة الضياع المذكورة .

وقد أشارت المصادر إلى جربرت الفرنسى الذى ذهب إلى قرطبة لتلقى هذا الفقه الإسلامى وقد كاشف العلماء هناك بحاجته إليه لفساد القوانين فى بلاده وطلب مساعدتهم فى ذلك ونقله إلى لغته وحور فيه بما يناسب أمته وشعبه مسمياً له باسم القانون الرومانى . وقد حرص الإفرنج على هذه المحاولة بالادعاء بأن هذا فقه رومانى خوفاً من رميهم بالهرطقة والابتداع والمعروف أن المسيحية ليست لها شريعة وأن الإسلام له شريعة مستقلة .

وتؤكد المصادر أن جربرت وزملاءه فى القرن الحادى عشر كان همهم نقل علوم الأندلس وكان تركيزهم على الفقه أكثر من غيره .

يقول موسيهم الجرمنى فى ترجمة يعقوب مردوك من اللاتينية إلى — الإنجليزية : إن جربرت الفرنساوى المعروف بين الأحبار الرومانيين بسلفستر الثانى كان على بعض معرفة ولا سيما فى الفلسفة والطب بكتب عرب أسبانيا ومدارسهم لأنه مضى إلى أسبانيا فى طلب العلم وكان تلميذ علماء العرب فى قرطبة وسفلا (أشبيلية) وربما أثرت سيرته فى الأوربيين المتشوقين للعلم وخاصة فى الطب والحساب والهندسة والفلسفة فكان لهم من ذلك الوقت فصاعداً رغبة عظيمة فى أن يقرءوا أو يسمعوا علماء العرب الساكنين فى أسبانيا وبعض نواحى إيطاليا وترجم كثير من كتبهم إلى اللاتينية وذهب كثير من التلاميذ إلى أسبانيا ليتعلموا رأساً من خطب العرب وحق علينا أن نقول

إن العرب ولا سيما عرب أسبانيا هم أصل وينبوع كل معرفة من الطب والفلسفة والفلك والتي بزغت في أوربا في القرن العاشر فصاعداً .

ويشير محمد على بدوى فى كتاب مبادئ القانونى الرومانى : إلى أن النهضة الأولى للقانون الرومانى بدأت بجامعة بولونيا الإيطالية وهى أقدم جامعات أوربا فظهرت بها نهضة القانون الرومانى فى آخر القرن الحادى عشر إلى القرن السادس عشر حيث شرحوا القانون واستخرجوا النظريات وأخذوا من هذا القانون : قانون نابليون سنة ١٨٠٤ وبوضع قانون نابليون اتسعت حركة التشريع فى معظم البلدان الأخرى .

(٢)

وهذه وثيقة أخرى يقدمها الأستاذ صالح الحامد العلوى فى بحث له حيث يقول :

إن الفقه الرومانى حديث . لم يعمل به إلا فى القرن الثانى عشر بعد الميلاد أما قبل الحادى عشر فإنه لم يكن معروفاً حتى عند الرومان أنفسهم . ولا شك أن الفقه الإسلامى قرر وصنف قبل ظهوره بقرون . فكيف يكون متأثراً بشيء لم يوجد بعد .

إن الفقه الرومانى القديم كما يورده تاريخ الدولة الرومانية للعلامة جيبون (ج ٤ ص ٥٢٧) قد ذكر أمثلة من معاملاتهم ثم قال : بمثل هذه المحاكمات القاسية كانت تجرى الأحكام لغاية القرن الحادى عشر ولم تبدل إلا فى القرن الثانى عشر والثالث عشر .

ودعوى اختفاء الفقه الرومانى ثم ظهوره بعد ستة قرون أكذوبة لا مرية فيها وقد كذبها القانونى الشهير (سافنيه) حيث قال : إن القوانين الرومانية لم تختف لأنها ظلت معمولا بها إلى اليوم من غير انقطاع . ويتضح من هذا أن القوانين الحديثة ليست إلا حديثة الوضع . وضعها بعض علمائهم مقتبسة من الفقه الإسلامى . والدليل هو أن الفقه الإسلامى قد ألف وصنف قبل أن تبرز القوانين الرومانية الحديثة من اختفائها المزعوم . وقد أشار أبو العباس الكركدى من تلامذة بهمنار وهو تلميذ الشيخ الرئيس ابن سينا فى رسالته إلى مفتى مرو : أحمد بن عبد الله السرخسى أو أبا الوليد محمد بن عبد الله ابن خيره نقل فى تعليقاته : أن طلبة العلم من الإفرنج الذين كانوا يسافرون

إلى غرناطة لطلب العلم اهتموا كثيراً فى نقل الفقه الإسلامى إلى لغتهم لعلهم يستعملونه فى بلادهم لرداءة الأحكام فيها خصوصاً فى المائة الرابعة والخامسة من الهجرة وقد برعوا فى اللغة العربية ومنهم جربرت والبرت فإنهما طلبا مساعدة العلماء لإبراز مقصودهما وقد ساعدوهما حتى دونوا الفقه كاملا وحوروه إلى ما يوافق بلادهما » .

وهكذا نجد أنفسنا أمام أدلة ناصعة تكذب الفرية التى رددها المستشرقون وفى مقدمتهم الإسرائيلى جولدزيهر وإلى هذا الترتيب فى ظهور الفقه الرومانى بعد الفقه الإسلامى يرد تفسير الأقوال التى تقول : إنه وجد القانون الرومانى فى كثير من أحكامه متفقاً مع ما قاله الفقهاء .

(٣)

وهناك الوثائق الخاصة بقانون نابليون والتى ترجمت أغلب مواده بواسطة البعثة العلمية التى جاءت مصر مع الحملة الفرنسية وجمع فى مدونة سميت مجموعة قوانين نابليون وصدرت عام ١٨٠٤ ومعظمها مترجم من المذهب المالكى وهو شرح « متن خليل » للشيخ الدردير وقد اتسعت حركة النقل هذه من فرنسا إلى النمسا ١٨١١ وإيطاليا ١٨٦٥ وألمانيا ١٨٨٧ وسويسرا ١٩١٢ (ويحتوى قانون نابليون المقتبس من الفقه الإسلامى على تشريعات المعاملات من بيع ورهن وشراء وهبة وجرائم) .

وقد أشار الأستاذ منير القاضى إلى أن نظريات كاملة فى القانون الأوربى مستمدة من الفقه الإسلامى وهى :

١ – نظرية الظروف الطارئة .

٢ – نظرية التعسف فى استعمال الحق .

٣ – نظرية الحق العينى والحق الشخصى .

٤ – نظرية تحول العقد .

٥ – نظرية عدم تجزؤ الإقرار .

٦ – تطوير تحرير العقد .

٧ – نظرية وصف العقد الواحد بوضعه .

هذه النظريات الحديثة باعتراف فقهاء الغرب مأخوذة من الفقه الإسلامى الذى قدم فيها تفصيلات واسعة .

وإذا كان الاستشراق وخاصة الاستشراق اليهودى ما زال يردد مثل هذه الشبهات فإن رجال القانون أنفسهم قد أعلنوا رأيهم فى صراحة ووضوح منذ نيف وأربعين عاماً وفى المؤتمر الدولى لمقايسة القوانين المنعقد فى لاهاى عام ١٩٣٣ حين أعلن أن التشريع الإسلامى هو نظام قانونى مستقل عن كل القوانين وبخاصة القانون الرومانى وقد توالت المؤتمرات بعد ذلك حتى اليوم وكلها تجمع على هذه الحقيقة وتزيدها تأكيداً .

ثانيـــاً

شبهة القول بأن الإسلام دين عبادة

هذه الشبهة رددها رجل منسوب إلى الأزهر والإسلام فى إطار معارضة الخلافة الإسلامية وهى محاولة علمانية استهدفت فصل الدين عن الدولة على النحو الذى فعلته أوربا فى ظل ظروف مختلفة وإزاء دين ليس له تشريع متصل . يقوم على أساس الوصايا وتعميق المعنويات والروحيات فى مواجهة التحدى المادى اليهودى الذى حرف الموسوية المنزلة .

وإذا كانت الثورة الفرنسية التى أقامها اليهود لتحطيم القوانين التى كانت تعزلهم عن الحياة السياسية والاجتماعية قد عمقت مفهوم فصل الدين عن السياسة فى الغرب فإن ذلك الفصل كان من طبيعة المسيحية الغربية بتفسيراتها التى قدمها بولس وغيره . والتى استمدت هذا الفصل من عبارة مأثورة للسيد المسيح عليه الصلاة والسلام وهى (دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله) وقوله : ليس مملكتى فى هذا العالم . وإن كانت البابوية لم تقر هذا الفصل وظلت قروناً طويلة تسيطر على النظام السياسى فى أوربا .

أما الإسلام فإنه بوصفه نظاماً متكاملا ومنهاجاً جامعاً . فإنه ربط بين القيم . وقد قدم للبشرية فى مطلع عصر رشدها الفكرى (نظام مجتمع) يضم العقيدة والشريعة والأخلاق ولا ريب أن هذه الرابطة الجذرية بين الدين والدولة قد أصبحت واضحة للغربيين من منصفى المفكرين والمؤرخين حيث يقول : أرنولد توينبى فى موسوعة (دراسة فى التاريخ) ج ٣ الملحق ص ٤٦٧ :

فى الإسلام يتحد العنصران (الدين والدولة) فى كيان وحدة عضوية ويقول ليونارد بانيدر مؤلف كتاب « الثورة العقائدية » :

الدين والدولة لم يكونا متفرقين عن بعضهما فى الإسلام كما هو بالنسبة للمسيحية الغربية ومن هنا ينبع الافتراض باستحالة تفهم شئون السياسة فى الشرق الأوسط قبل أن تفهم الإسلام أولا . ذلك أن سياسات الشرق الأوسط تختلف عن السياسات الغربية بسبب عامل الدين .

ويقول ليوبولدفايس : إنه منهاج كامل للعقيدة والقيم الأخلاقية . إنه أيدلوجية كاملة يعتبر كل مناحى الحياة الأدبية منها والمادية والروحية والعقلية والفردية والاجتماعية كلا لا يتجزأ » .

ومن هنا فإن هذا النظام يختلف عن الأنظمة الغربية : الدمقراطية والديكتاتورية والماركسية والاشتراكية اختلافاً عميقاً بحيث لا يمكن القول بأن الإسلام دمقراطى أو اشتراكى أو أنه يمكن الجمع بين العنصرين .

هذه الأنظمة ما كانت توجد فى أفق المجتمع الإسلامى لولا أن الاستعمار والنفوذ الغربى قد عمل على إدخالها لحجب النظام الإسلامى الذى كان من أكبر القوى العاملة على الحيلولة دون سيطرة الغرب الاقتصادية أو السياسية أو الاجتماعية .

ولقد طبقت هذه الأنظمة فى عديد من البلاد الإسلامية والعربية سواء بالنسبة للنظم الدمقراطية أو الماركسية وانتهت التجربة بفشل هذه الأنظمة وعجزها عن تحقيق المجتمع النموذجى الذى يتطلع إليه المسلمون والعرب والذى يتمثل فى منهجهم الإسلامى القرآنى وحده الجامع على هدى وبصيرة بين الفردية والجماعية وبين الروح والمادة وبين الدين والعلم وبين الشريعة والأخلاق .

ومن هنا نجد زيفاً كبيراً حين نرى باحثاً قانونياً يقول فى كتابه (أزمة الفكر السياسى والإسلامى) إن هناك رأيين متنابذين عن الإسلام (الأول) ويقدم هذا الرأى الدخيل الزائف على الأصل ويرى أصحابه أن الإسلام دين فحسب والثانى يرى أصحابه أن الإسلام دين ودولة .

ثم يقول إن زعيم الرأى الأول هو على عبد الرزاق ويتلخص فى قوله إن النبى صلى الله عليه وسلم « ما كان إلا رسولا لدعوة دينية خالصة للدين لا تشوبها نزعة ملك ولا دعوة لدولة . وإن الإسلام وحدة دينية . والنبى صلى الله عليه وسلم دعا إلى تلك الوحدة وأتمها بالفعل قبل وفاته ولم يكن الرسول إلا رسولا صاحب رسالة أو دعوة دينية فحسب . وإن زعامة الرسول زعامة دينية لا زعامة سياسية . زعامة رسالة لا زعامة ملك وقوله : إن الدين عبارة عن حقائق خالدة لا تتغير وأن الدولة نظام يخضع لعوامل التطور والتبدل الدائم » .

ولقد وجد دعاة التغريب فى هذه النصوص التى قدمها قاض شرعى متخرج من الأزهر حجة على القول بأن الإسلام يحمل رأيين مختلفين . مع أن واحداً من فقهاء المسلمين منذ فجره إلى اليوم لم يقل بذلك قبله ، اعتماداً على مفهوم المسيحية والفكر الغربى فى العلاقة بين الدين والمجتمع .

وهو مما ردده دعاة الكماليين فى تركيا تمهيداً لإلغاء الخلافة الإسلامية وفصل الدين عن الدولة وهو أول صدع قام به رجل بين المسلمين وإن كان قد فرض على بلاد أخرى نتيجة لسيطرة الاستعمار والنظام الغربى مثل مصر وتونس والسودان والجزائر .

وجهل هؤلاء أو تجاهلوا مفهوم الإسلام الكامل الجامع بعد العقيدة والشريعة وأن الإسلام بخلاف المسيحية شرع لمبدأ القصاص وبين الجهاد وأنه لا توجد فى الإسلام رجال دين على نحو ما يسمى فى المسلمين .

ثالثـاً

شبهة العلاقة بين الشريعة الإسلامية وأعراف الجاهلية

هذه شبهة أثارها المستشرقون عن الصلة بين الشريعة الإسلامية وأعراف الجاهلية . رددها جولدزيهر وجرونجيه وشاخت . فقد ادعى هؤلاء أن التشريع الإسلامى المتعلق بالأسرة والوراثة كما قرره الإسلام كان مستمداً من النظام القبلى أو خاضعاً له . وإن العقوبات فى الإسلام كانت سلطان العرف القبلى . وقد كشف الباحثون عن زيف هذه الشبهات وأبانوا عن

مصدرها الصادر عن التعصب الحاقد الذى يكمن فى صدور الاستشراق الغربى والصهيونى .

ومما أورده المرحوم العلامة الشيخ أبو زهرة فى رده على شبهات — شاخت ما يلى :

أن شاخت يزعم أمرين أحدهما يقول فيه إن التشريع المتعلق بالأسرة والوراثة كما قرره الإسلام كان مستمداً من النظام القبلى أو خاضعاً له . والثانى يقول فيه : إن العقوبات فى الإسلام كانت تحت حد سلطان النظام القبلى وهنا نجد الدكتور شاخت قد تعرض لما يقوله الدليل القطعى على بطلانه فهو يزعم أن العلاقات الأسرية كانت قبلية فهل الطلاق الذى جاء به الإسلام هل هو ما كان متبعاً فى الجاهلية وهل حقوق المرأة كما قررها الإسلام هى التى كانت فى الجاهلية أو عند الرومان ، هل كان للمرأة عند العرب أو الرومان إرادة فى تزويج نفسها والولاية الكاملة على مالها ، هل المرأة كان لها كيان كامل عند الرومان أو عند الفرس أو عند البدو . هل قرر الإسلام ما قرره البدو والرومان فى ثبات النسب وهل أقر الإسلام نظام التبنى الذى كان معمولا به عند العرب وعند الرومان . لقد ألغاه . وهل نظام الولاية على النفس والمال كما هو عند الرومان . الإسلام قد اعتبر الولد حراً فى التصرف فى نفسه وماله بمجرد بلوغه البلوغ الطبيعى والرومان كانوا يعتبرونه ولاية أبيه ولو بلغ الستين حتى يمنحه الأب حق التصرف . وهل نظام الميراث كما قرره الإسلام سبق برأى فى شرع من الشرائع . إن الدكتور شاخت معذور لأن هذه حقائق لا يعرفها إلا الذين درسوا القانون ودراسته لغوية فقط وهى مع ذلك فى غير لغته .

إن نظام الأسرة فى الإسلام لم يسبقه سابق ولم يلحقه إلى الآن لاحق . وهو عود من خشب يوضع فى أعين المفترين على الإسلام .

أما فى العقوبة فهو يقول : إن الإسلام فيما قرره من نظم فى العقاب كان تحت سلطان العادات القبلية ثم يسترسل به قلمه فى انحرافه عن الحقائق فيقرر أن نظام القبائل كان بعيداً عن العدالة . وإن لم يكن هناك نظام للقضاء فيها . بل كانوا يلجئون فى البحث عن الجريمة والمجرم إلى الكهان وكان

للمسئول أن يقبل حكم المحكمين من هؤلاء أو يرفض ويترك الكلام من غير تعليق أو توكيد أن محمداً أخذ بهذا والقارئ يتوهم أن نظام العقاب فى الشرع الإسلامى هو هذا النظام القبلى الفاسد أو يقاربه لأنه مشتق منه ولنترك للقارئين كلامه من ناحية الأمانة العلمية .

إن الإسلام شرع شريعة القصاص وبين أنها شريعة النبيين السابقين وأن التوراة جاءت بها والتوراة التى يذكرها القرآن التى نزلت على موسى ولم يجر فيها تغيير ولا تحريف ولا إهمال للنصوص ونسيان حظ منها .

ونسأل الدكتور : هل كان فى النظام القبلى أن الفرد يقتل بالفرد وأنه لا يسأل غير القاتل وأن النفس بالنفس ولا غيره بمقدار ما كان عليه المقتول من جاه . أو منزلة عند الناس. فإن النفوس متساوية بحكم القرآن وأقوال محمد وليست متساوية بحكم القبائل العربية فزعيم القبيلة يقتل به ألوف . وهل كان فى نظام القبيلة أن يقتل الحر بالعبد بل أن السيد يقتل عبده ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : ومن جدع عبداً جدعناه ومن قتله قتلناه .

وهل كان فى حكم القبيلة حد الزنا بمائة جلدة أو الرجم وحد الخمر ثمانين جلدة أو أربعين وحد القذف بثمانين جلدة وهل كان فى حكم القبيلة أن العبد تكون عقوبته على النصف من عقوبة الحر . وهل كان فى حكم القبيلة أن السارق تقطع يده . كيف يغفل كاتب عن هذه الحقائق ويدعى أن حكم الإسلام فى العقاب امتداد لحكم الأعراب إذ كان تحت سلطانه نعم . كان هناك عقاب يمتد إلى عصبة القاتل أو المعتدى بالنسبة للدية . إذ أن الدية يبتدئ وجوبها على القاتل والمعتدى بشكل عام فإذا كان غير قادر أو كان قادراً والجريمة كانت خطأ فإن أقاربه من العصبيات عليهم أن يسددوا الدية حتى لا يذهب دم القتيل هدراً . أو يكون اعتداء من غير عقاب وهذا يشبه إلى حد ما التأمين على الحوادث التى تقع من السيارات ولكن هذا يعلمه القانونيون فكيف يعلمه من يجهل القانون وأحكامه فى بلاده ومع ذلك يتعادل لمعرفته عن غيرها .

* * *

رابعاً

الادعاء بأن الإسلام ليس له نظام سياسى

دحض شبهة القول بأن الإسلام ليس له نظام سياسى وأن الأفكار السياسية الإسلامية وافدة على المسلمين من النظام الرومانى أو غيره وقد ردد هذه الشبهة كثير من أتباع المستشرقين وفى مقدمتهم الدكتور طه حسين .

وقد كشفت أبحاث كثيرة فى العصر الحديث زيف هذه الشبهة وكذب هذا الادعاء وفى مقدمتهم الدكتور محمد ضياء الدين الريس صاحب كتاب النظريات السياسية الإسلامية عن الأصول العامة التى قام بها مفهوم السياسة فى الحكم وسياسة الدولة مستمداً إياها من الفقه الإسلامى ، ومعتمداً على السنة المطهرة والأحاديث النبوية وهى تقدم بوضوح إجابة صحيحة ليس عن وجود نظام سياسى إسلامى فحسب . بل عن أن معظم النظريات السياسية الحديثة لم يكن يعرفها الغرب ولا الرومان وأنها انتزعت من الفكر الإسلامى وأن فقهاء المسلمين هم الذين أخرجوها من كنوز فقههم وأن فقهاء الغرب جاءوا مرددين لها منكرين فى أول الأمر نسبتها ثم معرفين أخيراً . ولقد تبين لكل باحث منصف زيف دعوى الدكتور طه حسين وغيره من أن الإسلام قد استمد نظريته من الفكر اليونانى أو الرومانى وجاءت البينات لتكشف عن أن الإسلام إنما استمد منهجه السياسى ولا نقول نظريته من القرآن الكريم نفسه وليس من أى مصدر آخر فالماوردى والشافعى والغزالى والجوينى وابن حزم قد اشتركوا فى رسم خطوط هذا المنهج فى مختلف مجالات الإمامة والولاية والحكم والعقد السياسى وهكذا ومن خلال : الأحكام السلطانية للماوردى وإحياء علوم الدين للغزالى والسياسة الشرعية لابن تيمية وأعلام الموقعين لابن قيم الجوزية والمقدمة لابن خلدون نجد رجال الفقه الدستورى الإسلامى .

ولا ريب أن دعوى القول بأن الشريعة الإسلامية خالية من الأصول السياسية أو الدستورية وأنها أخذت فى الماضى من الفكر اليونانى — والرومانى لها هدف ماكر خبيث . هو أنه يجوز لها فى العصر الحديث أن تأخذ من الفكر الغربى والنظم الحديثة : ديمقراطية أو اشتراكية

أو شيوعية دون أن يعد ذلك مخالفاً لأصول الإسلام ، وهذه هي الخطة الماكرة التي يجرى وراءها طائفة من أتباع المستشرقين اليوم في محاولة خداع البسطاء بها في مقدمتهم أحد رجال القانون الذى اعتمد على مفاهيم شيخ أزهرى سابق ؛ ثم يجيء بعد ذلك من يحملون هذه الأفكار ويذيعون بها ويقول دكتور مصطفى كمال وصفى : إن هذا التفكير بدأ أول ما بدأ في كتاب (الإسلام وأصول الحكم) للشيخ على عبد الرازق فقد قال : إن المبادئ العامة المرنة التي جاء بها الإسلام تقبل التطور في كل زمكان ومكان حسب ظروف الحال فلا مانع من أن يطبق العدل حسب مفهوم الوقت كما يبنه الفكر الديمقراطى أو الشيوعى وغيرهما . وقد حاول غيره أن يؤصل هذا القول عن طريق تحليل المصادر الشيوعية والخروج من هذا التحليل إلى القول بأنها لا تحوى أصولا ثابتة . محددة من الناحية السياسية والدستورية ومن ثم يسوغ اقتباس أفكار العصر دون أن يعتبر ذلك خروجاً على الإسلام فقالوا : إن القرآن جاء على وجه من المرونة والعموم لكى ينطبق على كل زمان ومكان فقد جاء بأفكار عامة مرنة مجردة كالعدالة والحرية والمساواه والشورى وهى من المرونة بحيث يطبقها الناس في كل زمان ومكان حسبما تقتضيه مصالحهم وبذلك فإن القرآن لا يقيد الناس في هذا العصر . أما السنة فقد قالوا : إنها لا تعد ملزمة شرعاً للأجيال التالية في أمور السياسة لأن ما صدر عن النبى صلى الله عليه وسلم باعتباره إماماً لا يعد تشريعاً عاماً ذلك أنه بنى على مصلحة قائمة على وقته واستندوا في ذلك إلى ما جاء في فروق الإمام القرافى (الفرق ٣٦) حيث بين الفرق بين قاعدة تصرفه صلى الله عليه وسلم بالقضاء وغيره وبين قاعدة تصرفه بالإمامة وأن كل ما تصرف فيه بوصف الإمامة دون التبليغ لا يجوز لأحد أن يقدم عليه إلا بإذن من الإمام اقتداء به عليه السلام وينتهى أصحاب هذا الرأى إلى تجريد القرآن والسنة من قيمتها كمصدر للأحكام الدستورية والسياسية والإسلامية . ثم أنهم لا يجدون صعوبة بعد ذلك في إطراح سائر المصادر من قياس وإجماع . فما دام المقيس عليه وهو النص لا وجود له فإنه لا قيام للقياس بدونه .

وهذا الرأى قام على خطأ فى الفهم بالنسبة للقرآن : لأن « العدل » فى المفهوم الإسلامى مقيد ومتميز عن غيره من النظم الأخرى فالعدل فى الإسلام هو العدل المبنى على التوحيد والمستمد من نصوص القرآن والسنة ومن المقاصد الشرعية فإن العدل الإسلامى معياره ووسيلته وطريقته هى ما أظهرنا الله عليه من شريعة . فالشريعة هى وسيلة تحقيق هذا العدل بمقتضى قول الحق تبارك وتعالى « **إن الله يأمر بالعدل والإحسان** » فإذا أردنا أن نطبق هذا على عدل الزوج مع زوجته فإنه يكون عن طريق تطبيق نصوص النفقة وحسن المعاشرة وإذا أردنا أن نطبقه على الأحكام فإننا نطبقه من طريق ما ورد من أخذ المال بالزكاة والغنيمة وما يجوز من العشور وما ورد فى شـأن إقامة المصالح والمرافق وتأديب العصاة وتوقيع العقوبات وإنزال الحدود وأخذ المال عند الإتلاف وغير ذلك من الأحكام الواردة فى القرآن شرحاً للعدل فى الإسلام . هذا العدل مقيد بالتوحيد بمعنى أن المسلم يشهد به وليس شهادة بالقول بل بما يصادقه من العمل . فوجب أن تكون تجربة للعدل بين الناس بإنزال ما أمر الله به وتنفيذه ومنع ما نهى الله عنه وكل ما هو على هذا المنهج فهو من العدل الإسلامى وكل ما ليس من نهجه فليس من العدل الإسلامى . ثم إنه فيما لا نص فيه هناك مقاصد شرعية تقوم على حفظ الضرورات ومنع الحرج والمشقة واستكمال المحاسن فى أمور خمسة هى (الدين ، النفس ، النسل العقل ، المال) ولا يكون العدل عدلا فى نظر الإسلام إلا ببذل الجهد بتطبيق النصوص والقياس ثم إنزال المصالح على هذا الأساس دون غيره فهو ليس عدلا مطلقاً يجوز أن يصطبغ بصبغة رأسمالية أو شيوعية حسب الأحوال . ولكنه عدل موصوف مقيد بنصوص معينة ووسائل محدودة للاجتهاد ومقاصد شرعية معينة محدودة ، فإما هذا وإما أنه ليس عدلا إسلامياً .

هذا العدل يختلف عن العدل فى النظم الرأسمالية والليبرالية فإن هذه النظم تحمى « الحرية الفردية » وترى غاية القانون هو تأمين الحرية الفردية وضمانها . فكل ما يأتيه الفرد ، داخل حدود حريته مما لا يخالف القانون ولا يضر بالغير هو عدل . ولذلك فإن كثيراً من صور الاستغلال وكثيراً

مما يخالف الآداب يسمح به هذا النظام فالعدل هنا يختلف عما نعرفه فى الإسلام فإذا اقتضى صاحب المال أن يعمل العامل عنده بأجر بخس فلا ضير عندهم فى ذلك لأن العقد عندهم هو شريعة المتعاقدين . فما دام العامل قد رضى فإنهم لا ينظرون لضغط الظروف الاقتصادية وسيطرة رب العمل على ظروف العامل واضطرار الأخير للخضوع له ما لم يشكل إكراهاً بالطرق المحددة المنصوص عليها فى القانون المدنى .

ولا يعاقب القانون فى هذه النظم على زنا المرأة الرشيدة غير المتزوجة بلا إكراه لأن حريتها قد ارتضت ذلك ويرون أن العدل يكون لها فى ذلك وأن منعها منه ليس عدلا وهذه معايير لا يرتضيها الإسلام .

وفى النظام الشيوعى تختلف فكرة العدل . فالعدل يقوم على منع الاستغلال والصراع الطبقى والمساواة شبه المادية بين الجميع فهذه عدالة اقتصادية من نوع معين ليس لها علاقة بالاعتبارات التى ينظر الإسلام بها إلى مختلف مسائل الحلال والحرام » .

خامساً

شبهة الصلة بين الشورى والديمقراطية

شبهة القول بما يسمى ديمقراطية الإسلام : وذلك فى محاولة لتصور مفهوم الديمقراطية بأنه مقارب أو متصل أو بديل لمفهوم الإسلام « الشورى »

والواقع يثبت أنه لا توجد أية صلة بين مفاهيم الشورى الإسلامى وبين مفهوم الديمقراطية الغربى .

إن أبرز مفاهيم الديمقراطية الغربية أمران :
(١) مبدأ سيادة الأمة . (٢) وأن الشعب مصدر السلطات .

أولا : لا يعرف الإسلام مبدأ سيادة الأمة وهى نظرية فرنسية الأصل استنبطها الفقهاء الفرنسيون لظروف تاريخية خاصة بفرنسا فى ذلك الحين وقد أصبحت من بعدنظرية ضارة بل خطرة على الحريات .

وكلمة السيادة استنبطها الفقهاء الفرنسيون أثناء فترة الكفاح بين الملوك والبابوات من أجل سلطة الملوك العليا داخل المملكة وقد تحولت الفكرة من سيادة الملوك إلى سيادة الأمة ومن هنا فإن نظرية سيادة الأمة هى التعبير القانونى عن نظام الحكم الذى يوصف بالنظام الديمقراطى : وقد تبين من بعد فساد نظام سيادة الأمة التى لا تكفل منع الاستبداد أو (الاستئثار) بالسلطة المطلقة لأنه ليس من شأن هذا المبدأ أن يهدف إلى وضع قيود أوحدود على سلطان السلطة التنفيذية أو السلطة التشريعية .

وتواجه الغرب منذ سنوات طويلة ما يسمى أزمة الديمقراطية . وقد واجه بعد ذلك سلطة الديكتاتورية أما الهدف الإسلامى فليس هو سيادة الأمة وإنما تحقيق المقاصد الشرعية وهى تتلخص فى التضامن فى تنفيذ ما أمر الله به تعالى ومنع ما نهى الله عنه مما نص عليه الكتاب والسنة مع تقرير قاعدة جلب المصالح ودرء المفاسد ومن بينها منع الصراع والاستغلال ولكنها أوسع فى جوانبها ومقتضياتها من الأنظمة السياسية البشرية ، فهى لا تقتصر على الاعتبارات الاقتصادية والاجتماعية بل تشمل نواحيها المعنوية والخلقية التى تضفى على الاقتصاد والاجتماع شمولا واتساعاً لا تعرفه النظريات السياسية والاقتصادية المعاصرة .

وقد يظن أن أخذ الإسلام بمبدأ الشورى هو قريب مما يسمى مبدأ سيادة الأمة . وهذا غير صحيح . فإن الشريعة الإسلامية ليست تعبيراً عن إرادة الأمة . ولكنها تعبيراً عن إرادة الله وإقامة المجتمع الربانى وأن أحكام الشريعة التى تتجمع حولها الأمة وتعمل لتنفيذها ، وهى التى لها السلطة العليا وهى الهدف الأول والأخير .

كذلك لم يعرف الإسلام الدولة الثيوقراطية التى عرفتها أوربا الوسطى عندما سيطرت طبقة رجال الأكليروس على السياسة العليا وليس هذا مما يقرره الإسلام أو يعترف به فالإسلام لا يعترف بنظام الكهانة أو وجود طبقة متميزة تدعى رجال الدين ولا يعترف بأن هناك طبقة أو شخصاً ما يستطيع أن يتميز بنوع من القداسة دون الناس جميعاً .

ثانياً : تقول الديمقراطية إن الشعب مصدر السلطات ومعنى هذا أن يكون التشريع بين الشعب ومفهوم سلطة الشعب يختلف عن الشورى الإسلامية وأن محاولة تطويع مفهوم الإسلام للشورى إلى مفهوم الديمقراطية الغربية مردود لأنه يخالف ذاتية الإسلام وطبيعته الربانية ؛ وأن هذا الاختلاف يمنع الاعتماد على الشكل الديمقراطى الحديث فى تطبيق الشورى الإسلامية . والديمقراطية الحديثة ديمقراطيات صورية لا يجد فيها الفرد فرصاً حقيقية لممارسة سلطته كعضو فى الهيئة العامة ، وهذه السلطة لا تتجاوز اشتراكه فى المداولة وإبداء الرأى والتصويت فى النهاية وليس له خارج هذه الصفة أية ممارسة أو سلطة أو صفة تجعل له حقاً عاماً فى أى أمر ولذلك فإن تصور السلطة الشعبية على أنها تقوم على أساس المساواة العامة أمر تحكمى لا يمت للواقع بصورة ما . فضلا عن خضوع الانتخابات للرشوة أو الحوائج الشخصية أو لتهديد الإرادة .

وهناك طرق التزوير التى تحقق للأغلبية التوصل إلى مآربها . وقد كشفت الأبحاث القانونية الغربية زيف هذا النظام وفساده .

أما نظام الشورى فى الإسلام فإنه يختلف عن ذلك تماماً . وهو يستهدف تطبيق الشريعة الربانية وتحقيق مقاصدها والشورى لا تكون إلا مع من صفت نياتهم وتأكد الإمام من أخلاقهم وأمانتهم وليس النظام الإسلامى كالنظام الديمقراطى يفترض الصراع بين الحكام والمحكومين . وإنما يستلزم التكامل والتآلف بين الحاكم والمحكوم — ونظام النيابة عن الشعب فى النظام الديمقراطى ليس استشارة ولكنه مراقبة والحكم الديمقراطى ليس قائماً على الشورى كما يفهم الناس خطأ ولكنه يقوم على الرقابة وإحصاء الأخطاء على من يتولى الحكم .

سادساً

الملاءمة بين الشريعة والحضارة المعاصرة

هناك الفكرة المسمومة الخطيرة : التى تقول : بالعمل على الملاءمة بين الأحكام الدستورية فى الشريعة الإسلامية وظروف الحياة المتغيرة المتطورة بحيث لا تغدو تلك الأحكام معارضة لمصالح الناس بل تصبح محققة لها لا مضعفة لكيان الدولة بل مقوية أوصالها مدعمة مبادئ العدالة واصلة حبالها».

هذه العبارة البراقة الخطيرة التي أوردها مؤلف (كتاب أزمة الفكر السياسي الإسلامي في العصر الحديث) ليست إلا جزءاً من مخطط مرن مدخول يحاول أن يتوزع على عدد من الكتاب والباحثين ويستند إلى بعض نصوص مقطوعة عن أصولها وزائفة في تفسيرها .

الهدف منه هو تنازل المسلمين عن بعض القواعد الأساسية والتسامح في الكليات الشرعية وتعليل بعض الأحكام الشرعية بدعوى : مسايرة ركب الحضارة . وبدعوى المقاربة بين ما عند المسلمين من أحكام شرعية منصوصة وبين ما عند أهل الكتاب من أحكام يدعون أنها مستقاة من التوراة والإنجيل . أو باسم التقارب بين الشريعة والقانون الوضعي أو بتعبير آخر أدق « **إفراغ الشريعة الإسلامية في إطار القانون الغربي** » وإذابتها في هذا الأتون .

وهذه محاولة خطيرة عمل الاستعمار والاستشراق على تنفيذها بكل الوسائل والإمكانيات واستخدم لها عمالقة رجال القانون وخاصة أولئك الذين خدعوا الناس بحديثهم عن عظمة الشريعة الإسلامية في أول الأمر . ثم تبين أنهم يعملون على احتواء الشريعة داخل إطار القانون الوضعي .

ولقد حدد فقهاء المسلمين المدى الذي تتغير به الأحكام الشرعية بتغير الزمان وأبانوا أن ذلك أمر لا يترك على إطلاقه حتى يتدافع مع أهواء الدعاة إلى ما يخرج الناس من أصول الشريعة الصحيحة وقوائمها الأساسية أو يغير الحدود والضوابط الثابتة والقوانين العامة وخاصة فيما يتعلق بتحريم الربا والزنا والخمر والقتل والسرقة .

ذلك أن الأحكام المستقرة الدائمة مأخوذة من نصوص قطعية في ثبوتها عن الشارع وقطعيتها في دلالتها على الأحكام المستفادة منها وهي تنظم علاقات ثابتة وغير متطورة وأهمها المحرمات والمواريث . أما الأحكام المتغيرة فإنها تخضع لمدى قابلية العلاقات التي تحكمها للتطور والتغيير . وتدخل فيها الأحكام التي لم يرد عن الشارع نص فيها بذاتها ولا فيما يماثلها . وهي تتعلق بالفروع وأساليب التطبيق وأحكام التعزيرات والتأديبات فيما عدا الحدود والقصاص ، وقد قيد الفقهاء قبول التيسير للحرج والترخيص في المشقة في المسائل التي

لا نص فيها شريطة ألا يذهب هذا بدعامة واحدة من دعامات حفظ الأسرة وبناء الأمة التربوى والأخلاق وتنشئة الأجيال الجديدة على الخلق والدين .

وليس معنى تغير الأحكام بتغير الزمان – كما يقول الأستاذ زكريا البرى : إنها تتغير بناء على شهوات الناس ونزواتهم وأغراضهم الفاسدة وما جرت عليه أعرافهم المفسدة التى لا تدعو إليها مصلحة ولا ضرورة ولا حاجة . مما جاءت الشرائع لإصلاحها وتصحيحها .

كذلك العرف الفاضح الذى تجرى عليه أزياء المرأة فى بعض البلاد حين تخرج إلى المجتمع أنثى فاتنة لنفسها ولغيرها . لا إنسانة عاملة نافعة لنفسها ولمجتمعها . فإن هذا التصرف عرف فاسد مصادم للنصوص الشرعية ولمقاصدها الاجتماعية . عرف يهدم المجتمع الفاضل الذى تريد الشريعة بناءه . والشريعة تريد من المرأة أن تحفظ أنوثتها وجسدها لزوجها تحقيقاً للسعادة والعفة وأن تعطى المجتمع من عقلها وعملها النافع ما يكمل رسالة الرجل والأسرة والمجتمع .

وحين تتغير الأحكام بناء على هذه الأعراف الفاسدة فإنما تتغير باتخاذ أحكام جديدة تزيل أسبابها وتمنع الناس خطرها وشرورها بعد أن فشلت الجهود الفردية فى تصحيحها » .

ولا ريب أن هدف الدعاة إلى تغيير الأحكام الشرعية بتغير الزمان يستهدف الأسرة والشباب والمرأة فى الأجيال الجديدة لهدم مقومات الأصالة والتماسك الخلقى فى هذه الأجيال ، حتى لا تكون هذه الأجيال قادرة بعد على حمل أمانة الحفاظ على كيانها ووجودها ودينها الحق وبذلك يتاح لمخططات الصهيونية التى ترمى إلى السيطرة على العالم الإسلامى أن تجد سبيلها إلى ذلك . وقد حاول هؤلاء البغاة التماس نص أورده أحد العلماء . فى فترة من فترات التحدى التى كانت تواجه الشريعة الإسلامية إبان الاستعمار فاتخذوا منه منطلقاً إلى هذا الهدف .

والواقع أنه لا تغير مطلقاً فى أصول الدين والشريعة ودعائمها الأساسية التى يهدفون إليها وخاصة مسائل الحدود والعلاقات الاجتماعية وما يتصل بالأسرة والأبوة وأمور التربية وأخلاقية الحياة .

وكل هذه المحاولات التى تجرى لتأويل الآيات القرآنية والأحاديث باطلة

وزائفة ، وهى عمل قديم عرفه المشتغلون بالفكر الإسلامى وبالشريعة ومن شأن الباطنية والشعوبية والبهودية وقد ردوه تماماً ووضعوا الحواجز التى تحول بينه وبين النفاذ إلى الأصول الأصيلة للشريعة والأخلاق ولا يقر الإسلام التأويل الذى يستهدف تخفيف الحدود أو الضوابط الأخلاقية أو يهون من شأنها . وليست هذه الضوابط أغلالا أو قيوداً وإنما هى وسائل وقاية وحماية للكيان الإنسانى الفردى من التدمير وللمجتمعات من الانهيار .

وإذا كان حديث التطور يمكن أن يقال بالنسبة لأى شريعة أو أيدلوجية فإنه لا يقال بالنسبة للإسلام وشريعته التى هى من عند الله والتى تحمل فى طياتها وسائل تجددها وتغيرها وملاءمتها للعصور والبيئات . والإسلام نظام حاكم وليس نظاماً مبرراً للحضارات أو المجتمعات الفاسدة . ولا يطلب من الإسلام أن يتخفف أو يتنازل عن قوائمه وحدوده . وإنما يطلب إلى المجتمعات أن تتغير وترتقى وتعلو وتسمو على طفولة البشرية وأن توائم بينها وبين الأصول الثابتة من شريعة الله : دين الفطرة الصالح لكل زمان ومكان وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . إن الأديان البشرية والأيدلوجيات والمذاهب تخضع للتطور لأنها من صنع الإنسان ولأنها وضعت فى مواجهة ظروف وتحديات خاصة وحكمتها عصور وبيئات : فهى لا بد أن تواجه التغيير لتوائم بينها وبين هذه المجتمعات والعصور . أما الإسلام فإنه فى أصوله الأصيلة الثابتة قد أقام قواعد عامة لا تتعارض مع تغير الأزمنة أو تطور البيئات . ولذلك فإن الإسلام لن يجارى أهواء البشرية التى تنتقل الآن فى بعض المجتمعات إلى أشد المراحل سوءاً واضطراباً وتحللا .

ولقد تأكد للمسلمين بعد أن جربوا مذاهب الغرب والشرق وفشلت جميعها فى إقامة المجتمع الصحيح . أنه لا سبيل لهم إلا شريعتهم القادرة على حماية مجتمعهم من تلك الآفات الخطيرة من قتل وخطف وسرقة وتآمر وأن ما أصاب المسلمين فى هذه السنوات الأخيرة من أزمات ونكسات إنما جاء بسبب انصرافهم عن المصدر الأصيل البر لمنهجهم القرآنى ومتابعتهم مناهج لا تتفق مع كيانهم ولا أعرافهم ولا أخلاقهم .

إن ما يجرى إليه المستشرقون ودعاة التغريب من محاولة استخدام نصوص

الشريعة الإسلامية فى تبرير أنماط الغرب الفكرية والاجتماعية هو محاولة خطيرة ، وهى شر من تقليد هذه الأنماط تقليداً أعمى ؛ ولقد حفلت بعض المؤتمرات التى عقدت فى السنوات الأخيرة بحشد بعض رجال الفكر الإسلامى لهذا الغرض غير أن هذه المحاولة لم تمر دون أن يكشفها أهل الحق ويبينوها ويدحضوا زيفها .

سابعاً

صهر الشريعة الإسلامية فى أتون القانون الغربى

قال أصحاب هذه الشبهة الخطيرة ما يلى :

إن وضع نصوص الشريعة الإسلامية إلى جانب النصوص الغربية قد مكن لعوامل المقارنة والتقريب من أن تنتج أثرها ومهد الطريق للمرحلة الثالثة والأخيرة من نهضة الفقه الإسلامى يوم يصبح هذا الفقه مصدراً لأحكام جديدة تجارى مدنية العصر وتساير أحدث القوانين وأكثرها تقدماً ورقياً .

وإن الهدف إلى ذلك هو تطوير الشريعة الإسلامية وجعلها ملائمة لنظم حياتنا ولأنماطها المنقولة عن الغرب . والوسيلة هى تفاعل الشريعة الإسلامية السماوية مع شرائع الغرب الوضعية . حتى تنبت قانوناً مدنياً متطوراً يجارى المدنية الحديثة وينبثق هذا القانون من الشريعة الإسلامية كما انبثقت الشرائع الجرمانية من الفقه الرومانى .

وهذا الكلام اللامع البراق له خبىء وهدف وغاية كبرى هى أن تنصهر الشريعة الإسلامية فى أتون القانون الغربى ، تعد وتدرس وتناقش وتبحث فى ضوء القانون الوضعى .

والهدف هو « تغريب الشريعة الإسلامية » فتكون قانوناً وضعياً غربياً فى الأساس به كلمات وعبارات من الفقه الإسلامى مما أخذ القانون الغربى منها ويأخذ دون أن تتأثر ذاتيته الخاصة أو تشكيله الكلى والمقصد من هذا كله هو تقبل حضارة العصر ، وتقبل المدنية الغربية ، ومسايرة ثقافة الجيل متمثلة فى أحدث القوانين وأن تظلنا وصاية الغرب فى أعز فلذة من فلذات كبد أمتنا .

« وبذلك تنطوى فى الأممية وتنصهر فى العالمية ونؤكل كما أكلت الأمم السابقة » .

ولقد وجهت هذه الدعوة التى صدرت من واحد من رجال القانون اللامعى الاسم عام ١٩٥٣ ردود فعل واسعة النطاق تكشف هذا الزيف وكانت موضع دهشة رجال الفكر الإسلامى من حيث إن هذا القانونى كان ردد منذ خمسة عشر عام سابقة لذلك قضية الشريعة الإسلامية وكانت حركة اليقظة تستشهد به فى فترة التشريع الإسلامى على حل معضلات الأمم والعصور فى الحديث وكان عشرات من رجال القانون قد أعلنوا ذلك وكان هو تابعاً لهم ولم يكن له سابقة أو بادرة قبل ذلك .

ولكن حركة التغريب انتقلت بعد الحرب العالمية الثانية إلى احتواء الشريعة الإسلامية بالدعوة إلى إقامة معاهد عصرية لدراسات مقارنة بينها وبين القانون الوضعى ، لامتصاص ما دعت إليه حركة اليقظة من العمل على تطبيق الشريعة الإسلامية والتحرر النهائى من القانون الوضعى . فكان هذا الصوت الذى عرف من قبل بالقبول فى محيط الدعاة إلى الله . هو الذى حمل هذه المؤامرة الخطيرة إلى المسلمين .

والهدف الأساسى من هذه المحاولة الماكرة اللينة الناعمة هو :

أولا : أن لا يؤخذ بحكم الشرع إلا إذا اتفق مع روح القوانين الغربية .

ثانياً : أن يعدل الحكم الشرعى أو يعلى أو يسقط حسب مبلغ تعارضه مع هذه القوانين الغربية الأصول .

ثالثاً : أن ينتهى التطور للشريعة الإسلامية فى المدى القريب والبعيد إلى أن تصبح شيئاً مختلفاً عن الإسلام الذى أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم .

رابعاً : أن الشريعة الإسلامية التى يقصد إليها المشرع ليست هى مطلق الشريعة دائماً هى الانتقاء والترك (يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض) إيثاراً لإرضاء مدنية العصر وثقافة الجيل . وذلك فى تقديرهم ارتفاعاً عليها إلى مستوى شرائع الغرب .

خامساً : تطور الشريعة هو جعلها ملائمة لنظم حياتنا ولأنماطها المنقولة

من الغرب المسيحى أو الغرب اللادينى فهو مطالبة بإخضاع الشريعة للواقع وليس إخضاع واقع المجتمعات للشريعة وهو العمل الصحيح .

سادساً : إن العمل الذى يهدف إلى صهر الشريعة الإسلامية الربانية فى شرائع الغرب الوضعية هو شر من الوضع الحالى القائم على استعارة القانون الغربى كله أو بعضه . لأنه كما يقول الدكتور محمد محمد حسين : إنه من الممكن التخلص من الدخيل فى هذه الحالة أما فى حالة الاندماج والتفاعل فإدراك الحدود بينهما صعب وتخليص الشريعة يكاد يتعذر بعد أن تتغلغل الروح الغربية فى كيانها ويصبح الناتج من تفاعلهما شيئاً جديداً معقد التركيب تختلف صفاته وخصائصه عن كل من العنصرين المكونين له ثم إن الناس فى الحالة الأولى يدركون إدراكاً واضحاً أن القانون الذى يحكمهم قانون دخيل . أما فى الحالة الثانية فقد يتوهمون أن القانون الذى يحتكمون إليه قانون إسلامى .

سابعاً : إن هذا الذى يدعو إليه المشروع هو فى طريق ما قامت به اليهودية العالمية بعد الثورة الفرنسية حين حرر القانون الغربى من سلطان الدين تحرراً تاماً ، وهو جرى وراء المخطط الذى نفذ فى العالم الإسلامى منذ سيطر الاستعمار وحمد الشريعة الإسلامية وطبق القوانين الوضعية التى لا تتفق مع روح الإسلام .

والهدف الواضح من كل ذلك هو القضاء على « ذاتية الإسلام » وأصالة الشريعة الإسلامية . واحتواء الفكر الإسلامى وصهره فى بوتقة الأممية وإفناء هذه الشخصية التى تحمل لواء لا إله إلا الله فضلا عن أنه تبديل لشرع الله وتحريف للكلم عن مواضعه .

هذا ولا ريب أن هناك فوارق عميقة بين الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية من أبرزها :

أولا : يهتم القانون الوضعى بالمساواة . بينما يهتم الإسلام بتحقيق العدالة لأن المساواة تعنى فقط تطبيق القانون القائم على الجميع كيفما كان الوضع أو النظام . بينما الشريعة الإسلامية تقصد إلى تحقيق العدالة ولا تعترف بأى

قانون مناف لمقاصدها . قال الرسول صلى الله عليه وسلم : كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد (أى مردود على صاحبه) .

ثانياً : تمتاز الشريعة على القانون الوضعى بأن أحكامها شرعت للدنيا والآخرة مما يحمل معتنقيها على طاعتها فى السر والعلانية . فالقانون يرى أن مرتكب أى جريمة من حقه إذا استطاع أن يسترها أن يتفادى العقاب الدنيوى. بينما ترى الشريعة الإسلامية أن الوجدان اليقظ هو أساس وحارس أمين ، حتى إذا حكم القاضى لإنسان على حقه فإن المحكوم له مطالب بأن ينظر فيما إذا كان ذلك متفقاً مع حقه أو لا فإذا وجد أنه ظلم لخصمه وجب عليه أن ينصف خصمه من نفسه .

ثالثاً : تمتاز الشريعة على القانون بأن الحق لا يسقط بتقادم الزمن . وأن الاجتهاد أو القضاء لا يحلان حراماً ولا يحرمان حلالا . لأن الشرع الإسلامى قائم على قواعد العدل المطلق ومقتضيات العقول فى حين أن القانون الرومانى يسقط حق الفرد المتروك فلا يعود .

وفى الشريعة الإسلامية من أخذ مال غيره لا على وجه إذن الشرع فقد أكله بالباطل ومن الأكل بالباطل أن يقضى لك القاضى وأنت مبطل .

ثامناً

تعديل القانون الوضعى

واليوم والأمة العربية والإسلامية لا تجد أمامها غير طريق واحد هو طريق العودة إلى الشريعة الإسلامية نجد بعض الشبهات والسموم تحاول أن تعترض هذا الطريق وتفسد اتجاهه الأصيل . يتمثل هذا الاتجاه فى الرأى القائل بتعديل القانون الوضعى .

والخطر الذى يكتنف هذا الاتجاه يتمثل فى أمور متعددة أهمها أن مصطلحات القانون الوضعى تختلف فى معانيها عن مصطلحات الشريعة الإسلامية . وأن القانون الوضعى صادر عن عرف خاص وبيئة خاصة وفلسفة خاصة . تختلف اختلافاً واضحاً عن الروح الإسلامية ومن ثم فإن إقرار

ما يبدو منه فى ظاهره متفقاً مع الشريعة الإسلامية – يجر حتماً إقراراً للروح الغربية التى صدر عنها القانون الوضعى ، كذلك فإن القانون الوضعى يعبر عن قيم أخلاقية معينة سادت فى المجتمع الغربى فى عصر من العصور ومثال ذلك أن مبدأ التعزير فى القانون الإسلامى ينبغى أن يكون مرتبطاً بالقيم الأخلاقية الخاصة بالمجتمع الإسلامى ونظرة الإسلام إلى الثواب والعقاب .

ولذلك فإن المقصود بالتقنين كما يقول الأستاذ محمد عطية خميس : هو صدور تشريع متميز يجمع أكثر القواعد الخاصة بفرع من فروع القانون فى مدونة واحدة مرتبة ومبوبة ، وأن تنقية التشريعات القائمة مما فيها من أحكام متعارضة مع أحكام الشريعة لا يكفى ، ذلك لأن القانون الوضعى لا يصلح أصلا لمشروع تشريع إسلامى ، وأنه يجب لإحلال الشريعة الإسلامية محلها الصحيح استمداد أحكامها من مصادرها الأصيلة نفسها مباشرة وأن القوانين الوضعية لا تجدى معها تنقية لانعدام الصلة بينها وبين الشريعة الإسلامية حتى فى الأحكام التى تبدو أنها تتفق مع أحكام الشريعة وأن فى تنقية الشريعة مما يكون فيها من أحكام متعارضة مع أحكام الشريعة هى محاولة لإسباغ الشرعية على باقى الأحكام والإغراق فى الوهم بالتماثل والتشابه بينها وبين الشريعة مع اختلاف نسيج هذه عن نسيج تلك اختلافاً واضحاً كذلك فإن القوانين الوضعية المسماة باسم الشريعة قد رسخ فى الأذهان بعد فترة أنها أحكام شرعية بالرغم من البعد بينهما بعد المشرقين ولذلك فإنه يجب أن يكون الفقه الإسلامى فى منطقه وصياغته وأسلوبه فقهاً إسلامياً خالصاً لا مجرد محاكاة للقوانين الغربية .

٢ – معارضة الحدود والتهويل فى آثار تطبيقها :

ولا ريب أن تحاول حركة التغريب والغزو الثقافى التهويل فى شأن الحدود والقول بأنها تخلق من المجتمعات الإنسانية مجتمعات تسودها القوة والإذلال وشيوع العاهات وهذا كله وهم باطل لأن دولة إسلامية كبرى إذا طبقت الحدود خمسين عاماً فلن تقطع خلالها أكثر من بضعة أيدى ولكنها تكون قد حسمت هذا الأمر بالنسبة للمجتمع فوفرت عليه الملايين .

وقد أحاط الشارع هذه الحدود بشروط وتحوطات جعل تنفيذها فى حدود ضيقة ولقد كانت المجتمعات الإسلامية إبان تنفيذ الحدود يمر بها العام فالعام دون أن يرجم أو يجلد أو تقطع يد أحد ، لأن الإسلام لا يعالج الجريمة بعد وقوعها ولكنه يحول دون وقوعها بالعقوبة الرادعة .

ولا ريب أن القوانين الوضعية لم تستطع القضاء على هذه المخاطر والتحديات لأنها لم تحرم الزنا إلا فى حالات معينة وأباحته عند الرضا فى أكثر الحالات محتجة بالمحافظة على الحرية الشخصية فكان عاقبة ذلك كثرة اللقطاء الذى حرموا تربية الآباء فضلا عن فساد العلاقات الاجتماعية ، كذلك أباحت هذه القوانين تعاطى الخمور (بحجة الحرية الشخصية) ومنذ أن عرفت المجتمعات الإسلامية القوانين الوضعية فقد اضطربت حياتها وتعرضت لأخطار تتصل بالأعراض والأنساب والعقول والأموال بل إن القوانين الوضعية التى عجزت عن إصلاح المجتمعات قد أشاعت مفاسد الزنا والفحش وشرب الخمر والسرقات وعرضت المجتمع الإسلامى لأسواء كثيرة لا سبيل إلى التخلص منها إلا بتطبيق الشريعة الإسلامية وإقامة الحدود .

ومن المسلم به أن القانون فى أمة من الأمم إنما يستمد مواده من قيم المجتمع وأخلاقياته وعاداته وأعرافه ولذلك فمن الضرورى أن يلتمس المسلمون أخلاقهم وأعرافهم فى شريعتهم وأن يتحرروا من الأخطار التى نقلتها إليهم القوانين الغربية التى وضعت لمجتمع غير مجتمعنا ولعرف غير عرفنا .

* * *

الباب الثانى
تغريب التعليم

الفصل الأول : تغريب التعليم .

الفصل الثانى : الأزهر .

الفصل الثالث : الجامعة .

الفصل الرابع : التربية الإسلامية .

« إن التعليم الغربي يحمل روحاً مستقلة تتجلى فى عقيدة مؤلفة وعقلية وضعية فإذا ما طبق فى بلاد مسلمة أو مجتمع مسلم يحدث به قبل كل شىء صراع عقلى ثم يتدرج إلى تغرير العقيدة والردة الفكرية والدينية ذلك أن الإسلام والمدنية الغربية يقومان على فكرتين فى الحياة متناقضتين تماماً ، لا يمكن أن يتفقا ، فإذا كان ذلك فكيف نستطيع أن نتوقع أن تظل تنشئة أحداث المسلمين على أسس غربية ، تلك التنشئة القائمة فى مجموعها على التجارب الثقافية الأوربية وعلى مقتضياتها خالصة من شوائب النفوذ المعادى للإسلام .

إن التنشئة الغربية لأحداث المسلمين ستقضى حتماً إلى زعزعة إرادتهم فى أن يعتقدوا أو أن ينظروا إلى أنفسهم على أنهم ممثلو الحضارة الربانية الخالصة التى جاء بها الإسلام وليس ثمة من ريب فى أن العقيدة الدينية آخذة فى الاضمحلال بسرعة بين المتنورين الذين نشئوا على أسس غربية » .

« محمد أسد »

الفصل الأول
تعريب التعليم

الحقيقة الأساسية التى تكشف عنها دراسة أحوال التعليم المعاصرة فى العالم الإسلامى أن آثاراً كبيرة للسموم التى قام الاستعمار بدسها فى مناهج التعليم إبان الاحتلال العسكرى والسياسى للبلاد الإسلامية (فرنسا وإنجلترا وهولندا) ما تزال حتى الآن موجودة وقائمة وبعيدة التأثير فى بناء وتشكيل الأجيال المتوالية والجديدة على نحو يجعلها أكثر ولاء وتبعية .

ذلك لأن تاريخ التعليم فى العالم الإسلامى يحمل فى طياته تلك المؤامرة الخطيرة التى قام الاستعمار الغربى بها من أجل تنشئة أجيال تدين له بالولاء والعاطفة وتحتقر أمتها وعقيدتها .

وقد جاءت المدارس الأجنبية والإرساليات أولا فنصبت شراكها وأعدت خططها ومناهجها ثم جاء الاستعمار فنقل « أغلب » هذه المناهج إلى أفق التعليم الوطنى حيث كان مسيطراً سياسياً وعسكرياً على تلك الأوطان . وقد جاهدت هذه الأقطار بعد الاستقلال فى سبيل تحرير مناهج التعليم من تلك السموم القديمة واستطاعت أن تغيرها جزئياً ولكنها لم تستطع حتى الآن أن تقيم منهجاً تعليمياً وتربوياً عربياً وإسلامياً أصيلا وتنبذ المنهج الغربى المضطرب الذى ما تزال آثاره وعواقبه بعيدة الخطر فى تشكيل الأجيال الجديدة .

ذلك أن محاولة تعديل المنهج التعليمى والتربوى الاستعمارى الوافد كانت عملا مؤقتاً وجزئياً ولم تستطع من خلاله التحرر الكامل من تبعات وأخطار وسموم تلك الآثار الخفية التى ما تزال مدسوسة فى أعماق المناهج وما تزال نتائجها قائمة فى أعماق النفوس .

ذلك أن الاستعمار والثقافة الغربية حين وضعت هذه المناهج . إنما قصدت إلى هدف واضح محدد هو احتواء الفكر الإسلامى وصياغة المسلمين

والعرب على نحو يجعلهم ذوى ولاء وإعجاب للغرب وكراهية ونفور من مقدساتهم ومنهجهم، وبذلك جعل المثل الأعلى هو فكر الغرب وحضارة الغرب « وجعل الشخصية الغربية هى الأساس كما جعل نهضة الغرب وبيئته المصدر الأصلى لما تغشى به عقول الشباب ولم يكتف بذلك بل تدخل فى تفصيلات المناهج حتى لا تخرج جزئية من جزئياتها عن المبدأ العام الذى هو فلسفته وحضارته » وكان هذا الاتجاه بعيد الأثر فى إقامة العمد الأساسية للتعليم وهى (العقيدة واللغة والتاريخ) فإن مناهجها بنيت على أساس الانتقاص منها وإثارة الشبهات حولها .

هذا التعليم الغربى كان بعيد الأثر فى تكوين الأجيال المتوالية على النحو الذى مكن للاستعمار من السيطرة والبقاء على نحو أو آخر وخاصة فى مجال التبعية والتغريب والغزو الثقافى .

إن الخطر كله يتركز فى أن التعليم العصرى « عنى بتربية عقله وتثقيف لسانه ولم يعن شيئاً بتغذية قلبه وإشعال عاطفته وتقويم أخلاقه وتهذيب نفسه » فنشأ — كما يقول محمد إقبال : جيل غير متوازن القوى ، غير متناسب النشأة ، قد تضخم وكبر بعض نواحى إنسانيته وحياته على حساب بعض وأصبحت المسافة بين ظاهره وباطنه وعقله وقلبه وعلمه وعقيدته مسافة شاسعة بل أصبح التفاوت بين عقله وجسمه كبيراً — الأول ضخم كبير ، والثانى ضعيف ناعم .

ويقول إقبال : إن السبب فى جبن هذا الشباب وضعفه الخلقى ، هو الوضع التعليمى الحاضر وإهمال الجانب الخلقى ، ونشأة الشباب المتحللة .

وله فى ذلك أنشودة رائعة :

« الشباب المثقف فارغ الأكواب ظمآن الشفتين ، مصقول الوجه ، مظلم الروح ، مستنير العقل ، كليل البصر ، ضعيف اليقين ، كثير اليأس ، هؤلاء الشبان ينكرون أنفسهم ويؤمنون بغيرهم ، شباب ناعم رخو رقيق يموت الأمل فى مهده فى صدورهم ، إن المدرسة نزعت منهم العاطفة الدينية وأصبحوا خبر كان ، أجهل الناس لنفوسهم وأبعدهم عن شخصياتهم ، شغفهم بالحضارة الغربية ، يبيعون أرواحهم فى سبيلها ، إن المعلم لا يعرف

قيمتهم فلم يخبرهم بشرفهم ولم يعرفهم بشخصيتهم . مؤمنون ولكن لا يعرفون سر الموت ، ولا يؤمنون بأنه لا غالب إلا الله ، يشترون من الإفرنج اللات ومناة . مسلمون لكن عقولهم تطوف حول الأصنام . كل ما عندهم من علم وفن ودين وسياسة وعقل وقلب يطوف حول الماديات . قلوب باردة لا لوعة فيها ولا حرارة ونظر غير عفيف ، قلب لا يعرف الخشوع وعين لا تعرف الدموع » من أكبر أسباب الضعف : الذل والتقدير الزائد للمادة .

« إن هذا العلم سم ناقع للأفراد الذين ليست لهم غاية إلا حفنتان من شعير » إن المدرسة تترك الأفراد بغير نظام وارتباط ، هذا الجيل ليس حياً قائماً بنفسه مفكراً بعقله ، إنه ظل لأوربا ، هذا الجسم فارغ من معرفة النفس . نمه محلى بغير سيف . وجود الله غير ثابت فى نظرك . لقد أضعف نظام التعليم الغربى ، الروح المعنوية فى الشباب المسلم وجنى على رجولته فأصبح شباباً رخواً رقيقاً . ضائعاً ، أغيد ، لا يستطيع الجهاد ولا يحتمل المكروه .

يا مربى الجيل : ألق عليهم درس التواضع وهضم النفس مع الاعتزاز بالنفس والاعتداد بالشخصية ، وعلمهم كيف يشقون الصخور ويدكون الجبال ، فإن الغرب لم يعلمهم إلا صنع الزجاج . إن عبودية قرنين متواليين قد كسرت خواطرهم وأوهنت قلوبهم فانظروا كيف نعيد الثقة إلى نفوسهم هذه الحكمة الغربية التى تجرد المجاهد من سلاحه وتجعله أعزل ضعيفاً » .

هكذا صور محمد إقبال أثر التعليم الغربى على البيئة الإسلامية فى الهند وهى صورة صادقة للعالم الإسلامى كله ، وفى هذا المعنى يقول مولاى محمد على : إن نظرية التعليم التى وضعتها الحكومة الإنجليزية للشباب الهندى كانت حديثة وكانت تهدف بجميع ما فيها من عوامل هدامة إلى أن تربى فى الطالب شعوراً خاطئاً بعلمه وكبريائه يقضى على قداسة الرواية والحجة والأستاذ بأوهامه التى يرجع تاريخها إلى ما قبل قرون .

كان هذا التعليم هداماً فى حملته على الديانة والأخلاق أما ما أعطاه بدلا مما قضى عليه من الأوهام الدينية (كما يقول الغربيون) فلا يقوم أيضاً إلا على أساس من الأوهام والعقائد الخرافية .

وهذا الذى يقوله المسلم فى الهند يقوله المسلم فى مصر : حين يتحدث

لطفي جمعة فيقول : إننا تعلمنا في المدرسة الثانوية في أوائل هذا القرن (١٩٠١ - ١٩٠٢) وكان أستاذنا في التاريخ المستر هيل ويعلمنا اللغة الإنجليزية أن اثنين من رجال أوربا أنقذا المدنية الغربية من السقوط في أيدى البرابرة والمتوحشين أولهما تمستو كليس اليوناني الذى هزم قورش أو (زاجزيز) الفارسي في معركة سلاميس الشهيرة والرجل الثاني شارل مارتل الذى هزم العرب في موقعة بواتيه ، والموقعة الأولى حصلت في ٤٨٠ قبل المسيح والثانية حصلت بعد المسيح أى أن بينهما ألفاً ومائتين واثنى عشرة سنة ، وقد كتبنا هذا بأنفسنا وبأيدينا بإملاء أستاذنا الإنجليزى الذى مثل لنا (أمة العرب) التى أنجبت مئات الألوف من رجال العلوم والفنون والآداب الذين علموا أوربا وهذبوها في وحشية وقسوة تعادل وحشية الفرس الوثنيين قبل الميلاد بخمسة قرون فصدقنا هذا وآمنا به وتعلمناه وحفظناه وأدينا فيه امتحانات عشرة »

ويطابق هذا مايقوله صوت من قلب أفريقيا يقول أحمد سكوتورى :

لقد تعلمنا نحن المثقفين الأفريقيين في مدارس الاستعمار تاريخ فرنسا وحروب الغال وحياة جان دارك ونابليون ، لقد قدم لنا الاستعمار من العلم والثقافة القدر الذى يرى أنه يخلق منا آلات ترتبط مصالحها بعجلة الاستعمار لقد أراد المستعمرون للمعلم الأفريقى أن يظل في سوية ثقافية منحطة حتى تخرج تلاميذه على يديه أشد انحطاطاً ولقد أراد المستعمرون للمثقفين الأفريقيين أن يفكروا بديكارت وبرجون ولم يسمح لهم بالتفكير في قيمهم وثقافتهم وتراثهم الأفريقى لهذا لا يعرف كثير من شبابنا فلسفة المفكرين الأفريقيين : أمثال الحاج عمر بن سعد تال وأحمد ساموري توري . وإذا استمر الأمر على ذلك النحو فلن نستطيع أن ننمى شخصيتنا الأفريقية التى هى الطريق الوحيد للنهضة أولا — ويناقش الدكتور عمر فروخ تجربة التعليم الغربى الذى فرضته على عالم الإسلام فيقول : وجدت بعد ثلاث وأربعين سنه في التعليم أن طلابنا وتلاميذنا وهم مجموعة الأجيال المقبلة قد فقدوا كثيراً من الخلق الديني الذى كان لا يزال موجوداً في التلاميذ الذين عرفتهم في عشر العشرين وعشر الثلاثين وعشر الأربعين . ثم وجدت في السنوات الأخيرة بين

الطلاب حركات واتجاهات مؤسفة وحالات لا تعكس النقص فى التربية الدينية فحسب بل تنعكس على الوجود الإجتماعى والطبيعى للأمة كلها .

وأبرز هذا التجهيل للدين وقلة المبالاة فى الحياة الروحية والمعنويات :

(٢)

لا ريب أن سيطرة المناهج الغربية على التعليم الحديث فى العالم الإسلامى من الأعمال الخطيرة البعيدة المدى فى كل ما وقع فى البلاد الإسلامية خلال هذا القرن من الزمان يتبين هذا بجلاء مما يشير إليه عدد من الباحثين الغربيين الذين حاولوا تقييم هذه التجربة ، فيقول جب : إن هذا العمل كان من آثاره أن صاغت تلك المدارس والمناهج أخلاق التلاميذ وكونت ذوقهم ، والأهم أنها علمتهم اللغات الأوربية التى جعلت التلاميذ قادرين على الاتصال المباشر بالفكر الأوربى فصاروا فى مستقبل حياتهم مستعدين للتأثير بالمؤثرات التى فعلت فعلها أيام الطفولة ولعل هناك نصيباً من الحق فى التهم التى ترمى بها هذه المدارس الأجنبية من أنها مفسدة لقومية التلاميذ وإن كنا نستطيع القول بأن التطورات السياسية التى أعقبت ذلك فى البلاد الإسلامية أيدت هذه التهمة . ولكن الذى فعلته بلا ريب أنها ربت فى التلاميذ خروجاً على الأنظمة الاجتماعية وأضعفت من هذه الوجوه سلطان النزعة الإسلامية القديمة على التلاميذ وأدخلت فى بناء المجتمع الإسلامى إدارة هامة وقطعت بعض الأواصر التى كانت تربطه وتحفظه .

ويقول جب : إن التعليم هو أكبر العوامل الصحيحة التى تعمل على الاستغراب وأن انتشار التعليم سيبعث بازدياد فى الظروف الحاضرة على توسيع تيار الاستغراب وتعميقه ولا سيما لاقترانه بالعوامل التعليمية الأخرى التى تدفع الشعوب الإسلامية فى نفس الطريق .

لقد استطاع نشاطنا التعليمى والثقافى عن طريق المدرسة العصرية والصحافة أن يترك فى المسلمين ولو من غير وعى منهم أثراً يجعلهم فى مظهرهم العام « لا دينيين » إلى حد بعيد ولا ريب أن ذلك خاصة هو اللب المثمر فى كل ما تركت محاولات الغرب لحمل العالم الإسلامى على حضارته من آثار » :

ويؤكد هذه المعانى ويزيد عليها ولفرد كانتول سميث الذى يعترف بالتأثير العقلى العميق الذى يتركه التعليم الغربى الحديث ومراكزه فى العالم الإسلامى فيقول :

إن من أهم أسباب حركة الحرب والإباحية التى تسود اليوم فى العالم الإسلامى ومن أكبر عواقبها نفوذ الغرب ، فقد بلغت هذه الحركة أوجها فى أوربا فى أواخر القرن التاسع عشر إلى الحرب العالمية الأولى . وقد سافر كثير من الشباب المسلم إلى الغرب واطلعوا على روح أوربا وقيمها وأعجبوا بها إلى حدما . وينطبق هذا بخاصة على الطلاب الذين درسوا فى جامعات أوربا بعدد لم يزل يزداد مع الأيام وهم الذين سببوا استيراد كثير من أفكار الغرب وقيمه إلى العالم الإسلامى . وقد حازت قصب السبق فى هذا المضمار تلك المعاهد الثقافية التى قامت بتربية جيل بأكمله على النمط الغربى الحديث .

وكان مما صدره الغرب إلى العالم الإسلامى تلك الأفكار المتعددة الجديدة التى تقع من الأهمية والدقة بمكان والاتجاهات الفعلية الدقيقة الضخمة والميول الحديثة التى كان فى نشرها أوفر نصيب لنمط التعليم الغربى الحديث ويقومها فى ذلك تأثير معاهد الغرب الحقوقية والسياسية والاجتماعية الجديدة ونفوذها الزائد . ومنها ما يسلط إجباراً وما يحاول تسليطه وبينما قام بعض المسلمين بمقاومة هذا التيار الذى رحب به البعض الآخر . إن بعضهم قد وقع تحت تأثير هذه التربية رسمياً وبعضهم قد رحب بهذا التيار بدافع من أنفسهم وأنتج ذلك أن كثيراً من المسلمين اعترفوا بهذه النظريات والمعاهد كحقيقة ثانية وخضعوا لها بالتدريج .

وهكذا استمر عمل التغريب بسرعة وقوة بالغين وهكذا جرف تيار نظام التعليم الغربى الشباب الإسلامى فى البلاد العربية والأعجمية (الذين كانوا زبدة أمتهم وزهرة بلادهم ، وغير عقليتهم إلى حد أن عقولهم أصبحت لا تستطيع أن تستسيغ الإسلام الصحيح وأصبحوا لا يندمجون فى المجتمع الإسلامى أيضاً ويصبحون جزءاً منه) .

ومن الحق أن يقال إن المدرسة العصرية التى أنشأها الغرب فى بلاد الإسلام قد خطط لها على النحو الذى يقضى على كل مقومات الأصالة ويحيل الخريجين منها غرباء عن أوطانهم وقيمهم وأمتهم .

فقد حرصت المدرسة العصرية على إهمال القيم والعقائد والأخلاق والعلوم العلمية والمعارف الكونية ووجهت الأجيال إلى صرف الأوقات في فلسفات نظرية وعلوم خيالية سقيمة ، وتفاهات تشغل الوقت ، ودراسات جانبية لا تقع لها في الحياة العملية وأحاطت ذلك كله بشيء من القداسة والاهتمام حتى تحول دون تغييره إلى ما هو خير منه . ومن ذلك تدريس الخلافات الدينية والمذهبية والانصراف عن فهم روح الإسلام الحقة ، وتدريس الخصومات التي وقعت بين الحكام والخلفاء وتجاهل جوانب البناء والإنشاء في مجالات الحضارة والعلوم .

كذلك عمدت نظم التعليم الوافدة إلى خلق تلك الازدواجية الخطيرة في مجال التعليم ، من تعليم ديني خالص وتعليم مدني بعيد عن الدين ، يقوم على أساس نظرية فصل الدين عن المجتمع والحياة وحتى يبقى العلم بعيداً عن الدين ، ومنفصلا عنه كأنه نظام لاهوتي لا صلة له بالحياة . .

كما حيل خلق جو التطبيق الحقيقي لمفهوم الإسلام الجامع بين العقيدة والسلوك وحيث تعتبر الصلاة جزءاً أساسياً من برامج الدراسة ومنطلقاً من منطلقات العمل والحياة .

كذلك فقد حرصت المدرسة الغربية في التعليم أن تحول دون فهم الإسلام فهماً صحيحاً والقضاء على الوحدة الجامعة للعرب والمسلمين : فهي قد عزلت كل قطر فكرياً وأقامت له تاريخاً إقليمياً خاصاً منفصلا عن الوحدة العربية الإسلامية يستمد جذوره من حضارات قديمة قبل الإسلام كالفرعونية والفينيقية والآشورية والبابلية ، ثم حالت دون فهمه رابطة العروبة الجامعة بينه بين جاراته ورابطة الأخوة الإسلامية التي تجمع العرب بالفرس والترك والهنود وغيرهم . كذلك حرصت على أن تحول دون دراسة القرآن دراسة صحيحة باعتباره الأساس الأول للفكر الإسلام وللشريعة ولنظام المجتمع والتعليم والاقتصاد وحاولت أن تلغي مفهوم الجهاد حتى يبدو الإسلام في نظر أهله ديناً لاهوتياً قاصراً ، ولا ريب أن الشريعة والجهاد وهما دعامتا الإسلام الحقيقية بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع .

ومن ناحية أخرى عمدت المدرسة الغربية إلى تدريس الطب والعلوم

مقطوعة الصلة بأولياتها العربية الإسلامية ، فلم يعرف الطلبة العرب والمسلمون ذلك الدور الذى قام به أجدادهم فى بناء مناهج هذه العلوم . وحتى لا يكشف لهم عن موضع فخار يعرفون به فضل أمتهم فى مجال البحث العلمى . فلا قيل لهم أن المسلمين كان لهم دور فى إنشاء مادة الطب ولا مادة الجغرافية ولا القانون ولا الكيمياء .

(٣)

قبل الاحتلال الأجنبى للبلاد العربية والإسلامية كان التعليم إسلامياً ، يقوم على مفهوم الشريعة الإسلامية والجهاد . ومن هنا كان حرص النفوذ الأجنبى فى السيطرة على التعليم لإخراجه من مفاهيم القوة والمقاومة . وقد حاول الاستعمار تبرير هدمه للمنهج الإسلامى فى التعليم بوصفه بالجمود والتخلف . بينما كانت التربية الإسلامية هى مصدر المقاومة التى واجهها الاحتلال وقد اعترف بذلك رجال الاستعمار أنفسهم . فقال اللورد لويد فى كتابه (مصر منذ أيام كرومر) :

إن التعليم الوطنى عندما قدم الإنجليز كان قبضة الجامعة الأزهرية الشديدة التمسك بالدين والتى كانت أساليبها الجافة تقف حاجزاً فى طريق أى إصلاح تعليمى وكان الطلبة الذين يتخرجون من هذه الجامعة يحملون معهم قدراً عظيماً من غرور التعصب الدينى فليس من العسير أن يتصور لنا تقدم تقدم طالما ظل الأزهر متمسكاً بأساليبه هذه ولكن إذا بدا أن مثل هذه الخطوة غير متيسر تحقيقها فعندئذ يصبح الأمل محصوراً فى إيجاد التعليم اللادينى الذى ينافس الأزهر حتى يتاح له الانتشار والنجاح » .

ومعنى هذا أن الاستعمار يرى فى التعليم الإسلامى جموداً لأنه هو مصدر القوة التى هاجمت الاحتلال وقاومته . وهذه القوة صدرت من الأزهر ومن الزيتونة ومن القرويين ومن كل هذه المصادر الإسلامية فكان أول ما فكر الاستعمار فى تحويلها عن غاياتها أو خلق تيار التعليم العصرى النابع من مناهجه وأساليبه ليعزل هذا التعليم الإسلامى ويقصيه عن مجال العمل الاجتماعى كله ونحواً من هذا المعنى كان تقرير اللورد دوفرين الذى أشار إلى أن طريقة

التعليم فى الجامع الأزهر جافة . والذى اقترح إقامة التعليم على أساس العامية وقال إن التقدم ضعيف طالما أن العامة تتعلم اللغة الفصيحة العربية لغة القرآن وأنه لابد من تعلم اللغة الدارجة لأن نسبة اللغة المصرية الدارجة إلى لغة الفلاح كنسبة اللغات الحديثة فى أوربا إلى اللغة اللاتينية وأدعى أن لغة الفلاح لغة قائمة بنفسها وقواعدها وهدد بأنه إذا لم ينفذ ذلك فإن الجيل الجديد يستمر كسابقه غير صالح لخدمة وطنه .

ومعنى هذا كله « التآمر » على التعليم لتحقيق الهدف الذى يرمى إليه الاستعمار وهو احتواء شباب الأمة ومن هنا نجد أن من أهم ما عنيت به الحركة الوطنية فى مصر :

« جعل التعليم فى المدارس باللغة العربية » بعد أن فرض الاستعمار لغته على كل مناهج العلوم المختلفة . وجاءت المحاولة الأخرى للانفصال عن برنامج التعليم فى مدارس الحكومة الواقعة تحت قبضة الاحتلال لوضع نظام جديد مستقل يكون أساسه تخريج رجال يستطيعون البروز فى معترك الحياة أقوى من غيرهم على حمل أعباء تنازع البقاء » .

وهكذا خطط الاستعمار لغزو التعليم الوطنى فى البلاد التى احتلها والتجربة فى مصر شبيهة بالتجربة فى جميع الأقطار وإن اختلف الاستعمار : فرنسياً أو إنجليزياً أو هولندياً أو إيطالياً .

وفى مصر كان تنازع الفرنسية والإنجليزية : لغة وثقافة وكلاهما كان يستهدف نفس الغرض وهو محو الذاتية العربية الإسلامية وإحلال ذاتية مضطربة تابعة .

وقد تنبه المفكرون المسلمون لهذا الخطر باكراً وحاولوا مواجهته : فأنشأت المدارس الأهلية بأموال المسلمين فى محاولة لمقاومة نظام وفلسفة المدرسة الغربية ، قام بذلك محمد عبده ومصطفى كامل والجمعية الخيرية الإسلامية . غير أن هذه المحاولة لم تحقق الهدف فقد توسعت المدرسة الحديثة وركز عليها الاستعمار وأصبح لها نفوذ خريجها الواضح فى السيطرة على مقاليد الحياة الاجتماعية السياسية وحجب الأزهر والمدارس الأهلية عن أداء أى دور.

وهكذا تكررت الازدواجية وحدث التناقض مرة بعد مرة .

ولاء للمدرسة الفرنسية وولاء للمدرسة الإنجليزية .

ثم اتجاه فى التعليم مصدره الأزهر أو « القرويين » أو الزيتونة واتجاه آخر مصدره المدرسة العصرية .

وبذلك تمزقت جبهة الفكر والثقافة فى البلاد الإسلامية على نحو جعلها لا تلتقى على رأى واحد أو وجهة واحدة .

ولا ريب أن ازدواجية التعليم هى من أكبر الأخطار التى كان لها أبعد الأثر فى الحيلولة دون وحدة الفكر ، فإن هذين النظامين المتنافرين ينتجان نوعين من الناس تختلف نظرتهما إلى الحياة ومن العسير على كل منهم تفهم وجهة نظر الطرف الآخر . هذه الازدواجية هى المسئولة عن خلق فجوة عميقة من قطاعين بين المثقفين . وهى فجوة لا تفتأ تتسع فتمزق وحدة الفكر وتشتت الرؤية .

ويقول أحد الباحثين : إنه بالجنوح إلى تبنى الطريقة الغربية فى صوغ مناهجنا العلمية فإننا نفقد شخصيتنا ونصبح عبيداً للثقافة الغربية وأن نظام التعليم الأجنبى الذى استورد إلى بلادنا شكل تهديداً مباشراً لقدرتنا على الحفاظ على ذاتيتنا والارتباط بديننا .

ونتيجة لهذا نجد أن ما ذكرته مذكرة جمعية الشبان المسلمين من محاذير هذا التعليم صحيحة فى جملتها حين يقول : إن الوالد المسلم ليلتفت حوله فلا يجد مدرسة علمية واحدة يأمن فيها على دين ابنه أو ابنته وهو موقف شاذ غريب فإن الطوائف الأخرى لها مدارسها الخاصة . أما الجمهرة المسلمة فقد كانت مدارسها هى مدارس الدولة ، والآن حين تبدلت مدارس الدولة غير ما يبتغى المسلمون صار ضائعاً وأصبح الوالد المسلم ،فى حيرة . إن أقل ما ينتظر من وزارة المعارف فى بلد دينه الرسمى الإسلام وجمهرة أهله العظمى من المسلمين أن تخدم أحكام الإسلام ونظمه وتقاليده فلا تحاربه مع المحاربين ولا تخرج عليه مع الخارجين وهل هناك ظلم أشنع وفساد أفظع من أن ربى أبناء المسلمين على ما ينافى الإسلام رغم أنوف آبائهم المسلمين ، لقد اضطربت مصر بموجة من الدعوة إلى الخروج على الإسلام ونظمه وتعاليمه بدأت فى الغرب بمطاعن ذوى المآرب ورددها فى الشرق وياللأسف أناس من المسلمين لم ينشأوا النشأة الإسلامية الحقة فلم يحيطوا بالإسلام علماً

ولم يجدوا فى نفوسهم له نوراً وغر المسلمين من هؤلاء ملتهم فاستهانوا بأمرهم حتى استفحل وحتى أفلحوا فى خداع المرأة المسلمة باسم تحرير المرأة فصرفوها عن البيت وقادوها إلى المراقص وفى خداع الشباب المسلم باسم الفكر وحرية الفن والعلم فقادوه إلى عبادة الهوى والشهوة .

فكان ما نراه الآن من فوضى الأخلاق والإسراع إلى الخروج على كل حالة حرمه من التقاليد والآداب والدين(١) .

وقد سجل الدكتور محمد حسنين هيكل على وزارة المعارف أنها مازالت عام ١٩٣٢ تخضع لما كانت تخضع له أيام كان مستر دنلوب مستشاراً لها عام ١٨٨٢ وأن سياسة التعليم فى وزارة المعارف ستظل اليوم وغداً كما كانت بالأمس وقبل الأمس خاضعة للسياسة الغربية وللحضارة الغربية فى روحها .

والحضارة الغربية حضارة استعمارية عدوة للعلم على خط مستقيم ، وهى حينما ذهبت حاربت العلم وحاولت حصره فى طبقة ضيقة وفى حدود ضيقة لتتخذ من هذه الطبقة بطانة لها تروج للاستعمار ولذلك وضعت هذه الحضارة يدها على وزارات المعارف حيثما ذهبت وعملت دائبة على إفساد هذه المقومات النفسية والقومية مكتفية بطائفة من المعلومات العملية التى تحتاج إليها دائرة الحكم .

ولا ريب أن النسق الذى رسمه دنلوب والاستعمار البريطانى استمر بعد ذلك ونما وظل قائماً على أساس معارضة المفهوم الإسلامى للتعليم أساساً ومقاومته دائماً .

وقد أشار الأستاذ حسن البنا إلى هذا الخطر الكامن فى وزارة المعارف إزاء المفهوم الإسلامى للتعليم حين قال : إن الفكرة التى تسود عقول رجال الوزارة هى وجوب إبعاد العنصر الدينى عن العقول والأذهان حتى تكون المدارس علمانية فقط وإن كان الكثير لا يستطيع المجاهرة بهذا الرأى ، والدافع لهذا هو الإعجاب بتقليد أوربا ونظمها إعجاباً يدفعنا إلى السير وراءها وأن المتتبع لخطوات القضاء على التعليم الدينى عندنا نجدها شبيهة بالخطوات التى اتبعتها فرنسا لمثل ذلك فقد كانت الخطوة الأولى أن قررت إلغاء مادة الدين من المناهج والاستعاضة عنها بدرس فى الأخلاق .

---

(١) التقرير مؤرخ ١٩٣١ .

مع أن الفارق بين التعليم الديني عندنا وبينه في أوربا فارق كبير ، فقد كانت هذه المدارس الأوربية التي حولت إلى علمانية مدارس دينية بحتة كان زمامها بيد القسوس والرهبان وكل مناهجها مستمدة من مبادئ الكنيسة وإرادة البابوات » .

ويقول محمد على الطاهر : لقد بحثت كثيراً عن سبب ابتعاد الذهن المصري عن الاتصال بالشرق والبلاد العربية وعدم اهتمامه بما يجرى في البلاد المجاورة فوجدت أن سبب كل هذا رجل إنجليزى واحد هو مستر دنلوب مستشار وزارة المعارف المصرية بعد الاحتلال البريطاني لمصر فقد استطاع بسيطرته على المعارف أن ينزع من برامج التعليم : الدين وروح الأدب العربي وتاريخ العرب وصلة مصر بالعرب والعربية . ثم أدخل في برامج المدارس أن مصر فرعونية وأن أجداد المصريين هم فرعون وهامان ولا صلة لمصر بعدنان وقحطان فلما نبت أبناء هذا الجيل وكبروا وتولوا السيطرة الآن على المدارس والصحف وجدتهم يهتمون بالصين وأمريكا وألمانيا ولا يهتمون بفلسطين والعراق والشام » .

(٥)

إن من أخطر الأخطار أن تعيش الأمم في مجال التربية والدراسات الإنسانية ذلك إن لكل أمة شخصيتها وعقائدها وتكوينها النفسي والاجتماعي الخاص ومن هنا فان التربية الغربية قد حملت في طياتها التفسخ الاجتماعي والأخلاقي والروحي للعالم الإسلامي .

يقول فاضل الجمالي : إن المشاكل والأخطار التي تحملها لنا التربية الغربية تتأتى إما عن طريق اقتباسنا التربية الغربية اقتباساً مستعجلا بدون أن ينسجم إنسجاماً كاملا ويتلاءم مع حاجتنا وتقاليدنا الروحية أو لأن هذه (المشاكل) والأخطار كامنة فعلا في التربية الغربية ذاتها . ومن هنا فقد أوجد هذا الاقتباس انشطاراً وثنائية في الكيان الاجتماعي والفكري للشعب في أحدث مشكلة ثقافية واجتماعية وسياسية كبرى . ويشير إلى أن اقتباس الأسلوب الغربي يؤكد عادة على عملية الحفظ أكثر من التأكيد على التفكير

والفعالية والبحث . وأن الذين ينالون قشرة من الثقافة الغربية يصيبهم الغرور والادعاء والبعض الآخر يعوزهم التكيف ويكون ذلك على حساب التربية العلمية وهناك تحد آخر فإن الذين ينالون قدراً من الثقافة الغربية لا يعرفون شيئاً كافياً عن دينهم ولا عن حضارة أمتهم وجذورهم الروحية . فضلا عن اعتيادهم على المشروبات الكحولية والانغماس فى التمتع بالشهوات والتحلل الخلقى . ومن شأن الشباب المسلمة ذى الجذور القويمة أن يصاب بالقلق النفسى بسبب حرمانه من التربية الروحية وقد يصبح شخصاً متشائماً وقد يصبح مشاغباً فى المجتمع الذى يعيش فيه .

ويقرر الباحثون أن نظم التعليم الغربية مبنية على فلسفات ذات صفة ثنائية أو انشطارية فهى فلسفات تفصل الدين عن الدولة والروح عن الجسد والفرد عن الجماعة وأن الدراسات العلمانية مثلا قد تؤدى بسهولة إلى اتجاهات فكرية مشككة أو مادية أو ملحدة أو عدمية فإذا نشأ الشاب المسلم على هذا الطراز من التفكير فهو ينشأ غريباً فى مجتمعه ويعيش فى فراغ روحى والمسلم الذى لا يتفهم دينه على الوجه الأكمل قد يقع فريسة للفلسفة الانشطارية (الثنائية) التى تمارس فى الغرب . وأشار الباحثون إلى محذور من محاذر الأسلوب الغربى فى التعليم : وهو أن ينحصر كل باحث فى حقل اختصاصه وقلما يعنيه التوافق والانسجام مع المجتمع . ولا يهمه كثيراً مصير القيم الأخلاقية .

ويقول فاضل الجمالى : إن الإهمال النسبى للنواحى الروحية والأخلاقية فى التربية الغربية قد تسرب إلى أنظمة التعليم الجديد فى العالم الإسلامى .

فالتربية الغربية لا تعترف بخصائص الإنسان الروحية وتكتفى بالتأكيد على نواحيه الجسدية والاجتماعية والسياسية والفكرية للحياة الإنسانية والنتاج التربوى لهذا التوجيه الناقص هو إنسان منحط فى إنسانيته ومن نتائج فقدان الوحدة والانسجام فى التربية ما يؤدى إلى الإفراط والتفريط فى معالجة بعض الأمور على حساب أمور أخرى . والانحياز إلى جهة من الجهات يصبح من الأخطار التى تفقد الحياة اتزانها واستقرارها فقد تشاهد البعض يتطرف فى فلسفة العقلانية والآخر يعانى فى فلسفة المادية أو ترى هذا يتحمس للفلسفة

المادية وآخر يتحمس للفلسفة الروحية ، وهذا متطرف فى الجماعية وهذا متعصب للقومية وذاك مدفوع للأممية هذه الانقسامات والانشطارات حيث لا تلاقى ولا توفيق بينها ترجع إلى عدم الأخذ بالتوسط المذهبى الذى يجمع الحقيقة من كل الأطراف ومن المركز الوسط بين القوى المتضاربة .

ويقول : وبينما نرى بعض أنظمة التعليم الغربيـــة أنجبت متعصبين ومتحزبين لا يمارسون التسامح والاعتدال نشاهد أنظمة غربية أخرى تتطرف فى التراخى الأخلاقى والحرية غير المسئولة وتبود الناشئة إلى نوع من اللامبالاة الأخلاقية فيصبح تناول الكحول واستعمال المخدرات والتهاون فى العفة من الأمور المتسامح فيها وتصبح القيم الأخلاقية نسبية وعرضة للتقلبات والشهوات الفردية .

(٦)

وهناك خطر المبعوثين إلى أوربا من الناشئة الذين أرسلوا غير (مجهزين) بشىء من السلاح المعنوى الذى يحول بينهم وبين الوقوع تحت طائلة الاحتواء الغربى فسرعان ما ينسلخون من عقائدهم وأخلاقهم وأذواقهم ومشخصاتهم القومية ومقوماتهم الاجتماعية ويرى المراقبون أن هؤلاء الأبناء يعودون من أوربا وقد امتلأت أدمغتهم احتقاراً وبغضاً لمدنيتهم وبلادهم وثقافتهم بآبائهم ويترددون أهلهم بذلك يصبحون عاملا من عوامل التغريب من حيث يدرون أو لا يدرون .

وقد أشار جوستاف لوبون إلى هذا المعنى حين زاره عدد من الشباب الشرقى فى بيته فى باريس حيث قال لهم : إن تهذيب المسلمين بالمعارف العصرية الأوربية خارجاً عن دائرة تقاليدهم وعقائدهم من شأنه أن يزيدهم انحطاطاً وفساد أخلاق ولن تنفعهم هذه العلوم إلا إذا جرت ضمن دائرة عقيدتهم وقوميتهم .

ومن الحق أن المسلمين لن تنهض بهم روح أوربية ولا روح شىء خارج عن الإسلام ، وما ينهض بهم إلا روح القرآن الذى كان مبعث نهضتهم الأولى والذى به حياتهم الأدبية والذى فيه لهم النازع والوازع

والمحرك والمسكن والذى بدونه ليس أمامهم إلا أمران هما الفناء أو الانحلال وهذا ما عبر عنه كثير من أعلام حركة اليقظة الإسلامية وفى مقدمتهم الأمير شكيب أرسلان الذى قال إن التربية العملية لا تنهض بالأمة نهوضاً حقيقياً إلا إذا حصلت ضمن دائرة لغتها وتاريخها وعقيدتها ومشربها .

(٧)

هذا الخطر الذى يتمثل فى المدرسة العصرية مازال ماثلا بالرغم من خروج العالم الإسلامى من عصر الاحتلال إلى عصر الاستقلال . وما تزال أغلب الأهداف قائمة فى ثنايا المنهج وفى جوهر الهدف والغاية الأساسية وأن كل المحاولات التى تجرى لتعديل المناهج أو جعلها وطنية أو قومية ما زالت عاجزة عن الوصول إلى صميم الغاية وهى تحرير التعليم من التبعية الغربية التى من شأنها أن تحول دون بناء الإنسان المسلم العربى القادر على فهم عقيدته ورسالته ووضعه وموقف وطنه وجماعته من تحديات الأمم والعصور والوصول إلى الأسلوب الصحيح القادر على بنائه بناء سليما بحيث يكون مؤمناً بقيمه ووطنه قادراً فى الوقت نفسه على حمايتها والدفاع عنها وما تزال المناهج حتى اليوم تدور حول فكرة تخريج موظف أو إدارى دون أن تستطيع تخريج مثقف أو نابغة أو رجل دعوة يحمل لواء العمل فى سبيل رسالة دينه وأمته التى انتدبت لها فى العالمين .

(٨)

إن تعليم المرأة فى المدرسة العصرية هو عمل من أخطر الأعمال البعيدة الأثر فى فساد نظام الأسرة والمجتمع ، ذلك لأنه يقوم على تعليم الفتاة والفتى منهجاً واحداً دون التفريق بين القدرات والغايات والوظائف التى يحصل عليها كل منهما ، والوجهة التى يتجه إليها وبذلك تفقد الفتاة فهم قيمتها الحقيقية فى الحياة . وخاصة مهمتها كأم وزوجة وربة بيت ، وقد تنبه لهذا المعنى فى الغرب كثيرون فقال الكسى كاريل : ينبغى أن لا يسوى بين الفتيات والفتيان فى التدريب الفكرى والبدنى ولا فى المطامح ، وعلى المختصين بالتربية أن يغيروا اهتمامهم الكبير لخصائص الفكرية والعضوية لكل من

الذكر والأنثى وللوظائف الطبيعية لكل منهما فبين الجنسين من الفوارق ما لا يمكن نكرانه وأنه ليتحتم أن نضع هذه الفوارق فى حسابنا حين نريد بناء عالم متحضر » .

ولا ريب فى أن إدخال نظام المدرسة الغربية فى بلاد الإسلام كان بعيد الأثر فى تلك النتائج القاسية التى عاشها المجتمع الإسلامى من انحراف ، واضطراب وفساد ، وقد كان للتعليم المختلط أسوأ الأثر فى ذلك ، كذلك فقد عجزت الفتاة المسلمة عن أن تعرف مهمتها ودورها ورسالتها وانساقت وراء مناهج الأبناء غير واعية بالفوارق الضخمة البعيدة بين الرجل والمرأة .

* * *

الفصل الثانى
الأزهـــــر

ركز النفوذ الأجنبى على الأزهر منذ وقت بعيد فى محاولة للقضاء على أثره الفكرى والاجتماعى وقامت القوى الاستعمارية فى كل مكان بالقضاء على المعاهد الإسلامية لأنها قامت بالدور الأكبر فى مقاومته فإن جميع المواجهات الشعبية التى عارضت النفوذ الأجنبى إنما بدأت من هـذه المعاهد الإسلامية وقد قام الأزهر بدور ضخم فى مواجهة النفوذ الفرنسى إبان الحملة الفرنسية كما قام بمواجهة النفوذ البريطانى فى ثورة ١٩١٩ وقد جرت المحاولات منذ عهد محمد على لتخليص نفوذ الأزهر فى النواحى التعليمية والتربوية وذلك بإنشاء المدارس العصرية مستقلة عنه ثم جاءت بعد ذلك معاهد دار العلوم والقضاء الشرعى والتعليم المدنى فى مراحله المختلفة ، ثم جاءت الجامعات العصرية خلواً من العلوم الإسلامية فعزل الأزهر عن مجال الحياة ومجال النفوذ السياسى والاجتماعى ، ثم جاءت المحاولة الأخرى لتدمير التعليم فى الأزهر وتفريغه من قوته التى كانت مصدر المقاومة للنفوذ الاستعمارى والأجنبى .

يقول الدكتور محمد البهى : اتجه الغرب المستعمر فى مصر إلى إضعاف مقومات الشخصية المصرية أى إلى إضعاف اللغة العربية والإسلام ونفذ إلى ذلك عن طريق التربية والتعليم فأولا إخلاء مناهج التعليم فى الابتدائى والثانوى أو ذاك من الدين الإسلامى فضلا عن التعليم العالى وقتئذ ، وثانياً جعل لغة التعليم هى اللغة الإنجليزية عدا دروس اللغة العربية وثالثاً قلل من دروس اللغة العربية فى مناهج التعليم بحيث أخذت المكان الثانى بعد اللغة الإنجليزية من حيث عدد الدروس والعناية بها ، ورابعاً : أغفل الأزهر والمتخرجين به بدعوى ضعف مستوى الكفاية الفنية عندهم سواء المستوى المادى وهى اللغة العربية أو المستوى المنهجى وهو طرق التدريس واستعاض عن الأزهر

فى تخريج معلم اللغة العربية . حتى مرحلة التعليم الابتدائى والثانوى ومستوى الكفاية الفنية ليس مصطلحاً جديداً فى قاموس وزارة التربية والتعليم الحديثة وإنما هو من رواسب الاستعمار البريطانى فى السياسة التعليمية فى مصر وتطبيقه على أبناء الأزهر تطبيقاً أولياً ، ليس جديداً كذلك الآن ، بل طبقه الاستعمار قبل ذلك ليصل إلى غايته إذا الشخصية المصرية ذات الصلة وثيقة بالأزهر ، وبما وضعه التاريخ على عاتق الأزهر من أعباء (طالما) من مقومات تاريخ وأحداث فإذا ضعف الأزهر وإذا أبعد المتخرجون فيه عن مجال التربية والتعليم الشعبي وهو التعليم الرسمى اضمحلت الشخصية المصرية بقدر ما يضعف الأزهر وبقدر ما يبعد المتخرجون به عن هذا المجال العام للتعليم .

والاستعمار البريطانى فى مصر كشف فى سياسته الاستعمارية للتعليم المصرى عن هذا الهدف . فلورد كرومر يكتب فى كتابه (مصر الحديثة) عن قيمة الأزهر إيجاباً وسلباً فى الحياة المصرية والحياة الإسلامية فى الشرق بوجه عام وربط بين إضعاف اللغة العربية وخلخلة الإسلام فى نفوس المصريين . وبين استقرار الاحتلال البريطانى والتقدم المدنى فى التعليم فى مصر الذى يساعد على التعاون بين الشرق والغرب فكما ضعف مستوى اللغة العربية وتخلخل الإسلام فى نفوس المصريين كلما سنحت الفرصة لثبات الاحتلال من جانب وللتقدم المدنى من جانب آخر . الذى بدوره سيحيل العقلية المصرية إلى عقلية تقبل التعاون بين الشرق والغرب . أى تقبل الاحتلال الغربى والاتصال بالغرب على أنه سيد وموجه .

وأصبحت السياسة التعليمية فى عهد الاستعمار فى مركز يرتكز على دعامتين :

أولا : الدعامة الأولى : إضعاف الأزهر . بعزله عن الحياة التعليمية العامة بدعوى مستوى الكفاية الفنية فى التعليم :

ثانياً : الدعامة الثانية : رعاية التقدم المدنى فى التعليم المصرى .

وهذا التقدم المدنى فى التعليم المصرى يرتكز بدوره على إبعاد الثقافة الإسلامية إبعاداً تاماً عن مناهج التعليم وعلى اصطناع التاريخ كمادة موجهة فأغفل تاريخ العرب والمسلمين وأحل محله تاريخ أوربا والشعوب الأوربية

وزورت أحداث وحرف توجية أحداث أخرى ، فيما يقص باسم التاريخ الأوربى والشعوب الأوربية وفيما يحكى عن تاريخ مصر والمصريين وبالأخص فى عهدها الإسلامى والرحالة الألمانى بول اشميد فى كتاب « الإسلام قوة الغد » الذى ظهر قبيل الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٦ قد حذر الغرب المسيحى وأنذر بأن الشرق الإسلامى يتحضر للسيطرة ، بعد التخلص من السيادة الأوربية لأنه يملك فعلا مقومات القوة فى الغد ، وإذا ما قوى الشرق الإسلامى ضعف الغرب وكان لا محالة من أفوله وحصر مقومات القوة فى الشرق فى ثلاثة عوامل :

— فى قوة الإسلام كدين وفى الاعتقاد به وفى مثله وفى تآخيه بين مختلفى الجنس واللون والثقافة .

— فى وفرة مصادر الثروة الطبيعية فى رقعة الشرق الإسلامى وتمثيل هذه المصادر العديدة لوحدة اقتصادية سليمة قوية ولاكتفاء ذاتى لا يدع المسلمين فى حاجة مطلقاً إلى أوربا أو إلى غيرها إذا ما تقاربوا أو تعاونوا .

— خصوبة النسل البشرى لدى المسلمين مما يجعل قوتهم العددية قوة متزايدة ويقترح بول اشميد هذا بعد أن فصل هذه العوامل الثلاثة وبما يعرفه عن جوهر العقيدة الإسلامية ويثنى على سياسة البريطانيين فى مصر وبالأخص فى الجانب التعليمى ولكنه يأخذ عليهم أن الأزهر لم يزل بابه مفتوحاً لأبناء مصر والوافدين عليه من أبناء العالم الإسلامى ، ويناشد الاستعمار البريطانى أن يفعلوا بالأزهر ما فعل الفرنسيون بجامعة الزيتونة فى تونس وبالقيروان فى الجزائر ، ويثنى على موسلينى فى منعه طلاب ليبيا من الالتحاق بالأزهر فى مصر ، صنع الاستعمار فى تعليم مصر وفى توجيه المصريين هذا الصنيع طيلة قيامه ، ولأنه يعرف أن سيختفى من الحياة العامة ، عند ليقدم المدنى من التعليم ، ليس فى البرامج التعليمية العامة فى مدارس الحكومة فقط ، وإنما قبل ذلك بخلق جيل يقود التوجيه التربوى فى مصر ، وكانت مدرسة (المعلمين العليا) هى المكان الذى يدب فيه جيل القيادة التربوية . قد خلت براجمها من الثقافة الوطنية وهى الثقافة الإسلامية العربية . وإن أخذ التاريخ الإسلامى مكاناً متواضعاً فيها .

وقد قسم برنامج التعليم فى مدرسة المعلمين العليا إلى شعب عديدة . ليس من بينها شعبة للثقافة الوطنية الأصيلة فمواد الجغرافيا والتاريخ فى هذا البرنامج تمس مصر والبلاد الإسلامية مساً خفيفاً قد يصيب مرة وكثيراً ما يخطئ ومع تعدد أقسام التعليم فيها . كان هناك قدر مشترك ضرورى بين هذه المدرسة العليا كتب (سبنسر) الإنجليزى بالإضافة إلى كتب (جون ديوى) الأمريكى وكلاهما من دعاة مذهب (الواقعية فى التعليم) أو بعبارة أخرى من دعاة إنكار الدين (أى المسيحى) ومن دعاة إبعاده عن مناهج التعليم . وتعلمه الطلبة فى مدرسة المعلمين العليا فى القاهرة حجج سبنسر وديوى ضد الدين ومقصود سبنسر وديوى من الدين هو المسيحية وعلى الأخص الكاثو لكية ولكن المتخرجين فى هذه المدرسة طبقوا هذه الحجج أو نقلوها إلى مجال الدين الإسلامى إذ اعتقدوا أن ما يوجه إلى أى دين يصح أن يوجه إلى دين آخر . وبالأخص وهم خلو منذ نشأتهم التعليمية الأولى فى مدارس التقدم المدنى وهى المدارس الحكومية من أية صورة عن الإسلام كدين وكثقافة ومثل سوى ما يرونه يجرى فى الحياة الإسلامية القائمة إذ ذاك وهى حياة تبعد كثيراً أو قليلا عن أن تمثل الإسلام تمثيلا صحيحاً وكان هؤلاء المتخرجون يعملون فى التعليم . ثم أصبحوا بعد ذلك ذوى إشراف فنى تربوى فى وزارة المعارف المصرية وقد صاحبتهم صورة إبعاد الدين عن مجال التربية وترددت فى نفوسهم نفس العوامل التى أثارها سبنسر وديوى ضد المسيحية وعلى الأخص أن معرفتها وتعاليمها ضرب من خيال الإنسان يقع تحت الظروف السيئة فى الحياة وهى لذلك أولى أن يكون خرافة من أن تمثل الواقع . وزاملت هذه العوامل فى نفوسهم خفة وزن رجال الدين . ولكن رجال الدين هنا فى مصر ليسوا قساوسة إنجلترا وأمريكا . وإنما هم علماء الأزهر لأنهم حملة الثقافة الدينية الإسلامية والحقوا بعلماء الأزهر فى الاستخفاف بقيمتهم أبناء دار العلوم لأنهم أزهريو النشأة ولأنهم لا يخرجون عن كونهم حملة الثقافة الوطنية الإسلامية والعربية .

ومنذ أن أخذت وزارة المعارف تستقل عن المشورة البريطانية فى التعليم والتربية ظهر الاتجاه التقليدى لفكرتى سبنسر وديوى فى التربية المصرية وذلك عام ١٩٢٥ ثم تبلور هذا الاتجاه عندما أنشأت وزارة المعارف معهد التربية

وتزعم التوجيه التربوى فيه الأستاذ إسماعيل القبانى وعرف القبانى وتلاميذه المدرسون تحت زعامته فى معهد التربية بأصحاب المدرسة (الديوية) وازداد تشبيثهم بديوى بعد الحرب العالمية الثانية وعن طريق المساعدات الفنية الأمريكية نمت عظمة ديوى فى نفوس أتباعه من موجهى التربية فى مصر وأخذت مكان القداسة . وتولى القبانى وزارة التربية فنقل نظم مراحل التعليم المختلفة فى أمريكا إلى التعليم المصرى وحرص هو ومعاونوه من أتباع مدرسة ديوى فى مصر أن تتحقق أفكار ديوى فى التعليم المصرى كما حرصوا على إبعاد أبناء الأزهر والاستخفاف بأبناء دار العلوم والسبب أنهم حملة — الإسلام ولغته .

ثم كانت محاولة احتواء خريجى الأزهر بفرض مشروع مستوى الكفاية الفنية عليهم وهو مشروع يعيد إلى الأذهان مشروع دنلوب فى التوجيه الفنى والتربوى لمدارس الحكومة المصرية والمقصود به الغض من قيمة الأزهر والمتخرجين فيه وكذلك فإن أتباع منهج ديوى يريدون إهدار قيمة الأزهر بإهدار قيمـــة المتخرجين فيه بهذا المشروع ، وتقليل الأزهريين فى التعليم الثانوى وقصرهم على التعليم الأولى — يقول الدكتور محمد البهى : الأزهر وحده وأبناء الأزهر وحدهم ينخلون من بين أصحاب الشهادات العليا فى مصر ، ويذكر علناً عدم صلاحية المتخرجين من كليتى الشريعة وأصول الدين ويطلب ردهم إلى المرحلة السابقة على المرحلة التى يقومون بالتدريس فيها حالياً . وهكذا وضع الأزهر وكلياته تحت تخصص وزارة التربية والتعليم سواء فى تعديل المناهج أو الإشراف على الامتحانات أو تدريس مواد اللغة العربية والمواد التربوية والنفسية وأن هذه الوصاية ستار قصد به التقليل والنيل من كرامة الأزهر . إن الأزهر ليس متخلفاً والجامعة ليست متقدمة ووزارة التربية والتعليم ليست نموذجاً للتربية المصرية — إن أتباع ديوى يعيشون على أرض هذا الوطن غرباء وآن لهم أن يدركوا مقومات هذا الوطن العزيز » .

وهكذا نجد أن التعليم العصرى يعمل على إضعاف الأزهر ومحاصرته وعزله عن الحياة وحصر رجاله فى مجال واحد هو خدمة المساجد .

وقد جرت محاولات كثيرة لإعادة النظر فى مناهج الدراسة الأزهرية حيث تكون صالحة للتكوين الإسلامى اللائق بالدعاة إلى الله والذى يؤهلهم لحمل رسالة الإسلام وحمل أمانته الكبرى .

وقد قام كثير من الباحثين بدراسة هذه المهمة التربوية فى إصلاح المناهج وكتب فى ذلك الشيخ الظواهرى ورشيد رضا ومحب الدين الخطيب ودعا الباحثون إلى وضع أصول عامة منها :

أولا : الشباب فى المرحلة الأولى من مراحل الحياة يحمل كل قابليات الخير والشر وعلى التربية والتعليم أن تخرج رجالا كاملى التهذيب ، انطبعت نفوسهم بالطابع المحمدى ، وآمنت قلوبهم برسالة الإسلام فى جملته وتفاصيله فسلكوا طريق الدعوة إلى الحق والخير بالسيرة والقدوة قبل الدعوة إليها باللسان والحجة .

ثانياً : على الأزهر أن يربى نفوس الأطفال من الطلبة إلى جانب عنايته بما ينمى مداركهم من مادة العلم ، حتى يكون فيهم الدعاة الصادقون الصابرون فى هذا الوطن الإسلامى وفى كل وطن للمسلمين وبذلك يتحقق مبدأ الإسلام التعليمى القائم على اقتران العلم بالعمل وعلى أن يكون تعلم العلم لأجل العمل .

ثالثاً : الدعوة إلى إعلاء مفهوم القرآن على مفهوم علم الكلام .

يقول الأستاذ الأحمدى الظواهرى : إن أكثر الخلافات لا حقائق لها وإن حقيقة الأمر فى الدين الإسلامى أسهل وأبسط من هذه التحقيقات والتدقيقات ولا يحتاج إلى مثل هذه المشاغبات والخلافات التى قد يكون موضوع أكثرها مما لا يضاد الدين الاعتقاد فيه بإيجاب أو سلب أو عدم اعتقاد أحدهما أو مما لا يجوز الخوض فيه ولا تكليف العقل معرفته . وإن اهتمام الأزهر بدراسات هذه الشبهات يفتح أبواباً كثيرة من الجدل والمماراة وإنه من الخير للمسلمين أن يرجعوا فى تكوين عقيدة أبنائهم إلى طريقة القرآن بعيداً عن دراسات جهم بن صفوان أو ما قال به الخوارج أو المعتزلة : وأن الكتب والمذكرات التى تدرس الآن فى علم التوحيد لا تكون عقيدة تتمشى مع عقيدة القرآن

فى بساطتها وسلامة أدلتها وكذلك الكتب الكبيرة كالمواقف فإن ما فيها من تعقيد ومن مسائل أصبحت تاريخية لا واقعية جديرة بأن يعاد النظر فيها .

رابعاً : فى مجال التفسير . أن تفسير النسفى المقرر لا يكون فكرة واضحة عن روح القرآن وأسلوبه وهدايته وحكمه وأحكامه ويمكن الاستفادة من تفسير الحافظ بن كثير .

خامساً : أن السيرة النبوية ينبغى أن تدرس لتبين حكمة الله فى إعداد جزيرة العرب لتحمل تحت راية النبى آخر رسالات الله وأكملها لتنشرها فى الأرض ، وقد أدت البيئة التى ظهر فيها خاتم المرسلين هذه المهمة العظمى نحو رسالته على أكمل الوجوه وبما لا ينتظر من البشر خير منه .

سادساً : بالنسبة لتاريخ عصر الخلفاء الراشدين وما وقع منه من تعاون أو سوء تفاهم قد حققه أعلام السنة وزيفوا ما دس فيه المغرضون لتشويه هذا العصر وتسوىء سمعة الصحابة وإيهام أنهم على مستوى أقل من مستواهم الرفيع الذى رفعهم الله إليه وهناك خطأ اتهام (على) بالهوادة فى مقتل عثمان مع أن الذى حققه أئمة الدين وأعلام الإسلام أن رجلين من المبشرين بالجنة وعائشة جاءوا إلى العراق ليتفاهموا أو يتعاونوا مع أخيهم للتوصل إلى إقامة الحد الشرعى فى مقتل عثمان .

وتحقيق ذلك فى فتح البارى للحافظ بن حجر ج ١٣ ص ٤١ .

سابعاً : جاء فى المقرر أن سيدنا عليا حارب إخوانه فى الدين مع أم المؤمنين عائشة وأن تحقيق أعلام السنة وقدماء المؤرخين أن الجيشين باتا فى أنعم ليلة وأسعدها وأبناء كل فريق فى معسكر الفريق الآخر وكانا على أهبة إقرار الاتفاق النهائى فى أمر قتلة عثمان فى صباح تلك الليلة ولكن قتلة عثمان شعروا بذلك وأيقنوا أن الصلح والوفاق سيكون على رقابهم ودمائهم فأنشبوا القتال فى الصباح الباكر على حين فجأة من الفريقين ولم يكن على ولا إخوانه يريدون إلا العافية والسلامة .

ثامناً : خطأ ترويج الخطأ المدسوس على تاريخ الإسلام وادعاء أن سيدنا عليا حارب إخوانه مخالفاً لواقع الأمر .

وكذلك خطأ خرافة التحكيم فى صفين والتى يزعمون فيها أن أبا موسى الأشعرى كان أبله وأن عمرا كان صاحب حيلة وهذه أكذوبة والصواب فيها ما رواه الحافظ الدارقطنى بسنده إلى حصين بن المنذر من رجال على : [أن عمرا وأبا موسى اتفقا على ترك الأمر إلى الموجودين على قيد الحياة من كبار الصحابة كعبد الله بن عمر وطبقته ولم يقع قط ما نسب إلى أبى موسى من بلاهة وإلى عمرو من خديعة وكان كلاهما أعلى منزلة وأتقى لله وأبصر بدينه] .

وللقاضى أبى بكر بن العربى فى كتاب العواصم من القواصم وشيخ الإسلام ابن تيمية فى منهاج السنة تحقيقات جليلة فى هذا الباب .

تاسعاً : ينبغى تعليم المعجزة الاجتماعية التى تمت على يد عمرو بن العاص وإخوانه الصحابة بتحويل هذا الوطن إلى دين الإسلام ودخوله فى أسرة العروبة واختياره للسانها وبيانها حتى صارت لها الأمانة فى ذلك وهو حادث لا تعرف مصر فى تاريخها أعظم ولا أعجب منه فى ألوف السنين وقد عجز الاستعمار الغربى رغم جميع وسائله الحديثة عن أن يحدث هذه المعجزة فى الجزائر أو غيرها ، وتعليم طلبة الأزهر كيف صارت مصر عربية إسلامية من أهم ما ينبغى أن يتعلمه من حوادث التاريخ .

عاشراً : وجوب العدول عن اعتبار التاريخ الإسلامى تاريخ حروب وفتن وأحداث وأشخاص وأن ينظر إليه على أنه تاريخ الدعوة الإسلامية وكيفية انتشارها وأسباب نجاحها ، من أعان على ذلك وكان له أثر فيه بأخلاقه وتضحيته وصفاء بصيرته ومن أساء إلى هذه الدعوة وسار فى غير طريقها وكيف طرأ على المجتمع الإسلامى الانحطاط وظهرت فيه النزعات المذهبية والشعوبية .

حادى عشر : يجب أن يطهر التاريخ الإسلامى من الدسائس المكذوبة على أصحاب رسول الله اعتماداً على تحقيقات أعلام الإسلام وأئمتهم وينبغى أن يرسم منهاجه على أساس أنه تاريخ الإسلام وتطور العمل بالمبادئ التى جاء بها ومن هم الذين بذلوا من ذات أنفسهم حتى نشروا دعوة الإسلام وعرفوا الأمم بها ومن الذين تنكروا لها ووجهوا المسلمين التوجيه الذى انحرفوا به عن طريقه (محب الدين الخطيب) .

(٣)

كانت محاولة تطوير الأزهر التى تمت فى الستينات من أخطر التحديات فقد كانت خطوة بعد خطوات لإخراج الأزهر عن روحه الأصيل إلى منهج الدراسات الجامعية العصرية وأبرز نتائج هذا المشروع : هو ضياع الأسلوب الأزهرى القديم الذى كان قادراً على مواجهة شبهات المستشرقين ، ونقصان القدر الوافر من الفهم للفقه الإسلامى وللتراث الإسلامى وبذلك يمكن أن تضيع حكمة الشريعة مع القشور والملخصات التى تدرس فى كلية الشريعة أو غيرها .

والمعروف أن الدعوة إلى تطوير الأزهر بدأها ودعا إليه رجال التغريب أولا وكان الدكتور طه حسين من أشد هؤلاء حماساً فقد دعا إلى إلغاء المعاهد الدينية والتعليم الإسلامى الأولى وأن تكون الدراسات الإسلامية دراسات عليا تقوم على أساس المنهج العصرى للمدرسة التى تتبع وزارة المعارف وبذلك يتحقق هدف من أخطر أهداف الغزو الثقافى وهو القضاء على التعليم الدينى . وكان إلغاء المحاكم الشرعية مقدمة لهذا التطوير الخطير الذى استتبع إلغاء تخصص القضاء ، فلم يعد فى الإمكان تخريج قضاة المحاكم الشرعية .

وكذلك الأمر فى كلية اللغة العربية وأصول الدين فإن جميع المناهج قدمت مختصرة وتخلفت الكتب الأصلية التى تحمل الفكر الإسلامى بأبعاده العميقة وقضاياه وردوده على مختلف الشبهات .

* * *

الفصل الثالث
الجامعة

ارتبط تاريخ الجامعات العصرية فى العالم الإسلامى بالنفوذ الأجنبى فقد كان للعالم الإسلامى جامعاته ومعاهده الإسلامية : الأزهر والزيتونة والقرويين ومعاهد الحجاز والعراق وخوالى السودان ولكن الاستعمار سرعان ما أشرف على المدارس والمعاهد وصنع لها مناهجها التى فرغها من الإسلام والقرآن والحضارة والتاريخ الإسلاميين ثم أنشأ جامعاته ومدارسه العليا التى استقطب فيها كل من أمكن السيطرة عليه وتوجيهه من شباب المسلمين فكانت الجامعات الفرنسية والأمريكية التى أقيمت فى استانبول والقاهرة وبيروت وغيرها من المناطق . ونشأت كلية عليكرة تحت إشراف أولياء النفوذ الأجنبى فى الهند وغيرها . وهكذا أمكن للنفوذ الأجنبى السيطرة على الشباب فى الدراسات العليا وأمكن توجيههم إلى الولاء والعلمانية والإعجاب بالغرب وحضارته وفى كثير من الأقطار كانت هناك جامعتان : (أهلية) يسيطر عليها النفوذ الأجنبى و (أجنبية) يشرف عليها أساتذة هم فى ذات الوقت قسس ورهبان

وقد كان لهذه الجامعات دورها الخطير فى منافسة الجامعات الإسلامية فى أن تنتزع منه شبابه وطلبته ، على النحو الذى عرفناه فى تاريخ إنشاء الجامعة المصرية التى استقطبت عدداً كبيراً من شباب الأزهر واستطاعت أن تصنع منهم أدوات لمقاومة الإسلام وحربه :

وفى الجامعات العصرية نجد أن الدراسات فى مجالات العلوم والآداب كلها تستمد مراجعها من المناهج الأجنبية وتتجاهل تماماً الدور الذى قام به العرب والمسلمون فى هذه المجالات وكانت كلية الآداب هى أخطر هذه الكليات فقد وكل إليها الدور الأكبر فى عملية التغريب التى قامت بها الجامعات العصرية فى تلك المرحلة الخطيرة من تاريخ العالم الإسلامى . أما فى كلية العلوم والطب والهندسة وغيرها فإن هذه العلوم كانت تدرس على

أنها نتاج غربي خالص ودون أن يذكر للعرب والمسلمين أي دور في إنشاء هذه العلوم أو بنائها .

كان هدف الجامعات العصرية هو تغريب الفكر الإسلامي وتغريب الشباب المسلم في محاولة مضادة للدراسات الإسلامية التي يقوم بها الأزهر والزيتونة والقرويين والمعاهد الإسلامية القرآنية ، ذلك لأن مناهج هذه الجامعات قد خلت خلواً تماماً من كل ما يتصل بالإسلام والقرآن والسنة وتاريخ الإسلام وتدرس فيه مناهج اللغة والتاريخ على أسلوب غربي وتفسر تفسيراً ينتقص من مكانة هذا التاريخ ويركز على ما قدم من شبهات ، وبذلك استطاع النفوذ الأجنبي أن يخلق ذلك الازدواج الغريب أو التضاد العميق بين خريجي المعاهد الإسلامية والجامعات العصرية .

ولقد ارتفعت الصيحات منذ وقت باكر إلى تأصيل التعليم الجامعي ورده إلى أصوله الإسلامية وقدم كثير من الغيورين إلى الجامعات ووزارات التعليم مطالبين بأن يكون الروح الإسلامي هو عصب الدراسات الجامعية وأن يكون مادة أساسية في مناهج الدراسة في جميع الكليات الجامعية ، ودعت حركة اليقظة الإسلامية إلى أن يدرس الإسلام في الجامعات العصرية على أنه نظام اجتماعي رائد في الحياة وأنه لا سبيل لأمة عربية إسلامية أن تنهض إلا إذا استمدت منهجاً من أصولها الأصيلة وقيمتها الأساسية وتراثها الفكرى والروحى . كذلك فقد توالت الدعوة إلى إقامة دراسة خاصة للبنات في كلية الآداب على أساس أن الفتاة المصرية في مسيس الحاجة إلى التربية المعنوية والنفسية والروحية وأشارت هذه الأبحاث إلى أن المواد التي تدرس في كلية الآداب لا تتفق ومستقبل الفتاة باعتبار كونها أم المستقبل .

ولقد وجدنا عام ١٩٣٠ من تكشف حقيقة موقف الجامعات العصرية فيكتب (فتى العرب) يقول : أنشئت الجامعة فتهلل القوم في جميع أنحاء الشرق العربي وتفاءلوا منها خيراً وباتوا يعلقون عليها الآمال الطوال والأماني الكثيرة وما هي الاعشية أو ضحاها حتى حصحص الحق ووضح الصبح لذى عينين فتبين لهم أوكاد أن تلك الجامعة تبنت الآراء الشاذة التي يريدها الاستعمار الأوربي في الشرق وأنها إنما اتخذت آلة هدامة للكيان العربي عن طريق

الأدب والعلوم . وأعلن بعض القائمين على الجامعة الحرب على العرب والعربية لقد قامت على الدعاية عن أن مصر فرعونية بحتة ، وأن الآداب العربية واللغة العربية دخيلة بل ممثلة بقوة الفتح والدين فى الآداب المصرية واللغة الفرعونية ».

ولم تقف الجامعة عند هذا بل إنها احتفلت بمرور مائة سنة على ولادة الفيلسوف رينان الذى كان عدواً شديد العناد للإسلام فقد وصف العرب بأسوأ عبارات الانتقاص . وقد اختير الشيخ مصطفى عبد الرازق ليقرأ رسالة وجهها جمال الدين الأفغانى إلى رينان .

* * *

وقد كان من أخطر تعامل الجامعات أنها تناولت تاريخ مصر والعرب والشرق والحضارة الإسلامية من وجهة نظر أجنبية، بل من وجهة نظر استشراقية وعمد المستشرقون الذين استقدمتهم الجامعات إلى أن ربطوا بين العلوم وبين الحضارة الحديثة والغرب ، وقد كان التناول دائماً من مصادر التغريب ووجهة نظره وذلك حتى لا تستطيع هذه الجامعات أن تدفع أبناءها ليبنوا أمتهم على الأسس الأصيلة التى قامت عليها حضارتها وعقيدتها ، ولكن لتكون هذه الأمة تابعة للفكر الغربى وخاضعة للحضارة السائدة على ما فيها من انحراف وأخطاء ولذلك فقد شيدت هذه الجامعات على الطراز الأوربى ، وحيل بينها وبين أن يكون لها طابع عربى أو إسلامى ، بينما تجمع الجامعات فى الغرب بين قاعدة الدرس والمعبد ، وفى اكسفورد مثلا تسع عشرة كلية فى كل واحدة منها كنيسة والطلبة ملزمون بالتناوب على الصلاة فى أوقات معينة أما فى الشرق وبلاد الإسلام فقد قامت الجامعات بعيدة عن هذه الروابط الأصيلة بين العلم والدين الذى شاد لهذه الأمة فكرها وأنشأ منهج العلم التجريبى الذى عرفه الغرب وأقام عليه حضارته الحديثة .

وجاء وقت ظن القائمون على الجامعة أن هدف التعليم منها هو تشكيك الطلاب فى كل ما يتصل بالعروبة والإسلام ، أو من ظن أن التعليم الجامعى يجب أن يحرر المتعلم من كل عاطفة حب لهذه الأمة وهذه العقيدة .

وفى السنوات الأخيرة دخلت إلى الجامعات الدراسات الماركسية والمفاهيم الماركسية فى تفسير التاريخ وفى دراسات الاقتصاد والاجتماع فأصبحت

الجامعات لسان حال كل مذهب غربي أو ماركسي دون أن تقدم الفكر الأصيل الذى هي جديرة بأن تقدمه وهو الفكر الإسلامي العربي .

(٢)

أما الجامعة الأجنبية فقد كان دورها خطيراً فى مجال التعليم فقد نظمت عملها فى ضوء مخطط التبشير ، وعدلت فيه على النحو الذى يحقق هدفها دون الاصطدام بالواجهة الإسلامية ويقوم المخطط على إعلاء اللغة الأجنبية وتطبيق منهج التفسير المادى للتاريخ . وترويج دراسات الاستشراق عن الإسلام والقرآن والرسول واللغة العربية .

وقد إنبعثت من هذه الجامعات مخططات التبشير والغزو التى انبثت فى مختلف أجزاء البلاد وإذاعة المحاضرات التى تتناول المفاهيم العلمانية المضادة للدين بصفة عامة . كذلك فإن مجموعة الكتب التى كانت توضع بين أيدى الطلبة المسلمين كانت تحمل كثيراً من الشبهات حول الإسلام وتاريخ الإسلام وتاريخ الرسول .

وقد وجدنا الجامعة الأمريكية فى بيروت بعد أن سارت خمس عشرة سنة تعلم كل شيء باللغة العربية ، لم تلبث أن ألغت هذا النظام واستخدمت اللغة الإنجليزية لغة للتدريس بها ، وكذلك وجدنا جامعة الجزائر تعلم بالفرنسية ومعهد الدراسات العليا فى تونس والجامعة الأمريكية فى القاهرة وكشفت كثير من الخطب التى كانت تلقى فى الاحتفالات السنوية العامة عن أهداف هذه الجامعات فى خلق أجيال من الشباب المثقف على ولائه بالغرب وإيمان بحضارة الغرب وانحياز تام للأمم التى أقامت هذه الجامعات وذلك لتكون معدة لتولى أكبر المناصب فى بلادها بعد تخرجها حتى يكون النفوذ الأجنبى بمأمن من خصومه الوطنيين .

وحينما نجرى دراسة واسعة للمعاهد والجامعات الأجنبية نجد أن بعضها على ولاء فرنسي أو ولاء إنجليزى أو ولاء أمريكي . وهذا الولاء القومى يتبعه ولاء دينى فهو مرتبط بالكاثوليكية فى جامعات فرنسا وبالبروتستانية فى جامعات إنجلترا وبالصهيونية فى الجامعات الأمريكية .

ولقد تبين أن هذه الجامعات لم تعمل يوماً واحداً على تقديم العلم الحديث

للعرب والمسلمين وإنما هدفت إلى تقديم الفكر الغربى السياسى والعلمانى ومحاولة صياغة الشباب فى إطار القوميات الغربية ومفاهيم الدمقراطية الغربية والاستهانة بالشرق والعرب والإسلام والإعجاب بأساليب الغرب المتحررة فى إنكار القيم الدينية والالتزام الأخلاقى . ولقد كان لهذه الجامعات آثارها البعيدة فى ترويج المفاهيم القومية الضيقة والإقليميات والوطنيات لتمزيق وحدة الفكر بين الطلاب العرب والمسلمين .

يقول الدكتور نبيه أمين فارس فى بحث له عن الجامعة الأمريكية فى بيروت (مجلة الأبحاث فى آزار ١٩٥٨) إن الجامعة الأمريكية تجابه اليوم ظروفاً لم تكن معروفة فى العالم العربى من قبل ، إنها حرب فكرية فهناك عدد من المذاهب السياسية تتنافس فى سبيل الاستيلاء على عقول الطلاب واستخدام ولائهم . مستخدمة الصحافة ومحطات الإذاعة والكلمة المكتوبة والكلمة المهموسة والتملق والتزلف والوعد والوعيد وضغط الرأى العام ، مستخدمة كل وسيلة شريفة وغير شريفة ، هذه هى حقيقة المعركة التى تحتدم للاستيلاء على الوجدان العربى . وعلى الجامعة أن تدرك أنها فريق فى الحرب ، وكل طالب من طلاب الجامعة معرض للمعلومات وفى أغلب الأحيان للأراجيف التى تقدمها على أقل تقدير ست وثلاثون صحيفة يومية عربية محلية واثنتا عشرة صحيفة عربية ترد لبنان من الخارج وهو هدف لسبع وعشرين محطة إذاعة تذيع برامجها باللغة العربية وهناك حوالى العشرين من الأحزاب السياسية المتنازعة تسعى كل منها لجره إلى صفوفه وكسب ولائه لبرنامجها ، وهو إلى ما تقدم الزبون المفضل لأكثر من أربعين داراً من دور النشر التى تستخدم آخر ما بلغه فن الإعلان من طريق الدعاية والتشويق . كتب قيمة وكتب مبتذلة وكتب طيبة وأخرى خبيثة . كيف تعالج الجريمة . كيف تبحث فى الجنس . كتب مليئة بالأكاذيب وكتب تطفح بالحقد » .

وهكذا نرى أن الجامعات الأجنبية تجد المادة لصياغة الشباب المسلم العربى لتخرجه من قيمه ومفاهيمه ولتدفعه كارهاً إلى تيارات شديدة التأثير عليه . والهدف هو أن تجعله من أهل الولاء للفكر الذى تتبعه هذه الجامعة وتعمل على بثه فى المجتمع الإسلامى وخلق التبعية لهذه الأمة التى تتولى أمر الجامعة .

وإذا كانت الجامعة الأجنبية تعلن أنها مفتحة الأبواب لكل الناس على اختلاف ظروفهم وطبقاتهم دون اعتبار للون أو التابعية أو الجنس أو الدين سواء أكان أبيض أم أسود أم أصفر ، وسواء أكان مسيحياً أم يهودياً أم محمدياً أم وثنياً وسواء دخل هذه الكلية وخرج منها مؤمناً بإله واحد أو بآلهة عديدين أو غير مؤمن بأى إله [وذلك على حد تعبير دانيال بلس مدير الجامعة الأمريكية فى بيروت عام ١٧٨١] فإن هذا ليس مما يبعث الأمان بل إنه على العكس يبعث الخوف الشديد .

ذلك أن هذه الجامعات سرعان ما دعت تلاميذها إلى شهود الصلوات اليومية وإن أعلنت فى أكثر من مناسبة تهاونها بشأن الدين عامة فتجد أن رائدها يحاول أن يقلل من شأن الدين ويرى أنه كان من قبل (القضية التى تشغل تفكير الناس) أما اليوم فقد ضعف المركز الذى يحتله الدين وأن المذاهب السياسية هى التى تشغل تفكيرهم فى الدرجة الأولى .

ويرى الدكتور واطسون رئيس الجامعة الأمريكية فى القاهرة يعلن : أن المعتقدات الدينية لم تعد ملائمة للعصر الحاضر ، بل إن واطسون يذهب إلى أبعد من هذا خصومة للإسلام فى بلد الإسلام فيقول إن الإسلام يأخذ فى الانحلال ويعلن فى جرأة ما يؤكد استمرار هذه الجامعات بالرغم من ادعائها العلمانية فى مهمة التبشير فيقول « نحن نسر حين نستطيع أن نجعل فتى مسلماً يقبل مبادئ المسيحية ووحى المسيح » (السياسة اليومية — ١٠ يوليو ١٩٣٣) .

والواقع أن هذه الجامعات قد تخلت عن فكرة التبشير التقليدية ولكنها اتخذت لذلك أساليب أشد عنفاً حين تصنف الشباب المتعلم فتقول : سواء أكان ديمقراطياً أم فاشياً أم شيوعياً سواء أكان قومياً عربياً أم قومياً سوريا أم كتائبياً لبنانياً .

وهذا يعنى أنها توزع الشباب العربى على هذه المذاهب والدعوات وتشجعه على هذا التمزق . وترى أنه يمكن أن يكون كل شيء إلا أن يكون « عربياً مسلماً » .

وقد أشار نبيه أمين فارس إلى أن الجامعة الأمريكية فى بيروت :

هى فى وقت واحد مسيحية وأمريكية وعربية يقول : فهى مسيحية من حيث إنها كانت ولا تزال تعبيراً حياً عن الخدمة والتضحية المسيحية ، ومن حيث سعيها لخدمة الله عن طريق خدمة عباده ، وهى أمريكية ليس فقط من حيث كون معظم ماليتها أمريكية وإنما لكونها التعبير الحى عن خير ما فى التراث الأمريكى من مثل عليا أساسها خدمة المجموع وأن لأمريكا رسالة يجب عليها تحقيقها فى أقطار الأرض جميعاً ، ثم إن الجامعة عربية ليس فقط من حيث أنها تقوم فى بلد عربى وإنما لأنها كرست حياتها لهذه الغاية النبيلة ألا وهى :

(لكيما يكون للعرب حياة ولكيما تكون حياتهم أفضل) .

وهكذا نجد أن مفهوم الجامعة الأجنبية : هو أن يكون العربى المسلم ممزق الولاء بين دين غير دينه وأمة غير أمته وأن لا يكون لأمته منه إلا ما يمكن أن يناله من علم ومن أدرى هؤلاء أن هذه التبعية تجعل للعرب حياة وأن توصف هذه الحياة بأنها حياة أفضل ، وقد انطوى من هذه الحياة أعز مقوماتها من عروبة وإسلام ولغة عربية وتاريخ وتراث !

ويقول نبيه أمين فارس : إن الجامعة تعمل على حفظ تراث البشر الحضارى من جيل إلى جيل ، ونحن نعرف أن هذا التراث البشرى الذى تقوم عليه الجامعة لا يمثل العرب والإسلام من قريب أو بعيد ولكنه يمثل شتات الركام البشرى الذى جمعته الأساطير والفلسفات وأهواء البشر ، وتفسيرات الأديان مما يتعارض مع مفهوم الإسلام ويحاول أن يطرح فى أفق الفكر الإسلامى القائم على نص موثق أصيل شبهات وفكر جامع . تلك الوثنيات الإغريقية واليهودية التلمودية التى لم تقدم للبشرية إلا المفاهيم المادية ودعوات الانحلال والفساد هذا التراث الذى تحاول أن تحييه الماسونية وبروتوكولات صهيون وهو عصارة التلمود مصاغاً فى مناهج حديثة لها طابع علمى زائف براق .

ومن أخطر التحديات التى وجهت التعليم الجامعى فى العالم الإسلامى متابعة الجامعات العصرية مناهج الجامعات الأجنبية وتطبيق مناهجها ، على النحو الذى سارت عليه الجامعات العربية فى اعتماد أساليب ومفاهيم ووجهات

نظر لا تمثل الفكر الإسلامى ولا الأمة العربية ومنها تدريس اللغتين اليونانية واللاتينية مع متابعة للولاء الغربى وتسميمها لأفكار الشباب العربى المسلم بمفاهيم وقيم تجاوزها الزمن ولم تعد هناك حاجة إليها .

ولقد أشارت التقارير التى أعدتها جهات التبشير والاستشراق إلى ضرورة إنشاء جامعة أجنبية فى القاهرة قلب العالم الإسلامى لتكون مواجهة للأزهر الشريف ودارت دراسات كثيرة عام ١٩١٦ وقدم عدد من رجال الإرساليات الأمريكية تقريراً يتضمن أن القاهرة مركز استراتيجى هام لمثل هذا المشروع ، يقول وطسون : لماذا كانت القاهرة مركزا لهذه الحضارة وكيف أن الأزهر له قيادته الفكرية والإسلامية فى العالم العربى ، وقال إن شهادة منه بين العرب توازى شهادة الدكتوراه فى أكسفورد أو باريس أو هارفارد ثم يقول : إن القاهرة هى مركز الصحافة العربية ، وأن أكثر من مائة مليون نسخة من المجلات والجرائد تصدر سنوياً من القاهرة وأن مصر بها اللغة العربية الفصحى التى تعد لغة جميع الدول العربية ، وعلى هذا الأساس استقر الرأى على إنشاء الجامعة بالقاهرة (جرجس سلامة : تاريخ التعليم الأجنبى فى مصر) .

وسرعان ما تكشفت أهداف الجامعة الأمريكية الخفية حين وقف عبد القادر الحسينى فى الاحتفال السنوى ١٩٣٢ بتوزيع شهادات الجامعة ، فقال : إن هذه الجامعة التى تظهر أمام الناس فى مظهر المدرسة العالمية ولكنها فى الحقيقة تعمل على إفساد العقائد الدينية وهى تطعن فى الدين الإسلامى ، وأن الجامعة الأمريكية التى ادعت أنها علمية محضة وليس لها أدنى علاقة بحوادث التبشير ، ليست كذلك والدليل أن رئيس الجامعة الدكتور شارلز وطسن مبشر ووالده مبشر ومن سلالة مبشرين وإنى استشهد على ذلك بكتابه المسمى (حروب صليبية مسيحية فى مصر) ويعنى بهذه الحروب : الحملة التبشيرية ويقول فى كتابه : إن للمسلمين طقساً دينياً هو أساس الإسلام : هذا الطقس هو الحج ، يجب على كل مقتدر أن يؤديه وهو عبارة عن الذهاب إلى الكعبة حيث تقوم طقوس دينية ، هذا المكان : الكعبة قلب العالم الإسلامى وكر لصوص ولكنه يجعل بين المسلمين رابطة متينة .

وهناك الدكتور جوفرى : مدرس اللغات الشرقية ، وهو معهد لتدريب المبشرين وتعليمهم اللغة وكيفية مهاجمة الإسلام مهاجمة علمية فنية ويليه المستر مولر . قال الدكتور جوفرى فى أحد عظاته وعنوانها (النبى الكاذب) إن محمداً لا يمكن أن يكون نبياً لأن مستوى أخلاقه كالرجل العادى . كما حاول أن يقنعنا أن القرآن ليس من كلام الله كما أنه ليس كله من كلام محمد . هذا عدا ما يلقونه من الدروس اليومية التى يسمونها علم الأخلاق وفلسفة الديانات وعلم النفس وعلم الاجتماع من الافتراءات مما لا يتلفظ به مسيحى فالإسلام فى رأيهم دين وحشى بربرى يحض على القتال ولن يرتقى الشرق ويسعد حالا إلا إذا تخلص من هذا الدين » .

* * *

الفصل الرابع
التربية الإسلامية
هي الإطار الحقيقي للتعليم

إن قضية التربية فى العصر الحديث هي واحدة من أكبر القضايا وإنها بالنسبة للمسلمين من أكبر التحديات التي تواجه مجتمعهم اليوم بأشد الأخطار بل لعله ليس من المبالغة أو التزيد أن يقال إن أقسى التحديات التى تواجه المجتمع المسلم اليوم : هى تلك التبعية لمناهج التربية الغربية وانحسار منهج التربية الإسلامى إلى عدد قليل من الأقطار . وقد كشف أسلوب النقل ، أو الاقتباس من البرامج الغربية عن نتائج خطيرة أخرت سير حركة اليقظة الإسلامية وحالت دون قدرة المسلمين على امتلاك إرادتهم ، وإقامة مجتمعهم الربانى . سنوات طويلة ، حتى جاءت النتائج الخطيرة كاشفة عن هذا السر الخفي ، عندما وقعت أحداث النكبة والنكسة والسيطرة المثلثة : الاستعمارية والصهيونية والماركسية على أجزاء من العالم الإسلامى كرأس جسر لتغريب هذه الأمة وحجبها عن منهجها القرآنى الأصيل ، والحيلولة بينها وبين اقتعادها مكانها الصحيح الذى تؤهلها له مقدراتها وحجمها ومكانها الاستراتيجى وتفوقها البشرى وامتلاكها للثروة فضلا عن تاريخها الحافل وتراثها الضخم ودورها الواضح فى بناء الحضارة البشرية حين قدمت المنهج العلمى التجريبى الذى يقوم عليه التقدم المعاصر كله .

ولقد ظلت الأجيال السابقة التي واجهت الاستعمار أن التماسها أساليب الغرب فى التربية والتعليم ربما حقق لها القدرة على الوصول إلى ما وصل إليه من ثقافة وعلم وقوة وتمكين . ولكن ذلك لم يكن إلا وهماً وخطأ سرعان ما كشفت الوقائع عن فساده ، ذلك أن أمة من الأمم لن تستطيع أن تبنى نفسها أو تجدد كيانها إلا إذا استمدت ذلك من جذورها وأصولها ومصادرها الأولى ومنابعها الحقة التي شكلتها أول الأمر ، ومنذ جاء الإسلام وبنى هذه

الأمة فكرياً وروحياً واجتماعياً وأخلاقياً فإن هذه الأمة لن تستطيع أن تجد فى أى منهج آخر سبيلها إلى اليقظة والنهضة إذا أكثرتها الأحداث . بل إن عدوها الذى انتهز فرصة غفلتها فسيطر عليها لا يمكن بحال أن يقدم لها ما يمكنها من التحرر من قبضته .

ولذلك فقد عمد أول ما عمد إلى هدم ثلاث دعائم من كيانها تلك هى : حجب الشريعة الإسلامية فى نظام الحدود ، وتغيير نظام الاقتصاد بفرض الربا . ثم كانت خطته الماكرة فى تغيير مناهج التربية والتعليم وإخراج القرآن والإسلام من هذا البناء الثقافى الفكرى وتفريغه من روح الإيمان بالله ومنهج التكامل والترابط بين القيم وأخلاقية أسلوب الحياة . وحشوه بروح المادية والتمرد على الله والثورة على القيم الروحية والخلقية وعبادة الجسد والمادة .

كان هذا هو الخطر الخطير والتحدى الشديد الذى بدأ به النفوذ الغربى تعامله مع المسلمين حين أقام مدارسه ومعاهده وإرسالياته ثم فرض هذه المناهج على التعليم القومى الذى كان يشرف على إعداده بواسطة رجاله أمثال دنلوب فى مصر ومثيله فى سوريا والمغرب والعراق ، من أجل إنشاء ما أسماه كرومر : تلك الأجيال المؤمنة بالغرب المستسلمة له ، أولئك المتفرنجون الذين أعدهم ليمتلكوا إرادة النفوذ فى مختلف دوائر السياسة والثقافة والتربية والتعليم.

ولقد كانت لتلك الإرساليات (على اختلاف مذاهبها) دورها الخطير فى تنشئة أجيال متعددة ، فى العالم الإسلامى ، تابعت منهج الغرب ، وحجبت منهج الإسلام حتى جاءت النتائج بعد أكثر من سبعين عاماً لتدق الأبواب كاشفة عن أثر ذلك الخطر الخطير فى ذلك التمكن الذى أتيح للصهيونية وللماركسية وللنفوذ الاستعمارى على حواشى هذا الوطن وفى قلبه الحى : فلسطين وبيت المقدس .

(٢)

يقول هاملتون جب المستشرق الإنجليزى فى تصوير أثر منهج التربية الغربية فى العالم الإسلامى .

« لقد استطاع نشاطنا التعليمى والثقافى عن طريق المدرسة العصرية والصحافة أن يترك فى المسلمين ولو من غير وعى منهم أثراً يجعلهم فى مظهرهم

العام « لا دينيين » إلى حد بعيد ولا ريب أن ذلك خاصة هو اللب المثمر في كل ما تركت محاولات الغرب لحمل العالم الإسلامي على حضارته من آثار » .

هذه هي ثمرة خطة الاستعمار عن طريق التبشير بالمدرسة والاستشراق بالفكرة المسمومة ، هذه الخطة التي ركزت تركيزاً شديداً على التعليم : ذلك أن التعليم كان هو المنطلق الحقيقي لخطة الغزو الثقافي ومازال . وسيظل إلى وقت طويل ما لم يتدارك المسئولون المسلمون هذا الخطر ويعملون على إيقاف السيطرة الأجنبية الواضحة الأثر على التعليم في مختلف مجالاته ومختلف بيئاته ، ذلك أن القول اليوم بتوحيد مناهج التعليم العربية — على ما بها من تبعية وأخطار ومزالق وسموم ما تزال — مسيطرة على جوانب كثيرة من أساليب الدراسات والتعليم هو أخطر كثيراً من الأثر الذى تحقق فعلا في الأجيال الماضية ، ذلك أن الاستعمار كان يتخذ في كل قطر من الأقطار أسلوباً معيناً من التعليم يستهدف به :

أولا : عزل هذا القطر عن أمته العربية ثم عزله عن العالم الإسلامي كله .

ثانياً : الحيلولة بينه وبين الارتباط بالجذور التاريخية والأدبية واللغوية بادعاء أن العصر الحديث بدأ بحملة نابليون وأن هذا العصر منفصل تماماً عما قبله مما أطلق عليه زيفاً « عصر الانحطاط » عملا على إيجاد شعور نفسي بالكراهية والانسلاخ من الماضي كله .

ثالثاً : بعد عزل القطر (إقليمياً) عن أمته العربية الصغرى وأمته الإسلامية الكبرى وعن أصول فكره الإسلامي القرآني الممتد وراء أربعة عشر قرناً تقوم الدعوة إلى إحياء التاريخ الإقليمي الفرعوني والفينيقي والأشوري والبابلي وغيره ، ثم الارتباط بالغرب وحضارة الغرب وعظمة الغرب وبطولاته وأمجاده . بدعوى أن هذا الغرب هو صاحب الحضارة التي تقهر ، وممدن الشعوب المتأخرة إلى آخر هذه الزيوف والأضاليل .

رابعاً : إعلاء العامية على اللغة الفصحى والاهتمام باللهجة الإقليمية وما يتصل بها من حكايات وفلكلور ، وأزجال وموال وغيره إغراقاً في العمق الإقليمي ، وحيلولة دون الامتداد الطبيعي للأمة .

خامساً : إعلاء اللغة الأجنبية (الإنجليزية أو الفرنسية) على اللغة العربية والدعوة إلى تعلمها بحجة أنها لغة الحضارة ثم السيطرة عن طريقها فكرياً على المثقفين الذين يوجهون بعد ذلك إلى الاعتماد على فلسفات ومفاهيم الغرب .

هذه كانت خطة التعليم العامة مع تغييرات يسيرة تختلف بها المنهج من قطر إلى قطر ، ولكن الهدف في الجملة واحد ، هو ازدراء الوطن والقوم والفكر العربي الإسلامي كله ، والالتفات نحو الغرب صاحب الحضارة المستعمرة وبطولاته وأمجاده .

وقد امتدت هذه الخطة بعد انتهاء الاحتلال وكانت قد أنتجت ثمارها في تلك التشكيلات الفكرية المختلفة ، التي فرقت الأمة شيعاً والتي ارتبطت بولاءات مختلفة مع هذا المعسكر أو ذاك ، ومع هذه الثقافة أو تلك . وقد ركزت المناهج في المرحلة الاستقلالية على الوطنية والإقليمية ، وامتدادها السابق على الإسلام وبقي جوهر الخطة التعليمية كما هو فظلت هذه المناهج توحي بشبهات وأخطاء واضحة :

• من هذه الأخطاء القول بأن الإسلام دين عبادة لا صلة له بالمجتمع ولا بالدولة .

• القول بأن مخططات الاستعمار والتبشير الأولى في أفريقيا هي كشوف علمية .

• التاريخ الإسلامي لا يزيد عن أن يكون خلافات بين الحكام وصراعاً على الملك . بين الأمويين والعباسيين والعلويين .

• تغليب مفاهيم الفلسفة الغربية المادية بما فيها من شكوك ومادية ومفاهيم متعارضة مع الفكر الإسلامي ، بما يرجع في النفس الشبهات والقلق وبوادر الإلحاد .

• نسبة كل مناهج العلوم إلى الغرب وإنكار دور المسلمين الواضح فيها بما يصور للطالب المسلم أن المسلمين عالة على الأمم وأنه لم يكن لهم دور في بناء هذه العلوم .

• سيطرة نظريات المدرسة الاجتماعية والتحليل النفسي والوجودية على علوم النفس والأخلاق والاجتماع والتربية وكلها تقوم على الفكر المادي .

• دراسة العلوم السياسية والاجتماعية والاقتصادية دون بيان وجهة نظر الإسلام فيها .

هذه بعض مناقص ومحاذر المناهج التعليمية القائمة في المدارس والجامعات في مختلف بلاد العالم الإسلامي والتي لم تتغير مطلقاً .

فإذا جاءت اليوم الدعوة إلى توحيد مناهج التعليم فإنها ستجعل مثل هذه المحاذير أخطاراً عامة تشتمل البلاد العربية كلها ومنها الأقطار التي لم تتصل من قبل بمناهج الإرساليات التبشيرية أو تسيطر عليها مناهج التعليم الغربية الدنلوبية وغيرها ومن هنا فإننا نواجه فعلا ما يمكن أن يسمى (أزمة التربية والتعليم) وهي جديرة بالبحث والعمل الجاد في سبيل تحرير مناهج التعليم من أخطار المفاهيم التي بثها الاستعمار وأراد بها السيطرة على العرب والمسلمين بإكراههم على انتقاص تراثهم وتاريخهم ودينهم وقيمهم والإعجاب والتقدير والإعلاء المغرض للتاريخ الغربي وحضارة الغرب وفكره . واعتبار المناهج التي تدرس في كليات العلوم والطب وغيرها وكأنها من نتاج الفكر الغربي وحده . مع أن أصولها الأولى هي من نتاج الحضارة الإسلامية مع الإضافات التي قدمها العصر الحديث .

كذلك فإن النظريات الخاصة بعلوم النفس والأخلاق والاجتماع والسياسة والاقتصاد إنما تدرس على أنها (علوم) وهي في الحقيقة نظريات قامت على أساس فروض فرضها الباحثون والفلاسفة في بيئات معينة واستجابات لتحديات معينة وفي عصر معين . ومن هنا فليست لها (أولا) صفة الحقيقة العلمية التي لا تنقض و (ثانياً) ليس لها صفة العالمية ذلك لأن لكل أمة قيمها وعقائدها ومفاهيمها في مجال العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية .

وإذا نظرنا إلى ما قاله (هاملتون جب) قدرنا تماماً مدى الخطر الذي أحاط بالمسلمين خلال القرن الماضي منذ سيطرت قوى الاستعمار ومن ورائها قوى الاستشراق والتغريب والغزو الثقافي وأدواتها معاهد التبشير وجامعات الإرساليات بمختلف صورها : أوربية وأمريكية : كاثوليكية وبروتستانية

ومن ورائها الفكر التلمودى ، والاستشراق اليهودى الذى يستهدف غايات أخرى تختلف عن الغايات التى يطمع فيها الاستعمار والتى تقوم أساساً على مصدر واحد هو حرمان هذه الأمة الإسلامية من تطبيق شريعتها الإسلامية كمنهج حياة ، والحيلولة دون استمرار ثقافتها وتربيتها وتعلمها من مناهج القرآن الكريم .

(٣)

ويمكن القول اليوم : إن التعليم مصدر كبير للغزو الفكرى وسبب بارز من أسباب تخلف المسلمين وقد انتقلنا فى السنوات الأخيرة إلى الاعتراف بهذه الحقيقة وخفت رياح التهافت على التعليم الغربى . وبقى أن ندخل فى المرحلة الحاسمة وهى النظر إلى هذه المناهج نظرة علمية وواقعية تضع علوم الغرب ونظرياته موضع الفحص والدراسة وتكشف عن الفروق العميقة بين وجهة نظره وبين وجهة نظر الفكر الإسلامى وكيف نجد أن معطيات الإسلام أكثر إيجابية وسلامة وقوة ليس للمسلمين وحدهم ولكن للبشرية كلها هذا على حد تعبير العلامة السيد أبو الحسن الندوى فى مهرجانه القريب الذى دعا فيه إلى إقامة التعليم فى إطار التربية الإسلامية . والعمل على تغيير نظام التعليم تغييراً جوهرياً يلائم طبيعة الأمة الإسلامية انطلاقاً من مبدأ واضح صريح هو أن عملية التربية فى أى أمة وبلاد ليست بضاعة تصدر أو تستورد كالمواد الخام وإنما هى لباس يفصل على قائمة الشعوب وملامحها القومية وتقاليدها الموروثة . وآدابها المفضلة وأهدافها التى تعيش لها وتموت فى سبيلها . وأن التربية ليست إلا وسيلة راقية مهذبة لدعم العقيدة التى يؤمن بها شعب أو بلد وتغذيتها بالاقتناع الفكرى القائم على الثقة والاعتزاز وتسليحها بالدلائل العلمية إذا احتيج إليها ووسيلة كريمة لتخليد هذه العقيدة ونقلها سليمة إلى الأجيال القادمة أ . هـ .

(٤)

وإذا كنا نرى أن نتائج نظام التربية الغربى الوافد واضحة فى تكوين هذه الأجيال الممزقة المضطربة القلقة نفسياً المأزومة فكرياً فى بلادنا فإننا نجد أن الغرب نفسه قد أخذ يعلن فساد هذا النظام الذى حمل لواءه الفيلسوف

ديوى والذى وجد صدى عميقاً فى البيئات الإسلامية والعربية ، فقد نشرت مجلة تايم نيو مجازين فى ٣١ / ٣ / ١٩٠٨ بحثاً ضافياً أشارت فيه إلى فشل نظرية ديوى القائلة بأن الله والفضيلة كلها غايات قابلة للنقاش والجدل ومن ثم فلا جدوى من مناقشتها وفى مكانها يجب أن تحل غاية أخرى هى : « الانسجام مع الحياة » وقال الكاتب إن الطلبة قد انقطعت صلاتهم بتقاليدهم وأن هناك حاجة كبرى إلى التفكير فى الأهداف السليمة للتربية وأنه لابد أن يكون هدف التربية الأول هو تزويد الفرد بثقافة صحيحة تقنعه بأن هناك تاريخاً وأهدافاً وراء هذه التربية » .

ولا ريب أن الفصل بين التربية والعقيدة والأخلاق إذا صلح كمنهج فى الغرب فإنه لا يصلح فى العالم الإسلامى والأمة العربية لأنه يتعارض مع « تكامل » منهجها فى الحياة ونظامها الربانى الجامع .

ومعنى عزل الدين أو الأخلاق عن التربية هو بناء شخصية هشة طرية لا تمتلك القدرة على حمل أمانة المجتمع ومسئولية الأمة .

ولا تكون قادرة على مقاطعة العدوان أو مواجهة وسائل الإغراء أو مؤمرات القضاء على كيان العالم الإسلامى .

وعندما نستقصى مناهج التربية فى العالم كله فلن تجد منهجاً فيها حظى بما يحظى به برنامج التربية الإسلامية من التكامل الجامع ومن الاستعلاء على أهواء البشرية ويتمثل هذا التكامل فى خصائص خمسة :

أولا : الجمع بين الماضى والحاضر والمستقبل .

ثانياً : الجمع بين الروح والجسم والعقل .

ثالثاً : الجمع بين التربية للفرد والتربية للمجتمع .

رابعاً : الجمع بين الغايات القومية الوطنية والغايات الإنسانية .

خامساً : الجمع بين أنواع التربية دينية وخلقية وعقلية .

ويقوم هذا المنهج على التوازن والمواءمة فلا تطغى فيه ناحية من النواحى على ناحية أخرى ويكون به الفرد فردياً واجتماعياً ، لا تطغى فرديته على جماعيته ، وبها يقوى استقلاله الذاتى وتفتحه الروحى والعقلى معاً ، وينتقل

من الأنانية إلى الغيرية ومن الاهتمام الشخصى إلى التضحية للمجموع . إنه إعداد الفرد لذاته ومجاوزة ذاته فى نفس الوقت . وبذلك ينتقل الإنسان من أهوائه إلى الحق ، ومن الحيوانية إلى الإنسانية ، ومن البشرية إلى الربانية فيكون قابلا للارتفاع فوق المطامع والشهوات متجهاً إلى الارتفاع : « ولو شئنا لرفعناه بها » .

إن التربية الإسلامية تحقق للإنسان مفهوم الحرية الصحيح : التحرر من الأهواء والغرائز والنزوات . وذلك عكس ما ترمى إليه التربية الغربية التى تقصر الإنسان على الاستجابة للأهواء .

والتربية الإسلامية تهدف إلى بناء الشخصية بالقرآن والتاريخ والقدوة الطيبة وبناء الشخصية بناء أخلاقياً دينياً عقلياً هو أساس بناء المجتمع ومصدر القوة فى مواجهة كل تحديات الغزو الخارجى .

وأبلغ مظاهر التربية الإسلامية : التزكية : تزكية النفس . والتزكية تعنى تنقية الروح .

الأخلاقية ونزعات الخير وفق القاعدة القرآنية :

« ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها » .

وأبلغ ما تصل إليه التزكية : تربية الواعز النفسى القائم فى أعماقها كالديدبان اليقظ يدعوها إلى الخير وردها عن الشر ، ويشكل الإرادة الحية القادرة على الامتناع عن الشر والاندفاع إلى الخير وفق قاعدة الرسول الرائعة :

« طوبى لعبد جعله الله مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر »

وليس أصدق من حاجة الأمة الإسلامية إلى بناء مناهج التعليم فى إطار التربية الإسلامية ذلك أن التعليم هو تزويد الفرد بمجموعة من المعارف والخبرات والمهارات ، وما لم تكن هذه العلوم حية ومتحركة فى إطار تربوى أخلاقى دينى عقلى سليم فإنها تفقد وجهتها ولا تكون عاملا من عوامل البناء والتقدم فى الطريق الصحيح .

لقد أعدت التربية الإسلامية المسلم بأمرين جهلتهما التربية الحديثة

وعجزت عنهما نتيجة لمصادرها المادية وهما قوام الحياة الحقة على هذه الأرض وأساس بناء الإنسان الرباني تلكما هما :

أولا : الإرادة والمسئولية الفردية حتى يعرف الإنسان أنه قادر على أن يختار بين الخير والشر والحق والباطل وأن يمضي مع موكب الحياة ويضع لبنات جديدة في ذلك الصرح الحضاري الإنساني وبدون هذه الإرادة والمسئولية الفردية لا يكون الجزاء الدنيوي والأخروي بعد البعث والنشور . هذه المسئولية قائمة على غاية هي الجزاء ، ثواباً وعقاباً وبدون هذا لا يستقيم عمل الإنسان ولا يعتصم في دائرة التقوى من شر الأهواء والمطامع .

ثانياً : الالتزام الأخلاقي : الذي يحيط بالإنسان وعمله إحاطة السوار بالمعصم فيدفعه دائماً إلى الطريق الصحيح والشريف ويحميه من أخطار المعصية والخطيئة والفساد والانحلال والإباحية ويجعله إنساناً قوياً قادراً على مواجهة كل خطر والوقوف في وجه كل عاصفة .

ومن خلال هذين السلاحين الماضيين رسمت التربية الإسلامية طريقها الحق في بناء الإنسان لنفسه رجلا معتصما بالإيمان بالله عن الخطأ والفساد وعاملا لأسرته وجماعته دون أن تجرفه الأنانية الطاغية فهو بذلك يكون قادراً على حماية عقيدته ووطنه وأمته من كل ما تتعرض له من تحديات وأخطار سواء كانت في مجال الأرض أم مجال الفكر ، أما حين تخلو التربية الحديثة الوافدة في العالم الإسلامي من قيم العقيدة والأخلاق فإنها لن تكون إلا تبعية شائنة لأهواء الحياة وأخطاء المجتمعات وذلك هو ما قصدت إليه القوى المتربصة بالإنسانية الشر الراغبة في تدمير المجتمعات قبل السيطرة عليها .

وبعد فان الخطر الحقيقي الذي واجهته الأمة الإسلامية إنما بدأ من التعليم وإن اليقظة الحقيقية إنما تبدأ منه . لقد حجبت القوة الاستعمارية منهج الإسلام في التربية وأقامت نظاماً إزدواجياً خطيراً مزق الأمة ودمر فكرها وأنشأ تلك التحديات الخطيرة ، فالأسلوب الصحيح اليوم هو أن تعود الأمة الإسلامية كلها إلى أسلوب التربية الإسلامية أساساً في السنوات الأولى

ثم يتفرع منها التعليم المدنى زراعياً أو تجارياً أو صناعياً ، أو ثقافياً عاماً . وهذا هو ما يسمى بالتعليم الأصيل ثم (ينبثق) منه التعليم المتخصص وأن يقوم منهج التعليم كله فى إطار التربية الإسلامية الجامعة المتكاملة .

(٥)

وبعد فإن تلك المحاولات التى ترمى إلى ترقيع التعليم المدنى الوافد القائم الآن بإدخال ما يسمى مادة الدين إنما هو عمل ناقص ، ومحاولة باطلة لإطالة أمد المنهج الوضعى الاستعمارى ، إن الإسلام ليس مادة الدين التى تدرس فيها بعض آيات وأحاديث وصلوات . إن الإسلام هو مادة كل المناهج والعلوم والدراسات : اللغة العربية وعلم النفس والأخلاق والاجتماع والسياسة والاقتصاد والقانون .

وهو روح كل الدراسات فى المدرسة الأولية والوسطى والإعدادية والثانوية جميعاً .

ذلك أن الإسلام ليس ديناً بمفهوم الدين الغربى ولكنه منهج حياة ونظام مجتمع والدين جزء منه . ولن تستطيع هذه الأمة أن تحقق وجودها وتمتلك إرادتها مالم تتحرر من النفوذ الغربى من مناهج التربية والتعليم التى صنعت أجيال الهزيمة والنكسة والانهيار والتدمير ، ولابد مع التماس منابع الإسلام فى الاقتصاد الإسلامى والشريعة الإسلامية أن تكون هناك تربية إسلامية أصيلة .

نحن نعرف أن التربية والتعليم والثقافة هى وجوه ثلاثة لحقيقة واحدة وأن ازدواجية التعليم وازدواجية الثقافة هى أخطر الرياح الصفراء العاتية الآن فى وجه الإسلام الحق : المدرسة والبيت والصحيفة والكتاب والجامعة كل هؤلاء مدعوون لبناء منهج تربوى جديد قوامه تكامل التربية الإسلامية روحاً وعقلا وجسما ، وقومية وإنسانية ، وفردية وجماعية ، وخلقية وعقلية وربطاً بين الماضى والحاضر والمستقبل .

إن هذا هو المصدر الوحيد للحصانة من خطر التيارات الوافدة والدعوات الهدامة . هذه الأخطار التى تتمثل فى الفكر الاستعمارى والماركسى ،

والصهيونى : هذا الخطر ليست هناك أمة معرضة له إلا الأمة الإسلامية لأنها هى وحدها التى تمتلك ثقافة وفكراً مستقلا ومتميزاً له (ذاتيته) الخاصة وطابعه المفرد من وحى السماء يستمد مفهومه من التوحيد والحق والعدل والرحمة جاء به محمد بن عبد الله ليخرج البشرية من الظلمات إلى النور وما زال المسلمون مسئولين عن تبليغ هذا المنهج وحمايته وتطبيقه على مجتمعاتهم.

* * *

الباب الثالث

تعريب اللغة

١- تعريب اللغة
٢- العاميات
٣- الحروف اللاتينية
٤- تطوير اللغة

الفصل الأول
تغريب اللغة

كانت المؤامرة على اللغة العربية من أبرز خطوات الغزو الاستعماري الذي شمل العالم الإسلامي خلال القرن ونصف القرن الأخير (إلى جوار المؤامرة على الشريعة الإسلامية وعلى التعليم والتربية) فقد استهدفت السيطرة الأجنبية حصر اللغة العربية والحيلولة بينها وبين التمدد والاتساع وضربها فى عقر دارها واتهامها بالقصور والضعف والتخلف وتمكين العاميات واللهجات واللغات الأجنبية من السيطرة عليها ذلك أن انطلاق الدعوى التغريبية إلى حرب اللغة العربية إنما كانت تستهدفها بوصفها لغة القرآن . هذا القرآن الذى أعطاها هذا الصمود فى وجه الحادثات وهذا الثبات والتمكين على الزمن دون أى لغة أخرى من لغات العالم ، وكانت المؤامرة تطمع فى أن تفصل بين المسلمين وبين بيان القرآن ومن ثم يصبح بيان القرآن من تراث المتاحف حيث تجرى اللغة العربية فى مجال العاميات فلا يلتقيان أبداً ومن أجل هذه الغاية برزت دعاوى مضللة تقول إن العامية المصرية هى لغة منفصلة عن اللغة العربية وسابقة لها . ومن هنا جاء وليكوكس ليعلن للمصريين أنه لا سبيل إلى نهضتهم إلا إذا التمسوا العامية وأكد دوفرين فى تقريره ضرورة تجاوز الفصحى إلى العامية وعمل الاستعمار البريطانى على إحلال اللغة الإنجليزية محل اللغة العربية ، فى دراسة جميع المواد فى المدارس الابتدائية والثانوية والعالية .

يقول الأستاذ محمود أبو العيون فى كتابه الصحيفة السوداء :

حاربوا لغة البلاد فى المدارس حرباً عواناً وذلك لينالوا مآربهم فى القضاء على قوميتها وقتل عواطفها وقطع الصلة بين ماضيها وحاضرها ، وما فتئ الإنجليز يحاولون إضعاف اللغة العربية والقضاء على القرآن حتى يتمكنوا من القضاء على الأولى إلا الذماء . ولن ينسى مدرسو اللغة العربية اضطهاد

المستر دنلوب مستشار الإنجليز فى وزارة المعارف ولا مضايقة المستر وب الذى كان يزدرى لابسى العمائم ويحقرهم ويحط من درجات رقيهم ذلك لأنهم حفاظ اللغة العربية وحملة القرآن الشريف . ومن الأدلة على ما تنويه السياسة الإنجليزية قديماً قول اللورد دوفرين فى تقريره عام ١٨٨٢ إن أمل التقدم ضعيف طالما أن العامة تتعلم اللغة الفصيحة العربية — لغة القرآن — كما فى الوقت الحاضر وقد نفذت السياسة الإنجليزية بتمامها فما جاءت سنة ١٩٠٠ حتى كان التعليم فى جميع المدارس العالية والثانوية باللغة الإنجليزية فتدهور التعليم تدهوراً هائلا وعجز الطلبة عن اجتياز حلقات الدراسة لرسوبهم مرتين وثلاث مرات فى كل سنة دراسية وفى عام ١٩٠٧ هاج هائج الأمة وعظم اشتداده واحتجت على لسان صحافتها ونوابها وأحزابها طالبة إعادة التدريس بلغة البلاد فرأى الإنجليز تسكيناً لهذا الهياج العام أن يعيدوا بالتدريج تدريس هذه العلوم فهم يعلمونهم اللغة العربية ليدرسوا بها بعض المواد وهذا لعمرى فى القياس عجيب .

وفى يناير ١٨٩٢ ألقى المهندس الإنجليزى ولكوكس فى نادى الأزبكية محاضرته المشهورة « لماذا لم توجد قوة الاختراع لدى المصريين الآن » قال فيها : إن الأمم التى استطاعت أن ترتقى هى الأمم التى تركت اللغة الفصحى إلى لغتها العامية الشائعة بين فلاحيها كما فعلت إنجلترا . وأن اللغة الدارجة هى مصدر الترقى » .

وقد ووجهت حملة ولكوكس على اللغة الفصحى بردود فعل عنيفة ، وتصدى لها عدد كثير من الباحثين فأثبت كذبها وتضليلها وكشف عن الخلفيات المسمومة التى وراءها .

ثم تجددت الحملة على اللغة العربية عام ١٩٠١ حين دعا مستر ويلمور أحد قضاة محكمة الاستئناف بالقاهرة إلى استعمال اللغة العامية بدلا من العربية الفصحى إلى ما أسماه لغة القاهرة ووضع لها قواعد واقترح اتخاذها لغة للعلم والأدب كما اقترح كتابتها بالحروف اللاتينية . وأشارت الصحف الأجنبية التى تصدر فى مصر بالعامية المكتوبة باللاتينية وقالت إنها يجب

أن تكون اللغة الوحيدة للقطر المصري . وكشف الكتاب العرب والمصريون زيف رأى ويلمور ونقضوا فكرته وأظهروا للملأ أن العامية ليست لغة مستقلة وإنما هي تشويه محلي يعترى كل لغة في العالم وهو ما يسمونه لهجة واللهجات متفاوتة في كل أمة وكل بلد تقريباً فأي لهجة يستعملون . وقال أحدهم إن ما حصل في اللغة اللاتينية لا يمكن حدوثه في اللغة العربية لاختلاف الشبه في اللغتين .

وكما حاولت بريطانيا في مصر هذه المحاولة ، كانت فرنسا تحاول بالنسبة لسوريا وبالنسبة للمغرب فتصدى المستشرق ماسنيون للطلاب السوريين والمغاربة في باريس ودعاهم إلى العامية وإلى الحروف اللاتينية . ولم يتوقف ماسنيون عند هذا بل إنه قصد إلى سوريا . وتحدث فيها عن العامية والحروف اللاتينية في إهاب الغيور على اللغة العربية الراغب في إسعافها وإنقاذها مما وصفه بالضعف والتأخر .

وفي المغرب دعا المستشرق الفرنسي كولان إلى العامية المغربية ووصف الفصحى بالصعوبة ودعا إلى تعميم اللغة الفرنسية في المغرب وجعلها الوسيلة الوحيدة للثقافة :

ولم يتوقف كتاب العرب عن الرد على هذه الشبهات وكشف زيفها وجاءت مرحلة تالية لهذه المرحلة حمل لواء الدعوة إلى العامية كتاب من العرب مثل لطفي السيد وسلامه موسى والخورى مارون غصن .

وكانت دعوة هؤلاء إلى استيعاب العامية ثم كانت محاولة عبد العزيز فهمي بعد إنشاء المجمع اللغوى في مصر حين قدم عام ١٩٤٤ مشروعاً يرمى إلى اتخاذ اللاتينية لرسم الكتابة العربية .

ثم جاءت محاولات مجددة من خلال المجامع اللغوية نفسها إلى دراسة العاميات وكان للمستشرقين الذين اشتركوا فيها ومن والاهم أبعد الأثر في دعم هذه التيارات وتحويلها إلى دراسات مشروعة .

* * *

الفصل الثاني

العاميات

إن أكثر اهتمام الاستشراق والتغريب قد تركز على العاميات . حتى أن أحدهم سرجنت يقضى الشهور فى صحارى حضرموت وغيرها يتحمل رياح السموم اللافحة فى الصحراء والقفار ليجمع الأمثال العامية والأزجال الشعبية وكذلك كان يفعل القاضى ويلمور فى مصر يلتقط الكلمات العامية من الأفواه وذلك كله فى محاولة الادعاء بأنها لغات مستقلة منفصلة عن اللغة العربية ، والأعجب من هذا أن خضعت لهم بعض مجامع اللغة فأصبحت تقوم بدراسات واسعة عن اللهجات والكلمات العامية . ومحاولة خلق تيار لهذه العاميات بعمل قواميس تجمع هذه الألفاظ كما فعل (رينهارت دوزى) فى حين أن القاعدة الصحيحة أن علماء العرب جمعوا الأصول العربية ولم يجمعوا الدخيل . والمستشرقون بذلك يفصحون عن هوى دفين فى نفوسهم هو أن تصبح هذه اللهجات لغات للأقطار والبلاد التى تتكلمها وتحل محل العربية الفصحى : لغة القرآن . وبذلك يتحقق هدفهم من تمزق العرب وإيجاد الحواجز الضخمة بين هذه اللهجات وبين لغة القرآن وبيانه .

ولقد صدرت دراسات كثيرة عن لهجات القاهرة والشام وفلسطين والمغرب وتونس والجزيرة وبين النهرين وحلب قام بها مستشرقون أفنوا زهرة أعمارهم فى جمع هذه المادة (راجع الهلال م ٢٥ ص ٢٨٠) .

ونجد ولهلم سبيتا الألمانى أمين دار الكتب المصرية يجمع حروفاً أفرنجية للغة العامية المصرية لأجل إحيائها ويؤلف كتاباً فى صرفها وكتاباً فى أمثالها وقصصاً عامة ونشر ذلك باللغتين الألمانية والفرنسية داعياً إلى مشروع تعليم اللغة العامية بالحروف الأجنبية .

وقد استجاب بعض أغنياء الإفرنج للمشروع وأرصدوا مالا جماً ونشرت يومئذ كراسة فى الحث عليه وترغيب التبرع بالمال لتنفيذه .

ونجد مجلة كالمقتطف تفتح عام الاحتلال البريطانى ١٨٨٢ لمصر باباً للنظر فى أمر العامية (وفيما إذا كان تنقيحها ممكناً كما فعل اليونان بلغتهم الرومية واعتمدوا عليها فى كتاباتهم بدل اليونانية القديمة أو فيما إذا كان العود إلى اللغة المعربة أولى حتى تصبح لغة المتكلم كما هى لغة الكتابة) .

وهكذا يجرى إدخال مغالطة واضحة لخداع المثقفين حول المقارنة بين اللغة اللاتينية وما تفرع عنها من لهجات هى لغات فرنسا وإيطاليا وغيرها وبين اللغة العربية التى يدعون إلى إهمالها وتحويل عامياتها المصرية والشامية إلى لغات وفارق كبير بين اللاتينية والعربية .

وقد ادعى بعضهم أن هناك فارقاً واسعاً بين اللغة واللهجة وبين لغة الكتابة ولغة الكلام وأنه لابد من أن تكون لغة الكلام والكتابة واحدة وتبين أنها دعوى باطلة فإن اللهجات المحلية موجودة فى كل بلد أوربى وأن الجميع يستعملون الفصحى كلاماً وكتابة ، وأن استعمال العامية أو اللهجة الخاصة أمر نادر .

وبالرغم من كل محاولات احتضان العامية فقد عجز هؤلاء المستشرقون عن أن يجدوا للعامية أدباً أو تراثاً وأن ما قام بجمعه سبيتا وولمور وغيره من الأمثال العامية لم يستطع أن يشكل تراثاً يمكن الادعاء معه أن العامية لغة مستقلة .

وقد فشلت كل المحاولات التى قام بها الأجانب فى هذا الصدد وخاصة فى ترجمتهم لعبارات من الإنجيل أو قطع من روايات شكسبير وكشفت هذه الآثار عن عجز العامية عن معالجة الموضوعات الرفيعة وما أحدثه ذلك من تشويه أفقدها سماتها الأدبية والعلمية .

وتبين من هذه التجارب أن اللغة الحقيقية هى اللغة التى لها قواعد محفوظة محددة يعرفها الناس فى مشارق الأرض ومغاربها ، وهى التى يتحدث بها أهل العلم والأدب فى مجالسهم العلمية والأدبية وبها يؤلفون كتبهم وأبحاثهم فى مختلف العلوم والفنون ولا يمكن لأى لهجة من اللهجات العامية أن تقوم مقامها .

أما العامية فهي تفتقر إلى أدب معروف . ولم يجد المستشرقون ودعاة العامية أدبا يمكن الاعتماد عليه في دراسة العامية وقد اعترفوا هم أنفسهم بذلك . وأشاروا إلى الآثار العامية القليلة التي عثروا عليها ولم تف بحاجتهم مثل كتاب [هز القحوف في شرح قصيدة أبي شادوف] ومجلة أبي نظارة وما قام به محمد عثمان جلال في نقل بعض آثار موليير إلى الزجل المصري ولم يجد هؤلاء الدعاة إلا الأزجال والمواويل وما يعرف باسم الحدوته مما التقطوه من أفواه العامة والذي كذب دعواهم بأن العامية لغة مستقلة جاءت مع الهكسوس قبل الإسلام بخمسمائة سنة كما يقول ويلكوكس وسلامه موسى ، ولم تفلح محاولات التمويل الأجنبي لنشر العامية ولا إضفاء صفات وهمية عليها بحيث تجعلها منافسة للفصحى فقد انكشف زيف المحاولة كلها وتبين منذ اللحظة الأولى جذورها التغريبية : حين جاءت الدعوة إلى إلغاء الإعراب وقواعد النحو وإدخال الألفاظ الأجنبية واستخدام الحروف اللاتينية : وكشف لطفي السيد وسلامه موسى وعبد العزيز فهمي عن الغاية الكامنة وراء هذه الغيرة المدعاة على اللغة العربية :

وتبين فساد الاتهامات التي وجهت إلى الفصحى من حيث القول بالجمود والصعوبة وتبين أن الدعوة إلى تيسير نحو العربية وتيسير كتابتها هو أبرز سموم الخطط التغريبي .

يقول الدكتور علي عبدالواحد وافي : إن العامية التي يرى أصحاب هذا الاتجاه استخدامها في الشئون التي تستخدم فيها العربية الفصحى لغة فقيرة كل الفقر في مفرداتها فلا يشتمل متنها على أكثر من الكلمات الضرورية للحديث العادي وهي إلى ذلك مضطربة كل الاضطراب في قواعدها وأساليبها ومعاني ألفاظها وأداة هذا شأنها لا تقوى مطلقاً على التعبير عن المعاني الدقيقة ولا عن حقائق الآداب والعلوم والإنتاج الفكري المنظم .

والعامية في لغة ما غير ثابتة على حال واحدة بل هي عرضة للتطور في أصواتها ودلالاتها ومفرداتها وقواعدها . والعامية وتختلف باختلاف الشعوب العربية وتختلف في الشعب الواحد باختلاف مناطقه .

وإن الاختلاف بين لغة الكتابة عن لغة الحديث لا ينطوي على شيء

من الشذوذ حتى يلتمس علاج له بل هو السنة الطبيعية فى اللغات واستخدام العامية فى تدريس العلوم والآداب يؤدى لا محالة إلى تخلف كثير فى الثقافة العلمية والأدبية نفسها .

أما الداعون إلى هذا الاتجاه فهم لا يخرجون عن أحد فريقين :

(١) إما شعوبيون مسرون بالرغبة الآثمة فى القضاء على أهم دعامة من دعائم الوحدة العربية والثقافة العربية (وإما) غافلون على الأضرار البليغة التى تنجم عن تحقيق ما يظنون أنه ضرب من ضروب التيسير .

ويقول السيد محب الدين الخطيب : إن الفرق الحقيقى بين العامية والفصحى فى أمة الضاد هو أن للفصحى امتداداً جغرافياً إلى بلاد الجامعة العربية يجعل منها فى الثقافة والأدب على الأقل وطناً واحداً فإذا اخترنا العدول عن الفصحى إلى العامية فسيترتب على ذلك تعبير جديد لأننا سنفبتر به أقوى آصرة تربط مصر بتلك الدول الشقيقة والأقطار العربية ، كذلك فإن امتداد العربية الجغرافى يتسع إلى أبعد من حدود الوطن العربى لأن لغة القرآن عالمية مشتركة بين خمسمائة مليون مسلم (الآن ألف مليون) تخفق قلوبهم نحونا بعواطف تتمنى الدول الكبرى لو تظفر بجزء يسير منها . كذلك فإن الانكماش تحت جناح (الأدب العامى) سيهدم تعاوننا الثقافى . إن مسألة امتداد العربية الفصحى فى التاريخ تتناول تراث العروبة والإسلام الذى ملأت بقاياه الدنيا ، بعد كل ما أتلفه هولاكو والتتار والصليبيون والأسبانيون فضلا عن جهلة العصور الأخيرة بما أهملوا منه حتى تحول كثير من هذه التركة إلى خزائن أوربا فعدول مصر عن الفصحى إلى العامية معناه الاستغناء عن تراث العروبة والإسلام والتنكر له وصرف الشىء عن أن يكون تنظيمه والعناية به من مجال جهادهم وجهودهم وهذا مقصد بعيد المرمى . وهناك حقيقة لا ريب فيها أن تطور العامية فى أوطان العرب متجه إلى التقرب من الفصحى وأن عامية مصر اليوم فى مصر والشام أفصح مما كانت قبل خمسين سنة :

كما أن من الغش إيهام الناس بأننا وجدنا لنا لهجات عامية بعيدة عن الفصحى ومن الغش كذلك ادعاء أن العامية تتطور فى البلاد العربية تطوراً

تزيدها بعداً عن الفصحى فمع أنها تتطور بأسرع مما تتطور به اللهجات العامية فى جميع الدنيا فإن تطورها هذا متجه نحو الفصحى . وأعتقد أن عامية مصر والشام ستذوب فى الفصحى بأسرع من المدة التى احتاجت فيها العربية إلى الحلول محل القبطية فى مصر والسريانية فى الشام وأن الذى يسمع حديث الفصحى والعامية فى أمتنا العربية ومبلغ التفاوت بينها يظن أن ذلك خاص بنا وأن هؤلاء الإفرنج غير مصابين بمثل مصيبتنا ، فبرنارد شو يقول فى مقدمة قصة (بجاليون) إنه ما من إنجليزى يفتح فمه بكلمة إنجليزية إلا ويجد إنجليزياً آخر يضحك ساخراً من نطقه ولهجته لأن الإنجليز لم يتفقوا بعد على طريقة التكلم بلغتهم .

* * *

الفصل الثالث
الحروف اللاتينية

بدأت محاولة الدعوة إلى الكتابة بالحروف اللاتينية منذ وقت مبكر ، حمل لواءها مستشرقون ودعاة أجانب وقد اتسع نطاق الدعوة على أثر استبدال الأتراك حروفهم العربية بالحروف اللاتينية وقد واجه كثير من الباحثين هذه الدعوة بالمعارضة كاشفين عن أخطارها ومحاذيرها : يقول فارس الخورى : نحن لا نستطيع احتذاء حذو الترك لأن بين لغتنا ولغتهم بونا شاسعاً وفروقاً جمة تجعل من المتعذر علينا تنفيذ ما اختاروه لأنفسهم .

أولا : هناك الحروف (ث ح خ ذ ص ض ط ظ ع غ ق) وهى أحد عشر حرفاً ليس لها مقابل فى الحروف اللاتينية . وبذلك تفيد مزية سهولة القراءة على الأجانب عن اللغة .

ثانياً : خزانة الكتب العربية وهى ثروة قيمة ليس للعرب وحدهم بل للمدنية والثقافة القديمة كلها فإذا أخذنا بالأبجدية اللاتينية نفقد هذه الثروة النفيسة ويفقدها معنا العالم أجمع ولا يمكن أن يعاد طبع جميع هذه الآثار الغالية بالحروف الجديدة فتبقى الكتب الموجودة جميعاً ألغازاً ومعميات لا يحل رموزها إلا المنقبون عن الآثار .

ثالثاً : حروف العلة فى العربية ثلاث فقط تكون طويلة وهى (أ . و . ى) وتكون قصيرة وهى الفتحة والضمة والكسرة لكل منها شكل واحد فى اللفظ فلسنا والحالة بحاجة ماسة للاستعانة بأحرف العلة اللاتينية من اللفظ الصحيح .

رابعاً : الكتابة العربية الحاضرة هى نوع من الاختزال ستوفر فيه السرعة والاقتصاد وما يكتب فيها فى سطر واحد يقتضى سطرين أو أكثر بالحرف اللاتينى .

خامساً : الحرف العربي أحلى للنظر بسبب التباعد بين أشكال حروفه فلا يلتبس الواحد فيها بالآخر وتستطاع قراءته بالليل والنهار على النور الضئيل بدون الاستعانة بالعوينات .

سادساً : نحن السوريين لسنا مستقلين باللغة فليس من حقنا أن نستأثر بهذه البدعة المنكرة ونقطع عن إخواننا فى العراق ومصر وجزيرة العرب وشمالى أفريقيا تلك الصلات الراسخة التى تربطنا بهم .

سابعاً : الحركات اللغوية عندنا صعبة الإدراك لأن أكثرها سماعية لا تعرف بالقياس ولأن اللغة العامية المحلية لا يكترث بها فترى الناس يلفظون الكلمات غلطاً ولا يبالون .

يقول فارس الخورى : أريد أن أسأل الأستاذين الفاضلين (ماسنيون وبينار) لماذا خصنا بالنصيحة لتبديل حروفنا لإصلاح كتابتنا ولم يقترحها على قومهم لإصلاح الإملاء الفرنسي هو الذى أحوج إلى التنقيح من كتابة أخرى . فجميع اللغات تقريباً تقرأ كما تكتب ماعدا الفرنسية تقريباً فإن بين إملائها وقراءتها بوناً شاسعاً إذ أن حروفاً كثيرة فى كل كلمة تقريباً تكتب ولا تقرأ .

وعرض كارل نلينو المستشرق الإيطالى : للدعوة إلى استبدال الحروف العربية باللاتينية قال : إن الحروف اللاتينية لا تصلح لكتابة اللغة العربية وإن كان الترك قد اختاروا هذه الحروف فى انقلابهم الأخير فذلك لحاجة الكتابة التركية إليها دون الكتابة العربية التى تحفظ بحروفها الآن كنوز العلوم والأدب ووحدة اللغة على الرغم من اختلاف اللهجات : هل كان من الأوفق أن تكتب العربية بالحروف اللاتينية . هذا ما لا أراه ولا أقول به فالحروف العربية ضرورة لازمة لا يمكن العدول عنها فكما أن الحروف السامية وضعت موافقة لطبيعة هذه اللغات فكذلك الخط العربى وضع موافقاً لطبيعة العربية فالحروف لها أهمية كبيرة فى اللغة العربية لأن الألفاظ فيها ثلاثية المادة فى الغالب أعنى ذات ثلاث حروف بدون اختيار الحركات والمعنى .

والأساس محصور فى تلك الحروف الثلاثة :

أما فى اللغات الأجنبية فتشتمل المادة على حروف وحركات بدون اعتبار عدد الحروف فلفظ (كتب) يكتب بالخط العربى ثلاثة حروف بثلاث حركات ولكنه بالخط اللاتينى لابد أن تكتب بستة حروف (Cataba) وإذ أردنا كتابة الألفاظ العربية بالحروف اللاتينية بكل دقة يستلزم ذلك إصلاحات خاصة زيادة على الموجود فى الخط اللاتينى وأبجديته .

ويظهر لنا جلياً أن الخط الذى يمتاز عن غيره فهو قريب سمى بالاختزال والخط العربى ليس فى حاجة إلى الاختزال لأن طبيعته تغنيه عن اتباع طرق الاختزال .

والحقيقة أن الخط العربى حفظ إلى الآن وحدة اللغة وإن كان النطق مختلفاً من قطر إلى قطر . والحروف اللاتينية مبنية على أساس أن صوت الحروف واحد غير متبدل : أما فى العربية فهناك أصوات لكل حرف ولا سيما فيما يختص بالحركات فمادة الفعل الثلاثى تظهر جيداً بالحروف العربية لأن الحركات لا تقرأ بالكتابة ومع تغيير الأصوات واللهجات فى العربية على حسب الأشخاص أو على حسب الأفكار . فإننا نعتبر الخط العربى كفيلا بنقل الألفاظ على وتيرة يفهمها الجميع مع وجود هذا التغيير فى الأصوات واللهجات.

ثم إنه ليس هناك معادلة بين الحروف العربية واللاتينية مع الحروف مثلا الألمانية والروسية قريبة الشبه باللاتينية أما فى العربية فوجه الشبه بعيد جداً وإذا تغير الخط العربى إلى الخط اللاتينى أصبحت النتيجة خطرة للغاية فكيف يكون مصير الكنوز القيمة التى خلفتها الآداب الإسلامية فى الدين واللغة والفلسفة والعلوم والآداب والفنون وغيرها وكلها مدونة بالخط العربى .

* * *

ثم وصلت هذه المحاولة إلى ذروتها عندما قدم عبد العزيز فهمى إلى المجمع اللغوى فى القاهرة عام ١٩٤٤ مشروعاً يرمى إلى اتخاذ الحروف اللاتينية أداة لرسم الكتابة العربية وقد واجهت الدعوة معارضة ضخمة من المفكرين

والكتاب وكان فى مقدمة معارضيها عبد الوهاب عزام . وإسعاف النشاشيبى وعباس العقاد ومحمد كرد على ومحمود محمد شاكر :

ولم يتوقف الأمر عند ذلك بل رأينا فى بيروت محاولات جديدة منها محاولة سعيد عقل : الذى ألف ديواناً من الشعر وكتبه باللغة اللاتينية : فعلا كمحاولة لوضع التجربة موضع التنفيذ وكان ذلك استمراراً لخطة دعا إليها أنيس فريحة : كتابة العامية بالحرف اللاتينى ـ الكتاب اسمه (ياره ـ شعر) صدر ١٩٦١ وذلك استمرار للمحاولة التغريبية فى إحلال اللهجة اللبنانية محل اللغة الغربية والهدف هو قطع الحاضر عن الماضى وتحطيم وحدة اللغة بين العرب والوحدة الفكرية بين المسلمين وقد باءت هذه المحاولة كسابقتها بالفشل وصمدت اللغة العربية الفصحى فى وجه الغزاة . يقول دكتور عمر فروخ : إن هذا العمل لا يهز حماسة الناس ولا يدخل فى قلوبهم متعة . وإننى أدرك أن جهات خاصة ستصفق لصدور الكتاب لا على أنه إنتاج أدبى جديد بل على أنه محاولة من المحاولات إلى الدعوة للعامية والحرف اللاتينى وأن ما سيثيره من ضجة مصطنعة وراءها مآرب تأخذ مابين المشرق والمغرب .

* * *

الفصل الرابع
تطوير اللغة

ثم هناك الدعوة الخبيثة الماكرة إلى ما يسمونه تطوير اللغة وقواعدها ورسمها والدعوة إلى التساهل فى بعض قواعد الإعراب وعدم التشدد فى قبول المستحدث من الألفاظ والأساليب التى تجرى على كل لسان لتسهيل تطوير الفصحى حتى تقترب من العامية .

وقد حمل لواء هذه الدعوة رواد المجامع . وهذه أخطر الدعوات جميعها وأكثرها مكراً لأنها تحمل أسماء التيسير والإصلاح والتجديد . وتعنى التحلل من القوانين والأصول التى صانت اللغة خمسة عشر قرناً أو يزيد فكأن القرآن قد أنزل فينا اليوم وكأن شعراء العربية وفقهاءها وفلاسفتها وكتابها وأطباءها ورياضييها وطبيعييها وكيمائييها على اختلاف أزمانهم قد كتبوا ما كتبوا وألفوا ما ألفوه فى الأمس القريب يقول الدكتور محمد محمد حسين هذه ميزة من الله من بها علينا ولم تحظ بمثلها أمة من الأمم فإذا تحللنا من القوانين والأصول التى صانت لغتنا خلال هذه القرون المتطاولة . تبلبلت الألسن وأضاف كل يوم جديد تطلع على الناس شمسه مسافة جديدة توسع الخلف بين المختلفين حتى يصبح بين الشامى والمغربى مثل ما بين الإيطالى والأسبانى وتصبح عربية الغد شيئاً آخر يختلف كل الاختلاف عن عربية القرن الأول بل عربية اليوم والأمس القريب وتصبح قراءة القرآن والتراث العربى الإسلامى كله متعذرة على غير المتخصصين من دارسى الآثار ومفسرى الطلاسم وعند ذلك يصبح كل جهد سياسى أو حربى أو أدبى يبذل اليوم فى جمع شمل العرب عبثاً لا طائل تحته وليس الخطر الكبير فى الدعوة إلى العامية ولا فى الدعوة إلى الحروف اللاتينية أو الدعوة إلى إبطال النحو وقواعد الإعراب أو إسقاط بعضها فالداعون إلى هذه الدعوات من صغار الهدامين ومغفليهم الذين ليس لهم خطر العتاة ممن يعرفون كيف يخدعون الصيد بإخفاء

الشراك وكيف يستدرجون الناس بتزوير الكلام : إن الخطر الحقيقى هو فى الدعوات التى يتولاها خبثاء الهدامين ممن يخفون أغراضهم الخطيرة ويضعونها فى أحب الصور إلى الناس . ولا يطمعون فى كسب عاجل ولا يطلبون انقلاباً سريعاً : الخطر الحقيقى هو قبول مبدأ التطور نفسه، لأن التسليم به والأخذ فيه لا ينتهى إلى حد معين . أو مدى معروف يقف عنده المطورون ولأن التزحزح عن الحق كالتفريط فى العرض فالذى يقبل التزحزح عن الحق قيد أنملة واحدة يهون عليه أمثالها مرة ثم مرات حتى يسقط فى الحضيض . ومن اعتراه شك فى حقيقة ما يراد بقرآنه وبلغته وبإسلامه وكل تراثه فليقرأ قول طه حسين فى كتابه (مستقبل الثقافة فى مصر) :

« وفى الأرض أمم متدينة كما يقولون وليست أقل منا إيثاراً لدينها ولا احتفاظاً به ولا حرصاً عليه ولكنها تقبل من غير مشقة ولا جهد أن تكون لغتها الطبيعية المألوفة التى تفكر بها وتصطنعها لتأدية أغراضها ولها فى الوقت نفسه لغتها الدينية الخاصة التى تقرأ بها كتبها المقدسة وتؤدى فيها صلواتها » .

فاللاتينية مثلا هى اللغة الدينية لفريق من النصارى واليونانية هى اللغة الدينية لفريق آخر . والقبطية هى اللغة الدينية لفريق ثالث والسريانية هى اللغة الدينية لفريق رابع (وليس هذا كلام من صنع طه حسين فهو ترديد لما قاله القاضى الإنجليزى ويلمور فى كتابه عامية مصر) :

وبين المسلمين أنفسهم أمم لا تتكلم العربية ولا تفهمها ولا تتخذها أداة للفهم والتفاهم ولغتها الدينية هى اللغة العربية ومن المحقق أنها ليست أقل منا إيماناً بالإسلام وإكباراً له وذياداً عنه وحرصاً عليه » .

فإذا وعى القارئ هذا القول وما وراءه فليلق بكل ما سواه فى وجه صاحبه لأنه ضرب من النفاق وأسلوب فى الكيد .

على أن تقديس لغة القرآن والتزام أصولها وأساليبها لم يكن فى يوم من الأيام داعياً إلى تحجر اللغة وجمود مذاهب الفن فيها ووقوفها عند حد تعجز معه عن مسايرة الحياة كما يشنع به الهدامون ويخدعون به الأغرار وصغار العقول وقصار الهمم . فليس التطور نفسه هو المحظور ولكن المحظور هو أن يخرج هذا التطور عن الأساليب المقررة المرسومة . وضع اللغويون والنحاة

والبلاغيون لها حدوداً طابقوا بها مذهب القرآن وكلام العرب وتركوا للناس من بعد أن يستحدثوا ما شاءوا من أساليب وأن يتصرفوا فيما أرادوا من أغراض ، وأن يجدوا ما أحبوا مما يشتهون ومما تتفتق عنه عبقرياتهم . ولكن كل ذلك لا ينبغى أن يخرج بهم عن الحدود المرسومة . وطه حسين ومن ذهب مذهبه يوهمون الناس بأن هناك خطراً على العربية الفصحى ، وأن يهجرها الناس إلى العامية إذا لم تخضع لما يريد فيها من تطور والذى ينقض هذا الزعم الباطل من أساسه هو الواقع المشاهد فى القديم السالف وفى الحاضر الراهن الذى أثبت أن العربية قد عاشت جنباً إلى جنب مع هذه اللهجات المحلية أكثر من ألف عام حتى الآن فالخوف من إعراض أصحاب اللغة العربية عنها هو وهم اخترعه هؤلاء المعترضون أو اخترعه لهم سادتهم ثم قاموا هم بترويجه . وينقض هذا الوهم أو هذا الزعم أن العربية قد استطاعت أن تحيا خلال بيئات متفاوتة وعصور متطاولة ودرجات من الحضارة والمدنية أدناها البدواة وأعلاها ما وصلت إليه فى بغداد وفى الأندلس . استطاعت وهى اللغة البدوية أن تكفى حاجات ما جد من علوم ودراسات . وظلت مع ذلك كله هى هى ، تقرأ القرآن بعد أربعة عشر قرناً من نزوله فكأنه أنزل اليوم ، وتقرأ الجاحظ والمتنبى بعد ألف سنة أو أكثر فكأنما تقرأ لكتاب وشعراء معاصرين وقد تجاوزت لغة الأدب الرفيعة ولغة الحديث العامية طوال هذه القرون على اختلاف البيئات فلم تطغ إحداهما على الأخرى ولم تنفر إحداهما من مجاورة صاحبتها ومن أظن أحداً سينخدع مما يبدو فى ظاهر قوله من البراءة حين يتظاهر (مثل طه حسين) بأنه معارض فى استعمال اللغة العامية للكتابة الأدبية . وقد اعتمد طه حسين على هذا الأسلوب نفسه فى الدعوة إلى تبديل النحو (وكما كانت الكتابة فلابد أن تنشأ عن هذه اللغة العربية الفصحى القديمة لغات مختلفة كما نشأت الفرنسية والإيطالية والبرتغالية من اللغة اللاتينية القديمة) ويخدع الناس عن حقيقة ما يدعوهم إليه حين يعقب بقوله : (وبعد فلا أدعو أن تهجروا القديم مطلقاً وعسى أن أكون من أشد الناس محافظة على قديمنا العربى ولا سيما فى الأدب واللغة ولكن لم لا يكون النحو القديم والكتابة القديمة والبلاغة القديمة وكل هذه العلوم العربية التى

أنشئت فى عصر غير هذا العصر الذى نعيش فيه ولم لا يكون هذا كله متطوراً كما تطورت اللغة بحفظ قديمة لدرس المتخصصين فى الجامعات وفى المعاهد ونتيح للملايين البائسة من الصبية والشباب أن يتعلموا تعلما قريباً سهلا).

ومن أجال النظر فى هذا كله وقرن بعضه إلى بعض عرف أن أصل هذه الفروع واحد وأن روح الدعوة فيها جميعاً واحدة وأن أصحابها لا يقنعون إلا بقطع كل ما ربطنا بإسلامنا وعروبتنا وشرقيتنا من وشائج وصلات عند ذلك نفقد طابعنا الذى يميزنا بوصفنا جماعة أو قوماً أو أمة .

وإذا فقدنا طابعنا فقدنا كياننا وفقدنا القدرة على التكتل والتجمع . وأصبح من اليسير على الشرق أو الغرب أو كائناً من كان من خلق الله أن يلحقنا به ويجعلنا تابعين له ندور فى فلكه ونسبح بحمده من دون الله .

والهدف من هذا كله هو انتزاع الدراسات العربية من حضانة الدين والقرآن.

(٤)

كانت الحملة على اللغة العربية ولا تزال ضارية فقد حاولوا وصفها بأنها لغة دينية وحاولوا إظهارها غير وافية بحاجات العصر الجديد . كذلك عمد النفوذ الأجنبى إلى قطع الطريق على توسع اللغة العربية بين مسلمى العالم وفرض اللغة الأجنبية بديلا عنها وأعلى من شأن اللهجات الإقليمية .

وقد عرف رجال اليقظة الإسلامية أن اللغة هى الهدف الأول للغزو الأجنبى والتغريب فإن أمة لن تتحول إلا من طريق لغتها . إذ يكون تحول اللغة مصدر التحول فى أفكارها وعواطفها وآمالها فهى إذا انقطعت من نسب لغتها انقطعت من نسب ماضيها فليس كاللغة نسب للعاطفة والفكر .

وقد تنبه لهذا المعنى مصطفى صادق الرافعى الذى واجه محاولة لطفى السيد وجبران خليل جبران فقال : اللغة هى صورة وجود الأمة بأفكارها ومعانيها وحقائق نفوسها وجوداً متميزاً قائماً بخصائصه فهى قومية الفكر تتحد بها الأمة فى صور التفكير وأساليب أخذ المعنى من المادة .

ولكن هذه الحملات كشفت عن جوهر اللغة العربية وعظمتها وأظهرت

محاسنها ومعطياتها . فقد تقدمت للفكر بكل المخططات الصوتية المحكمة وميزت مفاصل الفكر تميزاً واضحـاً مبيناً وأعانته على الحركة . وقد توصل علم اللغات المقارن إلى حقيقة ثانية بالنسبة للغة العربية ألا وهى أنها معبرة — بسكيولوجيتها للعلوم الباطنة والظاهرة .

وإن اللغة العربية لغة اشتقاق تقوم على أبواب الفعل الثلاثى التى لا وجود لهـا فى جميع اللغات الهندية والجرمانية وهى اللغات التى تكتب بالحروف اللاتينية كذلك فإن للفعل العربى صيغاً تبلغ الاثنتى عشرة صيغة كل منها يمتاز بمعنى خاص متصل بمعنى الفعل الأصلى . وأن أسباب المترادفات فى اللغـة العربية أعمق من التلهى . وأن هناك من علماء اللغة كابن فارس وابن على الفارسى من أنكر المترادفات أصلا واعتبرها ألفاظاً جديدة لهـا معان تختلف فى قليل أو كثير بعضها عن بعض . وأن جميع مشتقاتها تقبل التصريف إلا فيما ندر وهذا يجعلها طوع أهلها أكثر من غيرها وأوفى بحاجة المتكلمين » .

• • •

الباب الرابع
خطوات على طريق الأصالة

أولاً : من التغريب إلى الأصالة
ثانياً : تحرير القانون واللغة العربية
ثالثاً : من التبعية إلى الرشد الفكري
رابعاً : للمسلمين دور رائد في العلوم التجريبية
خامساً : الخلافة الإسلامية بعد نصف قرن
سادساً : محاولات التقارب والحوار

الفصل الأول
التحول من التغريب إلى الأصالة

إن هناك ظاهرة عميقة تبدو فى أفق الفكر الإسلامى الحديث . جديرة بالرصد والدراسة : تلك هى انطلاقته إلى آفاق الرشد ، ودخوله مرحلة الأصالة استمداداً من المنابع الأولى ، وتحرراً من زيف المحاولة التى أجرتها حركة الاستشراق والتبشير والغزو الثقافى فى خلال السنوات الخمسين الأخيرة

وقد انبعثت هذه الحركة المتجهة إلى التأصيل على يد جماعة اليقظة الإسلامية التى حملت لواء الدعوة لالتماس المنابع فى المنهج القرآنى بعيداً عن مناهج الفلسفات أو التغريب . والظاهرة كما يلى :

فى خلال فترة الاستعمار الغربى للعالم الإسلامى كانت المحاولة ترمى إلى « تفريغ الإسلام من مفاهيمه الأصيلة » وقد جرت هذه المحاولة باستخدام مذاهب ترمى إلى عزل مفهوم الجهاد كما حدث فى القاديانية . أو إعلاء شأن المفهوم العقلانى أو المفهوم الوجدانى . اعتماداً على صور قديمة فى الاعتزال أو التصوف الفلسفى أو الباطنية . وقد كان لهذا الاتجاه الفلسفى أثره الوقتى فى رد عادية الاتهامات التى وجهت إلى الإسلام بأنه ضد العقل . أو أنه جبرى ينكر الإرادة الفردية .

وقد حاول كثير من الباحثين الدفاع عن الإسلام بأسلوب الفلسفة أو المنهج الغربى للبحث : أمثال محمد عبده . وإقبال . والعقاد . والدكتور هيكل

ولكن منهج القرآن كالمـــاء لا يستغنى عنه أحد . ومنهج الفلسفة وعلم الكلام كالدواء لا يحتاج إليه إلا المريض حسب ما عبر الإمام الغزالى فى مثل هذا الموقف إبان هجمة الفلسفة اليونانية .

وقد مرت مثل هذه التجربة من قبل ووقف منها الإمام الغزالى والإمام ابن تيمية مثل هذا الموقف . لقد كان المسلمون يرون إبان هذه المحاولات

بأن علماء من المسلمين يدافعون عن الإسلام و يردون عادية خصومه . ولكننا حين نعاود النظر الآن نجد أن هذا الأسلوب لم يكن أصيلا .

وأن « **منهج القرآن** » هو الأسلوب الوحيد للدفاع عن الإسلام، وليس أسلوب الفلسفة أو أسلوب المتكلمين .

وأن محاولة الرد على شبهات موجهة إلى الإسلام بأسلوب الفلسفة أو المنهج العلمي الغربي من شأنه أن يبدو في بريقه فترة ما . ثم تتجاوزه التغيرات وتعتوره التطورات . أما مفهوم القرآن ومنطقه ومنهجه فإنه خالد وباق لا يعتريه تحول أو اضطراب .

عني محمد عبده بدور العقل في مواجهة التحدي الذي كانت تقدمه آراء الاستشراق من اتهام الإسلام بالجبرية الصوفية أو الجبرية ، فحاول أن يعلي شأن العقل حتى يضع الإسلام في مستوى مفاهيم الغرب الذي كان يعلي شأن العقل والعلم . إذ ذاك ولكن الأستاذ الإمام ذهب بعيداً فأعلى العقل على النص ، وجعل العقل حكماً على الوحي . وذلك حين قال بتأويل النص حتى يوافق العقل .

(وقد تعرض الأستاذ سيد قطب إلى هذا المعنى في كتابه خصائص التصور الإسلامي) .

ولكن المنهج القرآني يرى غير ما يرى الشيخ محمد عبده — وهو مفهوم الأصالة : وهو ما كشفت عنه مدرسة اليقظة . ذلك هو أن للعقل مكانه وحدوده ، وأنه ليس الحكم الأخير « وما دام النص محكماً فالمدلول الصريح للنص من غير تأويل هو الحكم » .

وهذه الظاهرة التي اضطر الشيخ محمد عبده أن يواجهها في سبيل الدفاع عن الإسلام . قد اتخذت من بعد مغمزاً ما يزال يستعمله خصوم الإسلام وإلى اليوم — كذلك فإن حديث محمد عبده عن أن الشريعة تتصل بأمور العباد ، وأن فيها سعة للاجتهاد قد أخذها دعاة التغريب من بعد ، وحاولوا بأن يقولوا بأن الشريعة الإسلامية تستطيع أن تبرر واقع المجتمعات اليوم .

وهذا ما لم يقصد إليه الشيخ محمد عبده ولقد جرت المحاولة في هذا الاتجاه نحو النظر إلى المعجزات ، وأحصيت كتابات لفريد وجدي والشيخ

المراغي والدكتور هيكل كانت بمثابة تيار خطير من تيارات إنكار المعجزات في سبيل إعلاء نظرة العقل أو المنهج العلمي الغربي .

وقد أفاض في كشف هذه الظاهرة الإمام العلامة الشيخ مصطفى صبري شيخ الإسلام في الدولة العثمانية في كتابه (موقف العلم والعالم من رب العالمين) وهو كتاب خطير يمثل مدى أهمية ظاهرة إنكار معجزات الرسول في سبيل إرضاء أصحاب المنهج الغربي الوافد .

وحين تقرأ للدكتور هيكل محاولته في كتابة السيرة تجده يحاول أن يواجه خطرين : خطر حملة التبشير التي اجتاحت البلاد الإسلامية في — الثلاثينات — وخطر الاستشراق . يقول في مقاله : « كيف ولماذا أكتب حياة محمد » .

إن المستشرقين الذين كتبوا عن محمد وعن الإسلام قد تأثروا في كتاباتهم بدافع من التعصب المسيحي وأنهم ألقوا على ما كتبوا صيغة البحث العلمي . ولا ريب أنهم على الأغلب لم يستطيعوا أن ينفذوا إلى دقائق أسرار الحياة العربية لتأثرهم بالبيئة الغربية التي يعيشون فيها ، والتي ورثوا من تراثها في التفكير والبحث مالم يسهل عليهم معه أن يحسوا بإحساس رجل الصحراء والذي يعيش في الجو المكشوف والبيئة الطبيعية كما للبيئة الوراثية أثرها على التفكير ، وعلى التصور وهو أثر عميق لا سبيل إلى إنكاره . ثم يشير إلى أنه يريد أن يرضي العقل الحديث بكتابة السيرة ، وأن هناك مسائل يرى أنها من وضع بعض الكتاب الذين دسوا عن حسن نية أو سوء نية طائفة من الخرافات .

وقد واجه الدكتور حسين الهراوي « هيكلا » في إبان كتاباته للسيرة وكشف عن خطأ الاتجاه إلى تقبل وجهة نظر « أميل درمنجم » التي بنى عليها هيكل كتابه « حياة محمد » وأشار إلى تلك العبارات الماكرة التي نقلها هيكل عن درمنجم والتي تحاول أن تصور النبي صلى الله عليه وسلم . وقد تأثر بأهل الكتاب في الجزيرة العربية أو في ذهابه إلى الشام أو في إرسال بعض أصحابه إلى الحبشة المسيحية . وهذا كله زيف مقصود أعده درمنجم وتابعه فيه هيكل إلى حد ما . ربما رفع هيكل بعض ذلك من كتابه بعد أن نشره في السياسة الأسبوعية .

وقد أشار الدكتور الهراوى إلى أن هذا هو السر فى الطريق الذى رسمه الاستشراق . وهذا شبيه بالوقوع فى الفخ الذى نصبه الاستشراق فى اتهام الإسلام بالجبرية مما دفع بعض الكتاب إلى إعلاء ما أسموه عقلانية الإسلام .

ولقد سار اتجاه هيكل شوطاً ولكنه عجز . لأنه بعيد عن الأصالة واستطاعت حركة اليقظة الإسلامية أن تنمى « منهج القرآن » وأسلوبه فى كتابة السيرة وفى التعريف بالإسلام ومنهج القرآن هو الأصالة ، ومنهج الفلسفة والأسلوب الغربى هو منهج « التغريب » .

وقد تصدى لذلك رجل من أهل الفكر الإسلامى فى عصرنا وهو الأستاذ محمد سعيد رمضان البوطى فى كتابه « فقه السيرة » التى كشف بها زيف محاولات كتابة السيرة التى كتبت على غير الفهم القرآنى قال : إن الهدف هو تصحيح أغلاط كثيرين ممن كتبوا عن السيرة فى هذا العصر ، وأن نميط الغشاء عن المغالطات التى كانت ولا تزال تدسها أقلام كثير من الكاتبين المستشرقين والمستغربين وهى أغلاط ومغالطات قامت لتغذيتها ورعايتها وترويجها مدرسة فكرية معينة نشأت فى أواخر القرن التاسع عشر . وراحت تمد من آثرها وظلالها إلى أيامنا هذه .

إن هذه المدرسة لم تعد تخدع إلا قلة من بقايا المفتونين باسمها وباسم مؤسسيها ورعايتها ذلك إن الحقائق الناصعة فى حياة المصطفى صلى الله عليه وسلم تظل هى المشرقة السائدة ، ويظل العقل الحر نزاعاً إليها موقناً بها غير مطمئن إلى أى تأويل أو تحليل يستهدف تحويرها أو التلاعب بها .

ولقد علم عامة الباحثين والمفكرين أن أهم أسباب نشأة تلك المدرسة فى حينها : ذلك الانبهار الذى أصيبت به كثير من العقول العربية المسلمة من أبناء النهضة العلمية فى أوربا فقد راحت تلك العقول تتوهم تحت تأثير ذلك الانبهار — أنه ليس بين المسلمين وبين أن ينهضوا مثل تلك النهضة إلا أن يفهموا الإسلام هنا كما فهمت أوربا النصرانية هناك . وأن يضعوا حقائق الإسلام الغيبية من وراء اكتشافات العلوم المادية فلا يؤمنوا بغيب لم يدركه علم ولا يعرجوا على معجزة لم يؤيدها اكتشاف أو اختراع فإن فعلوا ذلك نهضوا نهضة أوربا فى علومها ولحقوها فى رقيها وفنونها . ومن هنا أنشأ

أقطاب تلك المدرسة ما زعموه (الإصلاح الديني) والدين الصحيح ما كان يوماً ليفسد حتى يحتاج إلى مصلح أو إصلاح .

وكان من مظاهر هذا الإصلاح ظهور أول تجربة تحاول تحليل حياة الرسول صلى الله عليه وسلم تحليلا يسير في خضوع منكسر وراء العقلية الأوربية . وتحت لواء ما زعموه (العلم الحديث) . أجل . فقد كان كتاب حياة محمد لحسين هيكل التجربة الرائدة في هذا المضمار ، أعلن فيه الرجل أنه لا يريد أن يفهم حياة محمد صلى الله عليه وسلم إلا كما يأمر به العلم ، ولذلك فلا خوارق ولا معجزات في حياته عليه الصلاة والسلام ، وإنما هو القرآن والقرآن فقط . وانبرى الشيخ مصطفى المراغي شيخ الأزهر يقرظ الكتاب ويبارك الخطوة الرائدة وتطرق (محمد فريد وجدى) هو الآخر ينشر سلسلة مقالاته داعياً للناس إلى فهم الإسلام والسيرة النبوية عن طريق العلم . ولو اقتضى ذلك الإعراض عن الخبر الصادق الذى ثبت في الكتاب والسنة . وإنما كان يقصد بطريق العلم ألا يستسلم العقل للغيبيات ولا للخوارق والمعجزات وإن جاء بها الخبر الصادق المتواتر . كأن العلم إنما يتحقق بإنكار كل مالم يقع تحت حسك وشعورك .

كانت هذه المدرسة رد فعل إثارة الانبهار والشعور بالضعف لدى طائفة من المسلمين تهيأ لها بسبب ظروف خاصة أحاطت بها أن تطلع على الحياة الأوربية فتستهويها زخارفها وملاذها . فاتخذوا من نزوات أنفسهم حاكماً مسلطاً على عقولهم واصطنعوا بذلك مدرسة فكرية ظاهرها الإصلاح الديني وباطنها الاستخفاء النفسي والانهيار الفكرى بين يدى نهضة الغرب ولم تكسب هذه المدرسة أى نهضة علمية كالتي نهضتها أوربا كما كانوا يوهمون أو يتوهمون . كل ما جنته أيدى ذلك الإصلاح الديني فقدان الحقيقتين معاً فلا هم على حقيقتهم الدينية أبقوا ولا على النهضة العلمية عثروا ويقول : إن المسلم لا ينبغي لحظة واحدة أن يحاول فهم حياة رسول الله على أنه عبقرى عظيم أو قائد خطير ، أو راهب محنك . فمثل هذه المحاولة ليست إلا معاندة أو معابثة للحقائق الكبرى التي تذخر بها حياة محمد صلى الله عليه وسلم فقد أثبتت الحقائق أن النبي كان متصفاً بكل صفات السمو والكمال الخلقي والعقلي

والنفسي ولكن كل ذلك كان ينبع من حقيقة واحدة كبرى فى حياته عليه الصلاة والسلام ألا وهى أنه نبى مرسل من قبل الله عز وجل ، ولا ينبغى للمسلم أن يتصور أن المعجزة الوحيدة فى حياته صلى الله عليه وسلم إنما هى القرآن ما دام أنه لا ينكر أن له عليه الصلاة والسلام سيرة تحاول أن تفهم حياته من خلالها .

أما إن كان ينكر وجود هذه السيرة فإن عليه أن ينكر معجزة القرآن أيضاً إذ لم تبلغنا معجزات رسول الله المختلفة إلا من حيث بلغتنا منه معجزة القرآن . وقد زال اللبس وأشرقت الحقيقة مرة أخرى حين غلب المنهج القرآنى الذى حملته حركة اليقظة الإسلامية والتى قدمت الآن جيلا أو جيلين على طريق الأصالة . كان رائد هذه المدرسة فى الحقيقة هو الإمام حسن البنا ومن حوله نشأ الكثيرون : مصطفى السباعى — وعمر الأميرى — ومحمد المبارك — ومحمد الغزالى — وسيد قطب — وتابعه على الطريق أجيال كثيرة .

ولا ريب أن طريق التغريب هو ما بعثه المستشرقون وحملوا عليه تلاميذهم ومن استهواهم عملهم ومن حول المنهج القرآنى ، والمنهج الفلسفى نجد ذلك الخلاف الواضح بين ما كتبه عباس محمود العقاد فى كتابه الفلسفة القرآنية . ورد عليه فى ذلك الدكتور محمد أحمد الغمراوى يقول : « ينبغى أن ينبه المسلم إلى أن يقرأ للعقاد باحتياط وهو يكتب عن الإسلام . فالعقاد ابن العصر الحديث أخذ ثقافته مما قرأ لأدبائه وعلمائه وهو شىء كثير ، وليس كل ما كتبه المستشرقون عن الإسلام يقبله المسلم ولا كل نظريات علماء الغرب تتفق وما قرره القرآن لكن العقاد اعتقد من هذه النظريات ما اعتقد ، فهو ينظر إلى القرآن الكريم من خلال ما اعتقد منها . ويبدو أن من بين ما اعتقده العقاد نظرية (فرزر) فى نشوء الأديان . فهى عنده ليست سماوية ولكن أرضية نشأت بالتطور والترقى إلى الأحسن . ومن هنا تفضيل العقاد للإسلام على غيره من الأديان فهو آخرها وإذن فهو خيرها .

ومن هنا تفضيله ما سماه الفلسفة القرآنية على غيرها من الفلسفات . إن لم يكن هذا هو تفسير إطلاق اسميه الغربيين على كتابيه (عبقرية محمد) و (الفلسفة القرآنية) فهذه التسمية خطأ منه ينبغى أن ينبه إليه قارئ هذين الكتابين من المسلمين لينجو إن أمكن مما توحى به التسمية من أن محمداً

صلى الله عليه وسلم عبقرى من العباقرة لا نبى ولا رسول بالمعنى الدينى المعروف فى الأديان المنزلة : يؤكد هذا الإيحاء إن جاء الكتاب واحداً من سلسلة كتب العبقريات الإسلامية ، وإن يكن أولها . فالناشىء الذى يقرأ بعد عبقرية محمد عبقرية أبى بكر وعبقرية عمر مثلا لا يمكن أن يسلم من إيحاء خفى إلى نفسه أن محمداً وأبا بكر وعمر من قبيل واحد . عبقرى من عباقرة ، وإن يكن أكبرهم جميعاً ، أو الذى سمى النبى صلى الله عليه وسلم بطل الأبطال فأوهم أنه واحد من صنف ممتاز من الناس متجدد على العصور بدلا من صنف اختتم به صلى الله عليه وسلم صنف الأنبياء والمرسلين من عند الله . فالنبى والرسول يأتيه الملك من عند الله بما شاء الله من وحى ومن كتاب ، ولا كذلك العبقرى ولا البطل . فالنبوة والرسالة فوق البطولة والعبقرية بكثير . وكم من الصحابة رضوان الله عليهم من بطل ومن عبقرى وكلهم يدين له صلى الله عليه وسلم بأنه رسول الله إلى الناس كافة فى ذلك العصر وما بعده وأنه خاتم النبيين) وهذا الذى يشير إليه الدكتور الغمراوى هو نفس ما قصد إليه الأستاذ سيد قطب فى كتابه (خصائص التصور الإسلامى) الذى أراد به أن يكشف عن الفوارق العميقة بين التفسير الفلسفى للإسلام والقرآن الذى ذهب إليه العقاد ، والتفسير القرآنى للإسلام والقرآن . ولعل هذا كان سر الاختلاف بينهما وسر الخلاف بعد أن بدآ معاً الطريق إلى فهم الإسلام والكتابة عنه فى أول الأربعينات عندما كتب العقاد عبقرية محمد وكتب سيد قطب التصوير الفنى للقرآن . ثم اختلف الطريق . أما العقاد فقد اعتصم بمدرسته الفلسفية الغربية وعرض عليها الإسلام فأصاب وأخطأ . أما سيد قطب فقد خلع ثوبه تماماً وآمن بمفهوم القرآن الأصيل . ولا ريب أن ما قاله الأستاذ أحمد شكرى فى هذا المعنى كبير الدلالة .

أراد العقاد أن يجعل للإسلام فلسفة . وكان يعرض العقيدة أحياناً بأسلوب الفلسفة . ونحن نختلف معه . لأنه لا بد أن تعرض العقيدة بأسلوب العقيدة ، إذ أن عرض العقيدة بأسلوب الفلسفة يقتلها ويطفىء شعاعها ويقصرها على جانب واحد من الكينونة الإنسانية ، وفارق كبير بين التصور الفلسفى والتصور الاعتقادى — ذلك « أن التصور الفلسفى ينشأ فى الفكر البشرى من

صنع هذا الفكر لمحاولة تفسير الوجود وعلاقة الإنسان به ولكنه يبقى فى حدود المعرفة الباردة . أما التصور الاعتقادى فهو تصور ينبثق من الضمير ويتفاعل مع المشاعر ويتلبس بالحياة فهو وشيجة حية بين الإنسان والوجود . وبين الإنسان وخالق الوجود » .

وفى نفس الطريق من التبعية والتغريب إلى الأصالة والمنابع الأولى نجد تلك الأبحاث الواسعة العميقة عن استقلالية الشريعة الإسلامية عن القانون الوضعى ، واستقلالية التربية الإسلامية عن التربية الغربية وذاتية الإسلام الواضحة فى مناهج الاجتماع والنفس والأخلاق بما يختلف اختلافاً واضحاً عن الفلسفة الغربية المادية منها بنوع خاص واستقلالية الإسلام فى منهجه السياسى والاقتصادى عن الرأسمالية والليبرالية وعن الديمقراطية والماركسية والاشتراكية على نحو « مفرد » لأنه ربانى من عند الله . هذه هى الصورة التى تبدو فى أفق الفكر الإسلامى اليوم لتزيح ركام الفلسفات والمفاهيم التغريبية التى حملها الغزو الثقافى من الفكر التلمودى والوثنى والإباحى الغربى ، وألقى بها فى أفق الفكر الإسلامى . وانخدع بها بعض مفكرى الإسلام فحاولوا أن يتخذوا من الأسلوب الفلسفى مدخلا إلى فهم الإسلام . وهى محاولة لهم فيها أجر واحد ، وأما مفهوم حركة اليقظة الإسلامية فقد لمع فى الأفق أول ما لمع قرآنياً ربانياً خالصاً متحرراً من كل مفاهيم المذاهب والفرق .

وبعد فتلك أولى المحاولات فى الكشف عن الظاهرة . أرجو أن تتبعها حلقة أخرى على نفس طريق الأصالة والرشـــد الفكرى . ولعل أهم ما يجب أن أشير إليه هنا أن (الأصالة) قد كسرت ذلك القيد المسموم الذى حاول به دعاة التغريب أن يفصلوا بين الفكر الإسلامى الحديث وبين الفكر الإسلامى فى منابعه الأولى فى عهد رسول الله والصحابة والتابعين .

وأبانت أن الانطلاقة الحديثة مرتبطة ومدعمة بالسابق لها كحلقة من حلقات متصلة لا انفصام لها .

* * *

الفصل الثانى
تحرير القانون واللغة العربية والعلوم الإجتماعية والإنسانية من التبعية

إن مجموعة الأخبار الإسلامية التى حملتها الصحف من مشارق العالم الإسلامى ومغاربه هذا العام (١٩٧٧) تحتاج إلى نظرة تحليل فاحصة لتكشف عن اتجاه الريح ولتدل على مدى إيقاع حركة اليقظة الإسلامية ونبضها والأهداف التى حققتها وصولا إلى مرحلة النهضة :

أولا : الندوة القانونية الأولى لجمعية الحقوقيين المغاربة درست وسائل تطهير القوانين المغربية من التبعية وإرجاعها لأصالتها المغربية بأن يكون استمدادها من الشريعة الإسلامية .

ثانياً : محاولة العمل على إيجاد « لغة علم » : موضوع درسه أحمد البياز المهندس وقد كانت اللغة العربية لغة علم قبل ألف سنة كاملة حينما حملت لواء المنهج التجريبى . وقبل أن تصاب بالجمود .

ثالثاً : دعا المؤتمر الخاص بالعلوم الإدارية الذى عقد فى الإسكندرية إلى وضع معجم موحد للعالم العربى .

رابعاً : فى تونس : نوقشت المسألة الآتية : متى نستطيع تعريب الطب حيث ألقى الدكتور سليم عمار فى كلمة فى كلية الطب محاضرة باللغة العربية واضعاً بذلك حجر الأساس فى تجربة تهدف ولو على المدى الطويل تعليم الطب فى مختلف فروعه باللغة العربية كما هو الشأن فى المملكة العربية السعودية والبلاد السورية مع التفتح باللغة الإنجليزية بالخصوص على الخارج باعتبارها هى اللغة التى تنشر بها حالياً العلوم الطبية أكثر من أى لغة أخرى .

وقد أجمع أساتذة ورؤساء أقسام كلية الطب على فائدة تعلم الطب بالعربية ولو على مراحل طويلة مع اعتماد المصطلحات العلمية التى هى بلغة

أجنبية . وذلك لنكوّن شخصيتنا العلمية الذاتية، ونحافظ على قومية ثقافتنا.

خامساً : قامت جمعية علماء الاجتماع الإسلاميين بالبحث عن السبيل إلى وضع نظرية إسلامية فى علم الاجتماع وقد أصدرت كتاباً ضم أبحاث جمعية علماء الاجتماع الإسلاميين تحت عنوان حركية المسلم وهؤلاء الأساتذة هم : حموده عبدالعاطى — فريد أحمد — إلياس بايونس — خور سيدأحمد — عزب جرادات.

فإذا أضفنا إلى هذا مؤتمرات المملكة العربية السعودية الرائدة فى الاقتصاد والتكنولوجيا والتعليم ومؤتمر الشريعة الإسلامية الذى عقدته جامعة الإمام محمد بن سعود فى الرياض وجدنا أن العالم الإسلامى يجيش بحركة واسعة فى اتجاه « الأصالة » فى مختلف مجالات الفكر الإسلامى خروجاً من الدائرة الصماء التى وضعه فيها الاستعمار أكثر من مائة سنة منذ حجبت الشريعة الإسلامية عن مجال التطبيق فى البلاد المحتلة . ومنذ سيطرت القوانين الوضعية ونظم التعليم الغربى واللغات الأجنبية .

ومن الحق أن المسلمين والعرب لن يستطيعوا تحقيق ذاتهم واستعادة كيانهم ومقدراتهم مالم يكونوا قادرين على الخروج من الدائرة الصماء التى فرضها عليهم الاستعمار . ثم جاءت الصهيونية والماركسية فزادتها حجاباً تحول دون ضوء الإسلام الأصيل من خلال هذه المذاهب والأيدلوجيات والنظريات التى طرحت فى أفق الفكر الإسلامى فى مجال العلوم النفسية والأخلاقية والاجتماعية وفى مجال القانون والتربية واللغة . فأصبح المسلمون تحاكمون أنفسهم إلى منهجهم وشريعتهم . وقد كانت التجربة مريرة . وكانت نتائجها باهظة التكاليف ومع ضربات النكبة والنكسة والأخطار المحدقة تنبه العرب والمسلمون إلى ذلك الخطر الذى يتهددهم — وخاصة فى مجال القانون والتعليم ، فلا سبيل إلى استقامة الحياة الاجتماعية فى بلاد الإسلام إلا بشريعة الله الحق العادلة التى تضع الضوابط الحقيقية والحدود العادلة بين الفرد والفرد والفرد والمجتمع وتعلم نظام الرحمة والإخاء والتكامل والتضامن وتحفظ الأسرة والمرأة والطفل . وقد تعرضت كل هذه الميادين لأخطار لاحد لها خلال فترة توقف الشريعة الإسلامية عن التطبيق فى الوقت نفسه الذى ارتفعت فيه أصوات القانونيين فى مختلف أنحاء العالم فى مؤتمراتهم بعظمة

هذه الشريعة وعطائها. وكانت مفارقة ضخمة أن يتعالى مكان الشريعة وعطاؤها في بيئات الغرب ، وأن يحرم أهل الشريعة أنفسهم من تطبيقها في مجتمعهم .

كذلك الأمر في التعليم : فقد كانت المناهج الغربية الوافدة بعيدة الأثر في « تخريب » الإنسان العربي المسلم وإبعاده عن أصالته وتراثه وتفريغه من مفاهيمه وقيمه . فإذا جاء اليوم الذي يدخل فيه المسلمون ميدان الطب أو العلوم أو التكنولوجيا وجدوا تلك العقبة الكؤود التي تحاول أن تصهرهم في الفكر الغربي وفي لغته حتى يكون (العلم الإسلامي) تابعاً وضالا ومتهالكاً وهو يجري داخل دائرة اللغات الأجنبية . وحتى يعجز المسلمون أن يحققوا عن طريق العلم رسالة الله ودعوته الحق بأن يكون العلم خالصاً للمجتمعات والناس جميعاً ، متجهاً إلى الرحمة والخير ، بعيداً عن الطغيان والتدمير ، مرتفعاً عن الأهواء والمطامع ، سائراً في إطار الأخلاقيات الربانية. ولن يتحقق هذا كله إلا إذا كانت اللغة العربية هي البوتقة التي ينصهر فيها الطب والكيمياء والفلك والصناعة والكهرباء والذرة والتكنولوجيا أساساً فيصبح علماً عربياً إسلامياً.

وهذا هو التحدى الثاني الذي واجهته هذه المؤتمرات ، وهناك المحاولات الهامة لتقديم مفهوم الإسلام في علم النفس والأخلاق والاجتماع .

ومن أصدق هذه المحاولات الدراسة التي قدمها الدكتور مصطفى محمد حسنين في رحاب جامعة الإمام محمد بن سعود وهي مدخل طيب إلى علم الاجتماع الإسلامي بالإضافة إلى الأبحاث الجديدة التي قدمها أعضاء جمعية علماء الاجتماع الإسلاميين في الولايات المتحدة وكندا بكتابهم « حركية المسلم » وقد قام الدكتور محمد عبد الله دراز منهج الإسلام في الأخلاق في أطروحة قدمها إلى جامعة السربون وترجمت أخيراً إلى اللغة العربية فكانت بحق مدخلا إلى نظرة الإسلام للأخلاق. وبقي أن تجد قريباً علم النفس الإسلامي في مواجهة علم النفس اليهودي الذي وضعه (فرويد) أو علم النفس المسيحي الذي وضعه (يونج) ولا ريب أن للإسلام مفهوماً كاملا للنفس الإنسانية يتميز بخصائصه الربانية والقرآنية .

وهكذا نجدنا في جو هذا التحرك الفكري الإسلامي ننطلق إلى تحرير القانون واللغة العربية والعلوم الاجتماعية والإنسانية من التبعية الغربية التي هي قاعدة السيطرة وإدارتها الكبرى بعد أن تحررت أقطار العالم الإسلامي

من الاحتلال السياسى والعسكرى . وحل الغزو الفكرى والتبعية الثقافية محل ذلك الاحتلال توصلا إلى « احتواء » الإسلام فكر أهله فى نطاق الدائرة الصماء المغلقة التى تفقدهم ذاتيتهم وكيانهم وتجعلهم أشبه بصور الكربون التى لا تستطيع أن تكون شيئاً ما . لا من الشرق ولا من الغرب ولا ريب أن هذه اليقظة فى مواجهة التغريب والاحتواء والغزو الثقافى هى من أعظم المنجزات التى تحققت للأمة الإسلامية بعد نكسة حزيران ونصر رمضان وهى علامة واضحة وعميقة على ذلك الطريق الذى يسلكه المسلمون بعد أن تأكدت لهم تلك الحقيقة الواضحة أنهم لن يستطيعوا أن يحققوا « النهضة » إلا بامتلاك إرادتهم والمحافظة على ذاتيتهم ووجودهم الإسلامى الواضح المعالم . وأنهم لن يستطيعوا أن يحملوا رسالة الإسلام إلى العالمين وهى مسئوليتهم الكبرى وأمانتهم إلا بعد أن يقيموا مجتمع القرآن فى أنفسهم وبلادهم نموذجاً صادقاً ونبراساً يرى فيه كل من يحاول أن يتعرف على الإسلام الصورة المثلى الحقة .

ولا ريب أن التحديات الخطيرة التى مر بها عالم الإسلام خلال السنوات المائة الأخيرة من احتلال استعمارى وصهيونية وماركسية ومذاهب مادية ووثنية وإباحية جديرة بأن تلفته إلى حقيقة واضحة هى أنه لابد أن يحرر نفسه من التبعية التى لم تستطع أن تحقق لها إلا مزيداً من الضياع والأخطار وأن منهجه الأصيل هو وحده القادر على إعطائه الطريق المضىء إلى النصر والنهضة والقوة وامتلاك الإدارة .

وأنه لا يزال دون ذلك (محاذير) كثيرة ومؤتمرات عديدة ، ولكن الفهم الصادق والاقتناع الواضح لابد أن يقيم الإدارة الصلبة القادرة على شجب كل محاولات التعويق أو حصر المسلمين فى الحلقة المفرغة .

ولابد من قهر كل عقبة وتذليل كل خطوة وصولا إلى القرن الخامس عشر الهجرى القرن الذى يمكن أن يوصف بأنه منطلق النهضة بعد أن كان هذا القرن سبيل اليقظة .

• • •

الفصل الثالث
من التبعية إلى الرشد الفكري

يرى جاك بيرك فى كتابه « العرب بين الأمس واليوم » أن فى الغرب أزمة بالنسبة للشرق : ذلك أن الغرب لم يعد يستطع أن ينظر إلى الشرق نظرة التابع لثقافته ، أو السوق التجارية له ، أو المسرح لجنوده .

هو قلق على مستقبل الحضارة الغربية يخشى أن يطرحها العرب جملة وهم فى حدة صراعهم المشروع العادل ضد الاستعمار ولكنه يستدرك فيشير إلى أن الحضارة الغربية فيها عيوب أصيلة ويلمح فرصة الخلاص منها فى نهضة العرب الحاضرة ، هذه النهضة التى يمكنها أن تقدم للعالم كله ، « قيما أكثر إنسانية مستمدة من شخصيتهم القومية وتراثهم الخالد » .

والحق أن جاك بيرك يسمى الأسماء بغير مسمياتها ، فليس للعرب نهضة ولا طول ولا حضارة إلا بالإسلام الذى هو مصدر قوتهم ومجدهم وهو أيضاً مصدر الحملات التى يشنها الغرب عليهم ، والعرب مادة الإسلام ، وهم الطلائع التى نشرت الحضارة والعلم فى آفاق القارات الثلاث ، باسم الإسلام الذى هو دعوة التحرر من كل عبودية للأوثان أو للإنسان أو للمادة أو للحضارات .

ذلك هو عطاء الإسلام للبشرية ، وهو مصدر النهضة الغربية التى جاءت بعد الإسلام بقرون قليلة ، وبعد المسيحية بخمسة عشر قرناً . وما زال الإسلام هو الذى حمل إلى الغرب « الإرادة » وبناء الإرادة والقدرة على استكناه الحياة والبحث عن قوانين الطبيعة . وكان الغرب قبل ذلك غارقاً فى السلبية والجبرية والقدرية التى تتمثل فى عصور طويلة من الرهبانية ، ومن قبلها عصور التأمل الفلسفى . أما الإسلام فقد جاء بمنهج التجريب وأخرج الناس من ظلمات الوثنية والجبرية والرهبانية والنظر التأملية ، وعبودية الإنسان والسياط والظلم ، ومصارعة الثيران للإنسان والإباحية

والشكوك إلى نور الحق : نور التوحيد الخالص : الله الواحد الأحد مصدر كل شيء .

وجاك بيرك يعرف هذا . ويعرف أن حضارته أخذت أصول المنهج التجريبي ورفضت أسلوب العيش الأسلامي القائم على : التقوى . الأخلاقية والرحمة . وسارت بالمنهج العلمي إلى الاستعلاء والعنصرية . والجنس الأبيض والاستعمار . وسلب أقوات الشعب .

واليوم حين يستدير الزمن ويعود العرب والمسلمون مرة أخرى ليأخذوا مكانهم الحق تحت الشمس : بالإيمان بالله دائرة تحيط بالتفوق البشرى والطاقة والتكنولوجيا والقوة الاقتصادية ، عند ذلك يحق للغرب أن ينظر فيما هو مصير البشرية : لسوف يعطى المسلمون للحضارة المادية روحها وضياءها ونورها بالحق والعدل والرحمة والإخاء البشرى .

وهذا ما سيقدمه القرآن لأوربا والإسلام للحضارة المعاصرة ، وهو ما يتوقعه جاك بيرك ، وما توقعه كثيرون من الباحثين والفلاسفة الغربيين . وتلك سنة الحياة والحضارات . ولكن المسلمين لن يكونوا ظالمين أو مبطلين بل سيعيشون منهج كتابهم الذى فرض عليهم أن يقاتلوا الذين أخرجوهم من ديارهم . وأن يكونوا سماحاً مع أهل الكتاب جميعاً ماداموا لا يعتدون على مقدسات الإسلام . وقديماً رفض صلاح الدين بعد أن تسلم بيت المقدس أن يفعل ما فعله الصليبيون فقد قتلوا سبعين ألفاً من المسلمين عندما دخلوا القدس ، رفض ذلك وقال : إن الإسلام نهانا عن المثلة .

فليطمئن خاطر جاك بيرك . وليعلم أننا ندفع عن أنفسنا المناهج والنظريات التى تحاول أن تخرجنا من أصول إيماننا ، وتزلزل عقائدنا . لكننا لن نكون عبيداً للماكينة ولن تستوعبنا القوة المادية . بل سنجعلها خاضعة للخير والعدل والحق .

إن المسلمين الآن ينتقلون حثيثاً من اليقظة إلى النهضة . ومن عصر التبعية إلى عصر الرشد الفكرى وهم مقبلون بعد ذلك ، وسريعاً على عصر العطاء : حيث يعطون البشرية نورها وضياءها . سيكون للمسلمين اقتصادهم

المستمد من الإسلام ومجتمعهم القائم على القرآن . ولهم منهجهم الكامل لكل جوانب الحياة البشرية .

فلا خوف عليهم من أن يقعوا فيما وقع فيه الغرب من تمزق . لأن نظرتهم كاملة : قائمة على أساس الترابط بين القيم والوفاق بين الإنسان والكون والجمع بين المطلق والمحسوس . والتلاقى بين الروح والمادة والنفس والعقل . والدنيا والآخرة . فهم بذلك السلوك الإسلامى بعيدون عن التمزق والقلق . ومتحررون من الخطيئة الأولى التى تجعل الإنسان الغربى فى صراع دائم مع نفسه . ولذلك فإن الماضى والحاضر والمستقبل كل هذا مترابط عندهم .

ويتساءل جاك بيرك عما إذا كان العرب سيأخذون بواقعية العالم الحديث أم يحتفظون بمثالهم القديم : وهذا السؤال يدل دلالة أكيدة على عدم تعمق الباحث لحضارة الإسلام القادرة على الجمع بين الواقع والمثال . والتى قامت عليه دوماً دون أن تحتاج إلى الانشطارية التى عرفها الغرب مادية خالصة وعرفتها بعض الحضارات الشرقية روحانية خالصة . ذلك أن الإسلام إنما جاء ليحل للبشرية كل هذه العقد . عقد الصراع بين الفردية والجماعية وبين الروحية والمادية وبين الرموز والأشياء ، وبين الفكر والحياة « أسلوباً ربانياً جامعاً مسعداً للنفس الإنسانية وللجماعة وللإنسانية كلها » .

* * *

الفصل الرابع
للمسلمين دور رائد فى العلوم التجريبية

إن أخطر ما يواجهه المسلمون اليوم : هو قضية « التربية والتعليم » : هذه القضية التى كانت موضع امتحانهم الخطير . والتحدى الكبير الذى واجهوه من الغرب استعماراً وتغريباً وغزواً ثقافياً . وقد تنبه المسلمون منذ وقت بعيد إلى هذا الخطر . ولكنهم كانوا عاجزين عن الحركة واتخاذ القرار . ولكنهم اليوم بعد أن تفتحت الآفاق وقام تعليم إسلامى أصيل بعد نموذجاً حقيقياً لما يوجه شباب الإسلام إلى العزة والكرامة . فقد إرتفعت راية « التعليم فى إطار التربية الإسلامية » .

وكانت صيحة العلامة الجليل السيد أبو الحسن الندوى فى مهرجان لكنؤ الذى حضره علماء التربية والتعليم من مختلف أنحاء العالم نقطة بدء للعمل الجاد .

وهناك قضايا كثيرة يجب أن يتناولها الباحثون بالدرس والعناية من أهمها قضية « الأصالة » فى ارتباط العلوم الحديثة بالمقدمات التى قدمها « المنهج الإسلامى » الأول .

فقد حرص أسلوب التربية الغربى الوافد على فصل التعليم الحديث فى بلاد المسلمين عن جذوره الأولى ، وعن معطياته الحقيقية . ومن هنا فقد تعالت الأصوات بضرورة إعداد مادة تعليمية هامة يطلق عليها « مقدمات المناهج » تتصل بمختلف العلوم والدراسات » من حيث أن الإسلام كان له دور عميق وطويل المدى فى بناء هذه المناهج قبل أن يتسلمها الغرب ويصوغها على النحو الذى يدرس الآن فى الجامعات .

١ - ففى « علم اللغة » : قدم المسلمون منهجاً كاملا لدراسة اللغة وفهمها

مستمداً من اللغة العربية « الفصحى » : لغة القرآن التى نمت وتطورت من اللغة العربية القديمة ، والتى تبلورت فى لغة قريش التى نزل بها القرآن فأعطاها دفعة قوية من الحياة والخلود . وقد نمت هذه المفاهيم ، وجاءت الدراسات الحديثة فتوسعت فيها ، ونشأ ما أطلق عليه « علم اللغة » غير أن معطيات هذا العلم جاءت قاصرة لأنها اعتمدت على تاريخ وتطور اللغات الأوربية اللاتينية الأصل ، وهى لغة نشأت من العاميات القديمة . ثم نمت واحتاجت فى كل فترة إلى أن تتغير . وهى فى ذلك تختلف اختلافاً واضحاً عن اللغة العربية التى عاشت الآن قرابة ستة عشر قرناً دون أن يعتورها تغيير . ولذلك فإن القواعد التى قام عليها علم اللغة الحديث قاصرة على استيعاب تجربة اللغة العربية التى تختلف عن اللغات الأوربية اختلافاً بيناً من حيث استمرارها الطويل ، ومن حيث أثر القرآن فيها ، هذا الأثر الذى أعطاها استدامة الحياة والقوة والامتداد . فضلا عن ارتباطها بالعرب كلغة قومية . وارتباطها بالمسلمين كلغة ثقافة وفكر وعبادة .

٢ – وفى مجال الاجتماع والدراسات الاجتماعية نجد أن ابن خلدون سبق علماء الغرب بأكثر من أربعمائة سنة إلى وضع منهج التاريخ والعلوم الاجتماعية (وذلك بشهادة أقطاب التاريخ والاجتماع فى الغرب) وقد تبين أن كل من جاء بعده اعتمد عليه واعتبره رائداً فى هذا المجال وخاتمة هؤلاء (أرنولد توينبى) المؤرخ البريطانى العالمى .

ولقد اعتمد ابن خلدون فى نظريته ومنهجه على القرآن نفسه . ولم يكن فى ذلك تابعاً للفكر اليونانى أو الفلسفات القديمة . كما يدعى بعض المستشرقين ودعاة التغريب . وذلك بسبب يسير هو أن هذه الفلسفات ما كانت تعرف شيئاً عن (سنن الكون) وقوانين المجتمعات والحضارات التى كشفت القرآن عنها . ودل عليها حين دعا إلى النظر فى السموات والأرض . وإلى السير فى الأرض للنظر فى آثار الأمم القديمة . وكيف تقوضت حضاراتها ومجتمعاتها . هذا الفهم لم يكن معروفاً ألبتة قبل نزول القرآن . وهو هديته وعطاؤه للبشرية . وقد بدأ مع رسالة الإسلام . أما ما جاء بعد ذلك من مناهج « عصرية » فى علم الاجتماع فذلك مستمد من مفهوم الفكر الغربى الذى

اعتمد النظرية المادية . وقصر بحثه فى دائرة المحسوس والمادى . وعجز عن اكتناه عوالم الغيب والمعنويات والروح ، وهى عوالم لها أهميتها الكبرى فى وضع مفهوم سليم للاجتماع .

٣ – وفى مجال الأخلاق ودراستها نجد أن أصول الأخلاق قبل الإسلام كانت قائمة على مفاهيم يونانية عقلية خليط عجيب من النظريات والمفاهيم الأبيقورية والرواقية المتضاربة . ثم جاء الإسلام ليقرر أن الأخلاق قانون ثابت للنفس البشرية . مرتبط بالدين داخل فى دائرته لا ينفصل عنه . ولا يتغير بتغير الأزمان أو البيئات . وهو الركيزة الأساسية للحضارات والمجتمعات ، وأن الأخلاق هى قيم ثابتة ثبوتاً أصيلا . ومرتبطة ارتباطاً تاماً بالدين الحق . فلا تقوم أخلاق منفصلة عن الدين . ولا يمكن أن تكون الأخلاق نسبية . ثم جاء الفكر الغربى فى مرحلتيه : المثالية . والمادية . فغير وبدل . وفرض فروضاً أخرى مرتبطة بالفلسفة المادية . ومستمدة من الفكر اليونانى الوثنى القديم حاول فيها الادعاء بأن الأخلاق نسبية . وأنها من صنع المجتمعات . وذلك لعجزه عن التفرقة بين الأخلاق التى هى مرتبطة بالدين والتقاليد المرتبطة بالفكر البشرى .

٤ – وفى دراسات النفس نجد أن الإسلام قدم مفاهيم ربانية أصيلة تختلف اختلافاً عميقاً عن الفكر اليونانى والوثنى والغنوصى القديم . وقام مفهوم الإسلام على الإنسان روحاً ومادة . وعقلا وقلباً . وعاطفة وفكراً وكشف الإسلام عن حقيقة النفس الإنسانية واستعدادها للخير والشر . ودعوة الأديان لها لتقبل طريق الخير الذى هو مصدر سعادتها وسلامتها النفسية والاجتماعية . وانتقالها من الفردية إلى الجماعية ومن الأنانية إلى الغيرية ثم جاءت نظريات الفكر الغربى لتقدم مفاهيم الجنس والشك والانطلاق وكسر قيود الفضيلة والدين والخلق فى نظريات فرويد وسارتر والوجودية والهيبية وغيرها . فأثارت روح التمزق والغربة والقلق والضياع والغثيان فى المجتمع الغربى ، وحاولت هذه النظريات أن تطرح نفسها فى أفق الفكر الإسلامى عن طريق الجامعات والمعاهد .

٥ – وفى القانون جاءت الدراسات الحديثة منفصلة عن الشريعة

الإسلامية فى إعلاء عجيب للقانون الوضعى الذى لم يكن إلا تلك المواد الفقهية التى جمعها الفرنسيون من مصر والمغرب فأقاموا بها قانونهم الذى يباهون به العالم ، وقد أعان على هذه العناية سقوط العالم الإسلامى فى براثن الاستعمار . حيث سيطرت القوانين الوضعية على أجزاء كثيرة فرضت نظامها الربوى الاقتصادى . وقانون عقوبتها الخالى من حدود الإسلام فأثارت بذلك فى المجتمع الإسلامى روح الفساد والأنانية والحقد ، واستفاد من ذلك المرابون اليهود والمستغلون الأجانب ، وفى السنوات الثلاثين الأخيرة جرت محاولات كثيرة للكشف عن عظمة الشريعة الإسلامية واعترفت أوربا فى عديد من مجتمعاتها بعظمة هذه الشريعة وكمالها . بل إن علماء القانون الغربيين أخذوا منها نصوصاً كثيرة حولوها إلى قوانين كانت بعيدة الأثر فى إصلاح المجتمعات .

وما تزال الشريعة الإسلامية غريبة على كليات الحقوق ودراسات القانون مع أنها هى أعظم الشرائع وأقواها وأكثرها سداداً .

٦ ـ وفى الأدب حاول الفكر الغربى أن يفرض مفاهيم غريبة حقاً عن مفهوم الفكر الإسلامى . ذلك لأنها استمدت أصولها من النظرية المادية ، ومن التفسير الاقتصادى وكلاهما قاصر عن فهم النفس الإنسانية وعواطفها ومشاعرها وأهوائها ومطامحها . كانت نظريات برونتيروتين وسانت بيف . وما تزال هى المفاهيم السائدة فى نقد الأدب وهى بعيدة كل البعد عن أصالة النفس العربية الإسلامية ومفاهيمها . ولقد قدم الأدب العربى الإسلامى مفهوماً يتسم بالتكامل بين النفس والجسم ، وبين القلب والعقل ، وهو فى الوقت نفسه أخلاقياً ربانياً يتطلع إلى ضياء الحق والخير والرحمة والإخاء الإنسانى .

٧ ـ وللمسلمين أوليات واسعة النطاق فى مجال الجغرافيا لا سبيل إلى تجاهلها أو إنكارها . هذه الأوليات تشهد بأن ما وصل إليه العلم الحديث فى مجال الكشف والرحلة فى آفاق السماء أو فى المحيطات والبحار كان بفضل تلك الحقائق التى وصل إليها جغرافيو المسلمين ونموها وحققوها . ومن ذلك مثلا أسماء النجوم ، وأجواء الشتاء والصيف فى البحار والأنهار . وحساب

البروج والأزياج مما كان لهم فيها دور كبير . وما تزال كتب الجغرافيا الأدبية تحمل أسماء النجوم العربية التى وضعها المسلمون ، وكذلك كانوا فى ريادة البحر . ومازال اسم أحمد بن ماجد معلناً فى الغرب ، لأنه كان قائد المركب التى كشفت الهند . ولكن ما تزال كتب الجغرافيا ودراساتها فى جامعاتنا تتجاهل هذه الحقائق وهذا الدور .

٨ ـ فى مجال الآثار : كان هدف الكشوف الأثرية هو إعادة الحديث عما قبل الإسلام . وإحياء الفرعونية والفينيقية والأشورية والبابلية وغيرها ، ومحاولة الانتساب إليها من جديد . كذلك كانت أهداف الحفريات الأثرية الكشف عما يؤيد الصهيونية فى دعواها المضللة فى فلسطين والقدس .

والهدف هو القضاء على الارتباطات التاريخية القائمة بالإسلام بإحياء روابط أقدم منها اندثرت وانقطعت الصلات بينها وبيننا تماماً . ولقد أخفقت هذه الكشوف فى أن توجد نقطة اتصال أو حلقة مفقودة . ثم تبين أن معظم هذه الحضارات وليدة موجات عربية خرجت من الجزيرة العربية وانداحت فى أفق البلاد العربية ، والإفريقية . فهى عربية الأصل مهما تسمت بأسماء مختلفة ، وتشترك فى لغاتها فى جذور اللغة العربية . ومع ذلك فلا تزال أبحاث الآثار تحاول أن تعلى التاريخ الحضارى القديم الذى انقطع .

٩ ـ وفى مجال العلوم : نجد أن هناك نقصاً بعيد المدى ، فإن هذه العلوم تدرس اليوم وكأنها وليدة الفكر الغربى الحديث ، وكأن لم يكن للمسلمين أى دور فى بناء مناهجها . مع أن العرب والمسلمين بعد نزول القرآن وبمنهج القرآن فى الدعوة إلى النظر فى الآفاق واكتناه أسرار الطبيعة والأرض وما تحت الثرى ، كل هذا هدى المسلمين إلى المنهج العلمى التجريبى الذى هو « أرضية » الحضارة الحديثة ومصدرها الحقيقى . ومنطلقها الذى بدأه علماء المسلمين . وذلك ما يشهد به الآن جميع المؤرخين والباحثين الغربيين . وقد كانت معطيات المسلمين فى الطب والفلك والعلوم الطبيعية والكيمائية عظيمة وجليلة القدر . ولكنها لا تذكر فى مقدمات دراسات العلوم .

١٠ ـ وللمسلمين فضلهم وإضافتهم فى مجال السياسة والاقتصاد والتربية .

فقد أصلوا هذه المناهج وأعطوها المفهوم الربانى القائم على الحق والعدل والرحمة بعيداً عن ميكافيليات السياسة ، أو مظالم الاقتصاد . وما يزال منهج الإسلام فى السياسة والشورى . وفى الاقتصاد والسماحة ، وفى التربية وبناء الأجيال من أبرز ما عرفه العلماء والباحثون واهتدوا به إلى النموذج الكامل للأمة المؤمنة المتقدمة على طريقى المعنويات والماديات فى الوقت نفسه .

وهكذا نجد أن إنشاء هذا المنهج فى التعرف على دور الإسلام فى العلوم الإنسانية والتجريبية وتقديم هذه الإضافة الضخمة إلى مناهج الدراسات الحديثة ضرورة ملحة تقتضيها الأمانة التاريخية من ناحية ويلزمها حاجة المثقفين المسلمين إلى التعرف على الدور الضخم الذى قام به أجدادهم . وهذا مانوه به الدكتور محمد عبده يمانى فى لقائه مع رواد الفضاء الأمريكيين . . . كذلك فنحن فى حاجة إلى أن نواجه المناهج المستحدثة فى العلوم الإنسانية كعلوم النفس والأخلاق والاجتماع ، ونكشف رأى الإسلام فيها . ذلك أن حاجتنا إلى العلوم الحديثة تقصر عند العلوم التجريبية ، والتكنولوجيا لندخلها فى إطار الفكر الإسلامى واللغة العربية ، ولنصنع منها مفهوماً إسلامياً ربانياً قائماً على التوحيد والعدل والإخاء البشرى . والرحمة كما فعل المسلمون فى صدر الإسلام .

* * *

الفصل الخامس

الخلافة الإسلامية بعد نصف قرن

لم تسقط الخلافة الإسلامية بجرة قلم عام ١٩٢٤ عندما ألغاها مصطفى كمال أتاتورك . وإنما يمكن أن يقال إن هذه هي آخر خطوة فى مؤامرة ضخمة واسعة النطاق امتدت سنوات طويلة وشاركت فيها قوى كثيرة ذات مصلحة فى تمزيق العالم الإسلامى مثل : إنجلترا وفرنسا . ومنها ما كان يهدف إلى الوصول إلى فلسطين وإلى قلب القدس كالصهيونية العالمية ولذلك فإنه من الخير أن نتوقف قليلا بمناسبة مرور نصف قرن على هذا الحدث الهام لنعرف كيف حدث . وما هى آثاره القريبة والبعيدة .

ولنعلم أولا أن المحاولات التى جرت عام ١٩٠٨ لإسقاط السلطان عبد الحميد . كانت هى المقدمات الحقيقية لإلغاء الخلافة — فقد كانت فكرة عبد الحميد أن يمتد نفوذ الخلافة فيشمل عالم الإسلام كله . ولا يتوقف عند حدود الدولة العثمانية التى تجمع بين العرب والترك فحسب وقد أخذ عبد الحميد بهذه الفكرة كخطة لمواجهة محاولات الغرب التى جرت طويلا لتمزيق الدولة العثمانية والقضاء عليها . والتى بلغت أكثر من مائة مشروع كما أشار إلى ذلك الوزير الإيطالى (جودفارا) فى كتابه المعروف . ومنذ تولى عبد الحميد ورأى انتقاض البلقان على الدولة . ركز نفسه على دولة إسلامية جامعة تحمل لواء الوحدة الإسلامية . وتضم مختلف المسلمين الذين هم خارج نطاقها السياسى إليها باعتبارها جامعة تواجه الزحف الغربى الطامع إلى تمزيق أديم عالم الإسلام والسيطرة عليه . ولما نجحت الخطة وكادت أن تؤتى أكلها . والتقى شيعة إيران مع سنة تركيا لأول مرة بعد أن حفر الاستعمار بينهما خندقاً عميقاً منذ ثلاثة قرون أو يزيد عجل الاستعمار والصهيونية بالقضاء على عبدالحميد خاصة لموقفه الحاسم فى الحيلولة بين اليهود وبين فلسطين وتصريحه الخطير الذى وجهه إلى هرتزل . غير أن الأمر لم يكن ابن ساعته ذلك أن (الدونمه)

وهم جماعات اليهود التى هاجرت من الأندلس الإسلامى بعد فقدانه كانت قد تركزت فى (سلانيك) وأعلنت إسلامها تقية ، وأخذت تعمل فى سبيل ذلك المخطط الخطير .

ولما ظهرت حركة الاتحاد والترقى احتضنت المحافل الماسونية فى سالونيك أعضاء الاتحاد وحولتهم من خطة إصلاح عثمانية داخل الدولة الإسلامية الكبرى إلى خطة تغريبية عنصرية تحمل لواء (الطورانية) وتدعو إلى تتريك العرب ودفعهم إلى تلمس مفهوم الماسونية فى الثورة الفرنسية والاستجابة له . وبذلك كانوا جميعاً غير مسلمى الفكر أو عربية . وكانت مفاهيم القوميات والإقليميات والطورانية والعنصرية قد سيطرت على فكرهم واستهدفت الانفصال عن المفهوم الإسلامى والكيان الإسلامى وقد ظلت فى حضانة الدونمة الماسونية منذ بدأت حتى استطاعت أن تصرع الوحدة الإسلامية الجامعة بانتزاع عبد الحميد من مكان القيادة ثم جاء الاتحاديون فأقاموا عهداً أسوداً فى تركيا منذ ١٩٠٨ إلى نهاية الحرب العالمية الأولى . ثم لبسوا ثوباً جديداً أسموه (الكمالية) وهو امتداد جديد لهم كان أشد خطراً ،وأعمق أثراً جاء بعد أن كسبوا ما كسبوه من نصر باسم الإسلام ، ثم استداروا عليه استدارة كاملة بعد أن كانت تلك هي الورقة التى حققوا بها النصر . وقد وردت فى المواثيق التى كشف أمرها أخيراً مواقفهم المصرة على خلع الإسلام واللغة العربية والمحاكم الشرعية وملابس الإسلام وشريعته ثمناً لتخليصهم من الاحتلالين البريطانى واليونانى . كان إعلان تركيا دولة علمانية كفيلا بأن يحقق لها رضاء الغرب وتسليمه وتحرره . فقد انفصلت عن الأمة الإسلامية وعن الإسلام وعن الأخوة العربية الإسلامية واندمجت كلياً فى الغرب العلمانى فأقامت قانون نابليون بديلا من الشريعة الإسلامية – وسرعان ما حققت الأمل الذى طالما طاف بأحلام الغرب : روسية إنجليزية وفرنسية ويهودية ، هو أن يقضى مسلم بيده على خلافة الإسلام ، ولكن أتاتورك لم يكن مسلماً فى حقيقته وإنما كان من الدونمة التى تخفت لتحقيق كل ما استطاعت أن تحققه فى تركيا . وكان همه إسقاط الخلافة . وفى سنوات قليلة من ١٩١٨ – ١٩٢٤ تحولت تركيا دولة الخلافة العثمانية وتاج العالم الإسلامى إلى دولة غربية علمانية تحكم بقانون نابليون ، وتزيح بكلتا يديها ذلك التراث العظيم وتقاوم رجاله ودعاته

ومؤسساته . وهكذا سقطت الخلافة بمؤامرة مشتركة بين اليهود الدونمة والاتحاديين الكماليين والقوى الاستعمارية الغربية وروسيا .

ولقد أسقطت الخلافة وإيوانها وأطرافها، ليس بأسلوب الإقناع والتغيير النفسي والفكري . ولكن بأسلوب العنف والقتل والاستبداد والظلم ، الذي قامت به (ثلة) أعدت له وخطت إليه في مرحلتين طويلتين منذ ١٩٠٩ إلى ١٩١٨ باسم الاتحاديين . ومن بعدها إلى عام ١٩٢٤ باسم الكماليين وهما شيء واحد استطاع في أول الأمر أن يفتح الباب للصهيونية العالمية إلى فلسطين بعد أن استعصى عليها طويلا أيام السلطان عبد الحميد . وبالرغم من كل المحاولات التي دارت معه وبواسطة كل من يتصل به ، وأسلمت طرابلس الغرب للإيطاليين ، ودفعت الدولة العثمانية إلى أن تكون وقوداً في الحرب العظمى دون داع حتى تنفصل عنها الشام والعراق ، وحتى تسلم فلسطين لليهود .

وحاولت الصحف الموالية للتغريب تصوير المسألة بصورة كاذبة مضللة ، وأن تجعل ذلك الاتجاه رمزاً على التقدم حتى خشى مصطفى صبرى شيخ الإسلام الذى أخرجوه وأقام في مصر آنذاك من هذا التحول المحاط بهالة كاذبة من التكريم حين قال : إنى أخاف أن تسعد بلاد تركيا وترقى بهذه الإدارة الحديثة اللادينية رقياً دنيوياً ، وإن كان ذلك في غاية البعد والاستحالة فيفتتن بها المسلمون الذين قلما سلموا من أن يعجبوا بها وهى تتوغل في سبيل الإفلاس والاندراس . وتكون فتنتها عليهم أكبر مما تقدم وأشأم « **ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة** » وإنما نقول للشيخ من وراء القبر اطمئن . فإن تركيا لم تسعد . وإن التجربة لم تحقق أى نجاح . ولم تتقدم تركيا عن الدول الأخرى . بل لعلها ما زالت تقاسى من صراعاتها ومتاعبها . وإن كانت قد فاءت إلى الحق ، وعرفت ما وقعت فيه ، وهى تحاول اليوم أن تستعيد إيمانها الإسلامى ، لأنها في جوهرها مسلمة عميقة الإسلام . أما ذلك الاتجاه الغربى الزائف الذى فرض عليها فإنه كان عاملا من عوامل ضعفها وجمودها . حتى أن الغربيين أنفسهم الذين ورطوها لتكون غربية عادوا فنعوا عليها أنها لم تستطع أن تشارك في الحضارة الغربية أو تقدم شيئاً ما في

مجال التكنولوجيا أو العلم او البناء أو الفكر وأثبت ذلك بصراحة تامة المؤرخ البريطانى العالمى توينبى فى كتابه (العالم والغرب) ونحن نعرف أن أكبر ما غذيت به حملة إسقاط الخلافة كانت تلك التصورات الباطلة التى نسبت إلى (عبد الحميد) : الظلم والاستبداد . بينما كل ما كان يحاول عبد الحميد قمعه والحيلولة دونه هو سقوط الدولة العثمانية فى براثن القوى الصهيونية والاستعمارية التى كانت تريد التهامها وتقسيمها وتسليم فلسطين لليهود . ومن أجل ذلك استحق الخلع واستحقت الخلافة الإزالة بأيدى من تسموا بأسماء المسلمين . وفى مقدمتهم مصطفى كمال الذى كان يدعى أنه مسلم ويدعو المسلمين إلى الدعاء له بالنصر حتى إذا ما وجد فرصته ضرب ضربته وسط دهشة العالم الإسلامى كله وعجبه . وفى الحقيقة أن الخلافة لم تكن مصدر انحطاط تركيا ولا العالم الإسلامى ، ولم يكن أسلوب تعديلها هو إزالتها . أو فصل السلطنة عن الخلافة كما فعلوا أولا ليخدعوا الناس ثمة . وليكون ذلك مقدمة للقضاء النهائى عليها . وإنما كانت هناك مشروعات كثيرة للإصلاح إذا خلصت النيات . وحسن الاتجاه إلى الإبقاء على وحدة العالم الإسلامى وقيام خلافته . وإذا كانت هناك مقايسات لما وصف به عبد الحميد من تسلط أو استبداد فأين منه ما قام به الاتحاديون والكماليون الذين باعوا آخرتهم بدنياهم . وهو ما لم يفعله الخلفاء قط . وبينما وقف الأعزل عبد الحميد أمام قوى الصهيونية العالمية . وهى تغريه بالملايين وهو يعرف مؤامرتها ونفوذها . وقف صامداً لا يلين . بينما نجد الاتحاديين أبناء المحافل الماسونية وعبيد الدونمة يستسلمون ويضيعون فى عشر سنين من البلاد التى ورثوها عن الخلفاء الكبار ، وخاصة فلسطين وطرابلس . لقد كان من وراء إسقاط الخلافة الإسلامية أهدافاً كثيرة . كان أكبرها تمزيق هذا الشمل الذى جمعته الوحدة الإسلامية بين مسلمى العالم وتفريق هذا الجمع الذى ربطته الدولة العثمانية ليسهل توزيعه . وتقديم فلسطين والقدس لقمة سائغة للصهيونية العالمية التى كانت وراء الربا العالمى منذ عصور بعيدة عاملة على تقريب المسافات إلى تحقيق الغاية من وراء الاستعمار الغربى ، ومن أهدافها محاولة « حجب » حقيقة الإسلام الجامعة بين الدين والدولة . والقائمة على أن الإسلام دين ونظام المجتمع . وإثارة الشبهة

حوله بتصويره ديناً لاهوتياً على النحو الذى صوره به الكماليون فى تركيا . وعلى عبد الرازق وجماعته اللادينيون فى مصر .

وإذا كان الهدف الأول قد تحقق لأنه داخل فى نطاق مرحلة الضعف التى أرخت قبضة المسلمين عن حقوقهم وممتلكاتهم وسلطانهم . فإن الهدف الثانى لم يتحقق لأنه إذا استقام لم يقع الهدف الأول : ذلك أن المسلمين حين عجزوا عن فهم دينهم وتطبيقه أخذتهم الدواهى من كل مكان وحاقت بهم المدلهات ، وليس هناك مدلهمة أكبر من مدلهمة الخلافة التى قطعت أوصال وحدتهم من ناحية . وأخرجتهم عن مفهوم الإسلام الجامع بين الدين والدولة .

وإذا كان اللادينيون فى تركيا الكمالية أمثال أحمد أغايف ويوسف أشقورا وهم فى نظر مسلمى الأتراك ليسوا منهم قد كتبوا حول هذا المعنى ما نقله واقتبسه خريج الأزهر الضال (على عبد الرازق) فإن الأجانب والمستشرقين جميعاً كذبوا ذلك كله فيما فهموا به الإسلام وصوروه به .

أما من جانب المفهوم الإسلامى فقد قال الدكتور (فيتزجيرالد) فى كتابه (قانون المحمديين) : ليس الإسلام ديناً فحسب . بل هو نظام سياسى أيضاً . وعلى الرغم من أنه قد ظهر فى العهد الأخير بعض أفراد من المسلمين ممن يصفون أنفسهم بأنهم عصريون يحاولون أن يفصلوا بين الناحيتين . فإن صرح الفكر الإسلامى كله قد بنى على أساس أن الجانبين متلازمان ، ولا يمكن فصل أحدهما عن الآخر ، وشهد بذلك (نلينو) الذى قال : إن محمداً أسس فى وقت ما ديناً ودولة ، وكانت حدودهما متطابقة طوال حياته وذلك ما عبر عنه (شاخت) حين قال : على أن الإسلام يعنى أكثر من دين أنه يمثل أيضاً نظريات قانونية وسياسية ، وجملة القول أنه نظام كامل من الثقافة يشمل الدين والدولة معاً ، وهو ما أشار إليه (جب) حين قال : لقد صار واضحاً أن الإسلام لم يكن مجرد عقائد دينية فردية ، وإنما استوجب إقامة مجتمع مستقل ، له أسلوبه المعين فى الحكم ، وله قوانينه ونظمه الخاصة به . هذا من ناحية (الفكرة) أما من ناحية التطبيق فإن (الفرد كانتول سميث) فى كتابه عن الإسلام فى العصر الحديث كتب تحت عنوان (الإسلام والدنيوية التركية) ما يفهم منه أن سقوط الخلافة الرسمية وإلغاء نظام الإسلام فى تركيا

ليس إلا عملا قامت به جماعة حاكمة ، ولكنه لا يمثل شعور الأمة ولا يطابق سلوكها . يقول : (إن القول بأن الأتراك بإيثارهم الدنيوية قد تخلوا عن الإسلام لا يحظى بتأييد من الباحثين فى الشرق أو الغرب ، وإنما هو مجرد إحساس شائع بين الأوربيين والمسلمين فى الأقطار الأخرى والمسألة فى حقيقتها لا تعدو الهيئة الحاكمة) .

ولذلك فإنه يؤسفنا أن يجرى بعض الباحثين العرب والمسلمين وراء مفاهيم الغربيين من خصوم الإسلام والدولة العثمانية ، ويرددن كلماتهم ويلوكون عباراتهم ويعادون منطق الأشياء الحقيقى . ويخرجون بذلك عن دينهم وأصالتهم دون أن يقدروا النتائج التى تجىء من بعد ، والتى هى أكبر من تقديرهم وإدراكهم ، فنجد واحداً منهم : مثل الدكتور الخربوطلى الذى يقول حين ألغى الأتراك الخلافة فى ٣ مارس ١٩٢٤ - (فأفلت شمس الخلافة الإسلامية « إلى الأبد ») .

وكيف يمكن لباحث أو مؤرخ أن يتنبأ بأن الخلافة قد أفلت شمسها إلى الأبد . وهل يملك هو من الأدلة على ذلك دليلا واحداً أو نصف دليل . وهو قول لم يقله أكثر الغربيين تعصباً ضد الإسلام .

واليوم يرى الدكتور الخربوطلى أنه كان قصير النظر مبطلا . فإن الحديث عن الخلافة لم يتوقف يوماً واحداً ، جرى فى مناهج الجمعيات الإسلامية فى العالم الإسلامى كله كغاية لا بد من ملاحقتها وجرت حركات التجمع لتذكر دوماً بهذا الحق الذى لا تطويه الأيام ولا تخفيه الأحداث مهما تغلف بالضباب ، وقد سمعنا فى الأعوام الأخيرة صيحات الدعوة إلى عودة الخلافة عالية وقوية من رجال مسئولين . وما يزال المؤتمر الإسلامى الذى يضم أكثر من أربعين دولة إسلامية يضع هذه الحقيقة أمامه - كذلك فإن هذه الكتابات حاولت تصوير الخليفة المسلم على أنه شبيه بالبابا فى رئاسته الروحية للكاثوليك . وكان أول من تعرض لها كاتب غربى متعصب هو (درسون فى كتابه عن نسب آل عثمان) الذى كتبه بالفرنسية وهو ليس موضع استشهاد المؤرخين المنصفين . ولن يكون .

وإذا كانت تركيا قد هزمت فى ظل الخلافة حين دخلت الحرب العالمية

الأولى . فإن الخليفة إذ ذاك لم يكن هو الذى أعطى إذن الدخول فى الحرب بل أعطاه الاتحاديون . وكان الخليفة شبه معزول عن الحكم . ولما فرق الأتراك بين الخلافة والسلطنة رفض المسلمون ذلك وأعلنوا أنه معارض لطبيعة الإسلام . وأن الخليفة رئيس دينى وحاكم سياسى وليس كالبابا الذى تقتصر وظيفته على الرئاسة الروحية .

نعم إن المسلمين بعد إلغاء الخلافة لم يستكينوا إلى الهزيمة التى فرضت عليهم . ودبرت من وراء إرادتهم الحرة ، ولكنهم فكروا وقدروا وعملوا لمواجهة هذا الفراغ بروابط كثيرة ومؤتمرات متعددة ، وإن كانت القوى الاستعمارية قد حالت دون أن يحققوا الوحدة السياسية فإنهم حققوا وحدة اجتماعية وجدانية ما تزال قوية وقادرة على أن تحقق (وحدة الفكر) فى القريب . ولقد كانت الأزمات دائماً قادرة على تجميع المسلمين ووحدتهم إزاء الأحداث . ولم يكن عمل عبد الحميد فى هذا التجمع إلا قمة الإيمان والمسئولية . وإذا كانت حركته إلى الوحدة الجامعة سقطت فليس لأنها فشلت . بل لأنها نجحت نجاحاً مذهلا مما دفع القوى الاستعمارية والصهيونية إلى إجهاضها بإسقاطه قبل أن يتمكن من وضع القواعد التى يمكن أن تسير عليها بعده .

ولقد كانت الدعوة إلى (الطورانية) التى أدخلها إلى الدولة العثمانية عتاة دعاة التغريب قد عملت على تشكيل بؤرة لها فإنما أريد بها إثارة العرب إلى دعوة القومية العربية . ولم يكن العرب قبل ذلك ينظرون إلى هذا الاتجاه الذى يتصل بالعناصر والدماء ، ولكن العرب كان عليهم بعد أن سقطت وحدتهم الإسلامية الكبرى الجامعة بينهم وبين الأتراك فى دولة الخلافة . كان عليهم أن يتحدوا فى إطار الممكن . وكان هذا هو إطار لغتهم ، ولكنهم لم يكونوا يوماً يفهمون من العروبة ما فهمه الغرب من القومية . ذلك أن العروبة نشأت فى أحضان الإسلام سمحة مؤمنة بالإخاء الإسلامى الأكبر بعيدة عن العنصرية والتعصب والصراع . وقائمة على وحدة قرآنية بالشريعة والإيمان ولكن القوى التغريبية هى التى أفسدت مفهوم العروبة وأحلت مكانه مفهوم القومية .

لم يكن عبد الحميد إلا مواجهاً للموقف الخطير الذى وحد المسلمين أنفسهم إزاءه بعد احتلال فرنسا للجزائر ، وروسيا للقوقاز ، وإنجلترا للهند وهولندا لأندونيسيا ، فدعا إلى تلك الوحدة الجامعة وعمل لها بكل ما بين يديه من مقدرات . أما دعوة جمال الدين فلم تكن سابقة ، ولكنها كانت محاولة أخرى فى إيقاظ قطر من الأقطار (وكان الأمل فى فترة أن يكون مصر) لإقامة حكومة وطنية متحررة من النفوذ الغربى تكون نواة لوحدة وصفها بأنها ليست حكومة جامعة . ولقد كانت تجربة عبد الحميد أقوى لأنها انبثقت من الواقع الحى ، أما رؤية جمال الدين فقد ظلت (طوبيا) لأنه لم يجد القطر الذى يبدأ منه . ولذلك فقد آثر أخيراً أن يقبل بمشروع — عبد الحميد ، لأنه كان قد قطع شوطاً واسعاً فى النجاح ، والحق أن جمال الدين لم يكن يصلح لقيادة وحدة ، ولكنه كان يصلح فى إطار الجامعة الإسلامية التى دعا إليها عبد الحميد ممثلا وداعياً إلى الجمع بين السنة والشيعة . وهو ما اتفق الرجلان عليه ، ولكن القوى الغاصبة ضربت كل الخيوط المتجمعة فى يد عبد الحميد ، بضرب عبد الحميد نفسه حتى فى مصر ضرب الحزب الوطنى الذى كان مرتبطاً بهذه الدعوة بحزب لطفى السيد (حزب الأمة) العنصرى المتعصب ضد العروبة والإسلام جميعاً وضد الفكرة الإسلامية نفسها كمنهج حياة . ولقد تنبه الغرب إلى أن خطة عبد الحميد أوشكت على النجاح حين أرسل السفير البريطانى مذكرته المعروفة التى أشار فيها عام ١٩٠٧ إلى أن أبرز أحداث السنوات العشر الأخيرة ، كانت فى خطة السلطان عبد الحميد الماهرة التى استطاع بها أن يظهر أمام ٣٠٠ مليون مسلم فى ثوب الخليفة الذى هو الرئيس الروحى فى الدين الإسلامى ، وأن يقيم لهم البرهان على قوة شعوره الدينى وغيرته الدينية ببناء سكة حديد الحجاز (الوثيقة كاملة فى كتاب يقظة العرب لطانيوس) يقول : لقد أصبح حائزاً على خضوع رعاياه خضوعاً أعمى لم يسبق له مثيل .

هذا هو النذير الذى جمع القوى الاستعمارية للقضاء على عبد الحميد وكان سقوط عبد الحميد عاملا هاماً فى :

١ — تجميد فكرة الجامعة الإسلامية إلى حين .

٢ ـ القدرة على إزالة الخلافة الإسلامية إلى حين أيضاً .

وليس إلى الأبد كما يقول بعض الحاقدين على الإسلام أتباع الاستشراق والغزو الثقافي وهكذا نرى أن (سقوط الخلافة) لم يكن وفق سنة طبيعية أو قانون اجتماعي صحيح . ولكنها كانت عملية إجهاض زيفت لها مبرراتها وضلل بها الكثيرون . ولذلك فإن الخلافة الشرعية ستظل في فقه المسلمين وشريعة الإسلام عموداً أساسياً . فهي جزء لا يتجزأ من الإسلام . بل هي الإسلام ذاته . ولعلها سقطت لتسقط معها خلافة التغلب والقوة التي عجزت عن التطبيق الحقيقي . لتعود الخلافة الشرعية الحقة .

الفصل السادس
محاولات التقارب والحوار

فى ٢١ إبريل ١٩٧٣ كتبت جريدة لوموند بأحرف كبيرة هذا العنوان على رأس مقال هام من مقالاتها (خطة لتمسيح العالم المعاصر) . وجاء فى مقدمة المقال من بين جميع المواضيع العديدة المنوعة التى عرضت على البابا كجدول أعمال المجلس البابوى لعام ١٩٧٤ الذى سيعقد فى روما . اختار هذا الموضوع بالذات : آفاق عام ٢٠٠٠ لتمسيح العالم المعاصر . وهناك خريطة وإحصائيات لآفاق عام ٢٠٠٠ مسيحية . وهناك عنوان آخر (المسيحية تنزلق إلى الجنوب) ويقول إن نسبة المسيحيين فى الجنوب . أى فى إفريقيا ، وجنوب شرق آسيا بصفة أخص ستكون أكثر مما هى فى أوربا ، هذه الإحصائيات وهذه الآفاق والتقديرات يعطونها بكل صراحة . وتنشر ولا تكذب حتى الآن من طرف روما ولم يعلق عليها بشىء . وهذا يعنى أنها صحيحة وجادة .

نقلنا هذا النص من كتاب (انية وأصالة) للأستاذ مولود قاسم وزير التعليم الأصلى الجزائرى — وهو منقول من الوثائق الرسمية لحكومة الجزائر التى تواجه الغرب مباشرة وتتصل بكل دقائق التحركات الفكرية والدينية فى فرنسا وإيطاليا وأوربا جملة وتفصيلا .

١ — فإذا أضفنا إلى هذا ما نشرته جريدة الصليب فى فرنسا عام ١٩٧١ من أن الذين تمسحوا فى المدة الأخيرة فى أندونيسيا عام ١٩٤٧ . أى منذ الاستقلال حتى الآن (أحد عشر مليوناً) وقالت إنه بعد عودة البابا من أندونيسيا والفلبين فإنهم يركزون على بنجلاديش . كما يركزون على إفريقيا (جنوبها وشمالها وشرقها وغربها ووسطها وحواشيها) .

إذا أضفنا هذه الوثيقة أيضاً — وهى مما أورده مولود قاسم — تبين لنا أبعاد الصورة الخطيرة التى نواجهها فى جنوب شرق آسيا .

٢ – وقد نشرت مجلة الاعتصام القاهرية فى هذا الشأن بحثاً تحت عنوان (مؤامرة على الإسلام فى جنوب شرق آسيا) أشارت فيه إلى أن المؤامرة تستهدف المنطقة كلها (الفلبين – وأندونيسيا – ومالبزيا) وفى كل من المناطق الثلاث أسلوب مختلف . وقد أشارت بعض التصريحات إلى أن زمناً لا يتجاوز العشر سنوات . وأن الأسلوب الذى اتخذ فى الفلبين هو التصفية الدموية . أما فى أندونيسيا فهو التبشير المسيحى . أما فى تايلاند فهو أسلوب التدمير الاقتصادى لكيان المسلمين – وإن عمليات التصفية الدموية فى الفلبين سائرة منذ ١٩٧٠ لم تتوقف وما يراد بأندونيسيا . فإن الأخبار تنقل منه ما يذهل اللب ويلهب النفوس الحية .

ولقد ترددت منذ وقت أخبار الحصار الصليبى التبشيرى لأندونيسيا منذ سقوط سوكارنو والدعم المادى الذى تقوم به دول ومؤسسات مختلفة لهذه الحركة مما يجعل بعض طوائف التبشير تطمع فى السيطرة على جاوة الشرقية (٦٠ مليون مسلم) وأن هناك نشاطاً تبشيرياً واضحاً فى جاوة الوسطى .

(كتاب : واجبنا فى أندونيسيا اليوم)

٣ – وهناك وثيقة هامة كشف عنها الملتقى الإسلامى فى الجزائر هو وجود مخطط واسع قام به مجلس الكنائس الأندونيسى . وجعل عملية تنفيذه تمتد ما بين عشر سنوات وعشرين سنة هو كتاب (واجبنا فى أندونيسيا اليوم) يضم هذا الكتاب البرامج والطرق والأساليب التى يمكن استعمالها كدليل ومرشد لشن حملة تبشير شاملة فى أندونيسيا المسلمة – وقد أشاد التقرير الذى تلقته رابطة العالم الإسلامى إلى أن الفاتيكان قد عين كاردينالا وواحداً وعشرين أسقفاً للإشراف على حركة هذه الإرساليات التبشيرية ونظامها . وأن الكنيسة الكاثوليكية قد شنت مؤخراً حملة واسعة فى المناطق التى يكون بها المسلمون أكثرية سكانها . وهى حملة مدعومة بقوى هائلة من السند والعون المادين والماليين فى البلاد الغربية . وقد اتسعت على أثر ذلك نشاطات الإرساليات التبشيرية والبرتستانتية (أيضاً) وأسرعت إلى بناء العديد من المدارس والمستشفيات والكنائس .

ومن النتائج التى تتصل بهذه الظاهرة ما يلاحظه المتخصصون والمراقبون

من أن حملة التبشير فى أندونيسيا اليوم وبعد الاستقلال أقوى مما كانت فى إبان الاحتلال الهولندى . والثانية أن حركة التنصير فى أندونيسيا وجنوب شرق آسيا ليست حدثاً منعزلا . بل جزءاً من حركة أوسع هدفها النهائى تنصير العالم بأكمله .

والمعروف أن هناك إدارة فى الفاتيكان خاصة بتنصير المسيحيين . والمسئول عن هذا القسم هو الكردينال كوينغ كونج ، وقد أشار السيد مولود قاسم فى بعض كتاباته إلى أنه ليس عن قرب ما يهدفون إليه . وقال : إنهم يركزون على ما يسمونه بالإطارات بدرجة خاصة وبدرجة أخص على الطالبات وعلى المعلمات والموظفات والمرأة عموماً وهدفهم هو تخريب الأسرة.

٥ — ويستعيد الوزير الجزائرى ذكريات الماضى المريرة فيشير إلى أول عمل قامت فرنسا به عند احتلال الجزائر . وهو احتلال (جامع كيتشاوه) وتحويله إلى كنيسة منذ يوم ٥ يوليو ١٨٨٠ — وقد وضعت خطة اشترك فيها نابليون الثالث امبراطور فرنسا الذى كلف الكردينال لافيجرى بتوسيع وتطوير جامع كيتشاوه بعد تحويله . وأهداه أشياء كثيرة من مال وأثاث كما ساهم البابا غريغوار السادس عشر مساهمة مباشرة فى تجهيز هذه الكاتدرائية وتولاها لافيجرى ربع قرن . وقد استغل مجاعة عام ١٨٦٦ فى الجزائر لتمسيح كثير من اليتامى الجزائريين الذين كانوا مشردين ضائعين ، وما تزال هناك محطات إذاعة تبشيرية فى مرسيليا وموناكو بالعربية والدارجة تسمع فى الجزائر والمغرب وتونس وما تزال منشورات كثيرة ترسل إلى الطلبة والطالبات بالدرجة الأولى .

٥ — وفى السنوات الأخيرة عقدت مؤتمرات مختلفة فى بيروت ١٩٧٣ وفى تونس وفى قرطبة تحت اسم محاولات التقارب بين الأديان فى مواجهة الإلحاد والشيوعية . وقد كشف مندوبو الجزائر وتونس عن وجهة نظر أصيلة حين طالبوا الجانب الآخر بالتوقف نهائياً عن عمليات التبشير كشرط أساسى لقيام تقارب ، أو التقاء على هدف مواجهة الأخطار التى تهدد الأديان . وفى مقدمتها الصهيونية والشيوعية والإلحاد . وأشار الدكتور عبد الجليل التميمى إلى أن التبشير ما يزال يقف حائلا دون حسن نية الجهات

الراغبة فى التقارب . وما تزال آثاره الدامية والقريبة موجودة فى كل مكان فى شمال إفريقيا .

١٧ – وما تزال أعمال المبشرين واضحة فى مختلف الدراسات والأبحاث التى تقدم إلى المسلمين وهى حافلة بالتعصب والحقد والهوى . والانتقاص والاحتقار . فكيف يمكن أن يقوم مثل هذا التقارب من جهة ما تزال تصر على الاعتداء . وما تزال ترسم الخطط لمستقبل بعيد فى تمسيح المسلمين أو تمسيح الإسلام نفسه . وذلك بإخراجه عن أصوله الأصيلة إلى مفاهيم المسيحية . وذلك بالقول بأن الإسلام دين عبادة ، ولا صلة له بالمجتمع أو الشريعة أو نظام الحكم . هذه هى أولى السموم وأشدها فتكاً بعالم الإسلام والتى حملها معه الفكر الغربى عن طريق التبشير والاستشراق والتغريب .

كذلك فإن المناهج التى تدرس فى الإرساليات تحوى كلها محاولات هامة لتمسيح الإسلام . وذلك عن طريق فصله عن السياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية .

وكذلك فيما يتعلق بفرض المناهج المادية فى تفسير التاريخ والبطولة والنبوة والغيب وكلها مفاهيم يجرى طرحها فى أفق الإسلام لإخراجه من تكامله وجماعيته وآفاقه الواسعة وحصره فى محيط الانشطارية الغربية – استهدافاً للقضاء على رسالته وغايته واستقطابه فى الفكر العالمى ، واحتوائه وصهره فى بوتقة الفكر البشرى الزائف . ومن دعوات تمسيح الإسلام : القاديانية ، والأحمدية ، والبهائية وكلها تنزع عرف الإسلام وهو الجهاد . كذلك فإن هناك ذلك المفهوم القائم فى نفوس دعاة التبشير ، والذى يستهدف أساساً إخراج المسلم من الإسلام إلى الإلحاد أو الشيوعية أو غيرها . وليس لإدخاله فى المسيحية . وقد أشاد الدكتور زويمر زعيم حركة التبشير الأول إلى هذا المعنى حين قال : لا نقصد بنشاطنا التبشيرى لدى المسلمين أن نجعل منهم مسيحيين بالضرورة . بل هدفنا بالدرجة الأولى . هو أن نجعلهم مذبذبين . وأن نزعزع عقيدتهم . وأن نفقدهم ثقتهم بأنفسهم ونضعف تمسكهم بدينهم ، ونشككهم فى أصالتهم بحيث يصبحون لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء فيخسرهم الإسلام وإن لم تكسبهم المسيحية) .

فهذه أهداف واضحة : ممتدة ، نرى مظاهرها فى أحداث الحاضر والمستقبل وندرسها منفصلة عن جذورها : ١٤٠٠ قس ومبشر أخرجهم عيدى أمين من أوغندا — السفينة لوغوس فى ميناء الكويت — معاهدة بين أندونيسيا وهيئة المعونات الكاثوليكية (٩ ملايين من الدولارات خلال ثلاث سنوات) معاهدة جنوب السودان .

٨ — ونجد التركيز على جنوب شرق آسيا واضحاً — ونجد التركيز على قلب أفريقيا واضحاً أيضاً . فهاتان المنطقتان هما الطريق إلى مستقبل الإسلام . فلابد أن تبذل الجهود لتنصيرهما . وفى أفريقيا ١٠ آلاف إرسالية تبشيرية بخلاف ١٦ ألف منظمة وخمسة ملايين ونصف يعملون لحساب هذه المنظمات و ٥٠٠ معهد تعليمى للمبشرين — ٤٩٨ كلية لتعليم المسيحيين ١٩١٢ داراً لرعاية الأطفـــال . ويبلغ عدد أبناء المسلمين الذين يشرف المبشرون على تعليمهم ٦ ملايين . وعدد المستشفيات التابعة للإرساليات ما يقرب من الألف .

وفى جنوب السودان وبيافرا والكاميرون صور متعددة لمعنى واحد . قد قيل إن ما رصده بابا روما لخدمة أغراض التبشير فى البلاد الإسلامية بلغ (٥٠٠) مليون دولار . هذا بالإضافة إلى ما تنفقه الهيئات الأخرى .

٩ — ومع ذلك فنحن نقرأ أن روما تستنجد بمكة لإنقاذها من الكارثة حتى لا يسقط الحصن الأول للمسيحية فى العالم ثمرة ناضجة فى أيدى الشيوعيين والأحزاب اليسارية . وفى عام ١٩٢٦ تم الاتفاق بين الدولة الإيطالية والفاتيكان بعد خلاف استمر أكثر من مائة عام . ودفعت إيطاليا للفاتيكان حصتها التى كانت مدخرة وتبلغ ملايين الجنيهات . وسرعان ما أدلت جهات رسمية بتصريحات تعلن أن هذا المبلغ سينفق أغلبه فى المشرق على التبشير بين المسلمين وسرعان ما ظهرت حركة ١٩٣٠ فى مصر المعروفة التى جرت محاولات التنصير فيها بالتنويم المغناطيسى ووسائل أخرى . ووقف عبد القادر الحسينى خريج الجامعة الأمريكية ليعلن أن هذه المؤسسة تعلم طلبتها حرب الإسلام .

١٠ — وفى السنوات الأخيرة كانت هناك محاولات لزيادة اعتماد كبرى الإرساليات التبشيرية فى بيروت . وقال المدافعون عنها : إن دورها كان

هاماً فى بناء إسرائيل وفى العقيدة التى يعتنقها عدد كبير من رجال البلاد العربية الذين تعلموا بها وهى عقيدة ود وصداقة بين المسيحية والصهيونية والديمقراطية الغربية . ولا بأس أن يتكشف بعد ذلك أن هناك جذوراً عميقة بين الصهيونية والشيوعية . وأن الأولى صانعة الأخرى . وأن هناك محاولات خطيرة لتهويد المسيحية واحتوائها بعد أن احتوت اليهودية التلمودية الصهيونية الفكر الغربى كله .

١١ – وبذلك نجد أن كل محاولات التبشير المسيحى الحالية محتواه لحساب الصهيونية العالمية وأن هناك جذوراً عميقة واضحة . لذلك فكيف يمكن أن تبدو على السطح فكرة (الحوار) التى تحاول أن تأخذ مكانها الآن بين بعض المفكرين من المسلمين والمسيحيين تحت علم (بيت المقدس) الذى يراد أن ينزع من أيدى الصهيونية العالمية . الواقع أن هناك حلقة مفقودة غائبة يجب الكشف عنها وتوضيحها .

١٢ – وهى هل يمكن حقيقة إجراء حوار بين الإسلام والمسيحية أو بين الإسلام والماركسية بينما نجد أن المسيحية والماركسية لا تقران بالنقطة الأولى فى أى لقاء .

وهى أن الإسلام هو من عندالله، وأنه خاتم رسالات السماء، وأنه ليس ديناً بشرياً . وأن منهجه الربانى بالوحى لا يمكن أن يقارن مع المناهج البشرية كالماركسية . أو التفسيرات البشرية كالمسيحية . ولذلك فليس غريباً أن يقول خيرى الباز فى جريدة (ديبا) الفرنسية : إن الغاية الأساسية من التقارب بين الكنائس المسيحية هو العمل على تحطيم الإسلام ويضاف إلى هذا أن محاولات التقارب إنما تريد أن تدمر أركان الدفاع فى الإسلام بالعمل على تشويهها وإثارة الشبهات حولها وتزييفها .

١٣ – ولا ريب أن هناك محاولات واسعة للتقارب بين اليهودية والمسيحية وأهمها ذلك الربط العجيب الذى استطاعت الكنيسة البروتستانتينية أن تقوم به فى أمريكا وإنجلترا بين العهد القديم والعهد الجديد ، وفرض الإيمان بالهدف الذى رسمته التوراة بعد عهد السبى البابلى الذى يجعل وعد الله لإبراهيم قاصراً على ابنه إسحاق دون ابنه الأكبر إسماعيل أبى العرب وجد

محمد صلى الله عليه وسلم . وجعل هذا الوعد عنصرية يهودية على النحو الذى تقوم عليه فكرة الصهيونية الحديثة .

١٤ – ونرى فى السنوات الأخيرة محاولات خطيرة تهدف إلى تمسيح الأدب والثقافة . فتقول جريدة النهار فى أحد أعدادها تحت عنوان (المسيح بعد غياب يملأ الأدب العربى) ما يأتى :

نزف البشرى بكتاب يسوع فى زمانه لدنيال بلس أن المسيح كان غائباً عن الفكر العربى المعاصر عكس بقية الفلسفات والآداب . بدأ يصبح حاضراً فيه ينقد كتاب نصرى سلهب (فى خطى المسيح) وكتاب يسوع المسيح بالإنجيل والأيقونة لغسان توينى . ويوسف الخال .

ها هو الأب حبيب يونس ينقل كتاب أدونيس الضخم . ويتصل هذا بالمحاولة التى كان يقودها يوسف الخال وجماعته فى محاولة خلق شعر عربى له مفاهيم مستمدة من التوراة والإنجيل ، متعارض مع مفاهيم الإسلام ، والتى سار فيها عدد كبير من الشعراء المسلمين دون أن يتنبهوا إلى مدى الخطر الذى كان يتر صدهم والمؤامرة التى استوعبت أدونيس وغيره .

١٥ – بل إن كتاب نصرى سلهب الآخر (فى خطى محمد) قد كشفت الدراسات وجهه الحقيقى على أنه كتاب تبشيرى محض يهدف إلى التبشير بالدين المسيحى تحت ستار الدفاع عن الإسلام وإذا كان هذا الكتاب قد ضم فى صفحاته الأولى تبجيلا وتعظيما للرسول محمد صلى الله عليه وسلم فإنه فى الصفحات الأخيرة كان يزخر بأكاذيب وافتراءات ترمى إلى القول بأن الإسلام والمسيحية توأمان ولا فرق بينهما فهو يحاول أن يطبق ما يعتقده المسيحيون فى عيسى على محمد صلى الله عليه وسلم . فالمسيحيون يقولون بحلول اللاهوت فى الناسوت . أى أن الله (جل وعلا) قد حل فى عيسى فيحاول أن يطبق هذا على الرسول فيزعم أن الله سبحانه قد حل فى جسم محمد حيث يقول ما نصه (فالله ملأ عقل محمد وقلبه ، ملأ خاطره ملأ كيانه وهو جل جلاله فى عروقه دم بشرى) كذلك فإنه أخطأ حين قال : إن مقصد المسلمين فى حروبهم كان المغانم . وإن حروب المسلمين مع الروم لم يكن لنشر الإسلام . وإنما هى خلافات سياسية أدت إلى نشوب الحرب بينهم .

١٦ – ولعل أعجب من هذا أن نجد من يتصدون للحكم على الفكر الإسلامى والأدب العربى ممن تقتصر ثقافتهم عن فهم الإسلام واستيعابه وشأنهم شأن هؤلاء المستشرقين تماماً . ولقد تصدر عدد كبير من هؤلاء مجال الصحافة والأدب والثقافة وحملوا معهم أحقادهم وتعصبهم . ومن ثم عجزوا عن أن يستوعبوا المفهوم الإسلامى للفكر والأدب جميعاً وكانت آراؤهم قاصرة . ولم يكن من الطبيعى أن يقودوا حركة الفكر أو الثقافة أو النهضة ؛ وأن الذين تابعوهم كانوا قاصرى النظرة . حيث لم يستطع الإسلام أن يملأ عقولهم . ومن ذلك ما نراه من استعلاء موجات الكتابة التوراتية فى عصر جبران ونعيمه . ومن سيطرة أمثال سلامه موسى ولويس عوض ؛ ومن تزعم ميشيل عفلق وأنطون سعادة وهكذا .

وبعد فإنه يمكن القول أن وراء محاولات التقارب والحوار خطةواضحة لتمسيح العالم المعاصر . وأن الخطة محتواه للصهيونية العالمية – هذا ما أرجو أن نواصل البحث فيه .

* * *

مَعالم تاريخ الإسلام

١ – الإسلام والغرب .

٢ – العروبة والإسلام .

٣ – المخططات التلمودية الصهيونية اليهودية .

٤ – مقدمات المناهج .

٥ – المؤامرة على الإسلام .

٦ – الشعوبية فى الأدب العربى الحديث .

٧ – من التبعية إلى الأصالة .

٨ – تاريخ الإسلام فى مواجهة التحديات .

٩ – الإسلام فى وجه التغريب .

١٠ – حركة اليقظة الإسلامية .

* * *

الشرح

المتعلم

اللهم

فهرس الكتاب

الموضوع الصفحة

الباب الرابع

• • •

دار النصر للطباعة الإسلامية

١٢ نشـاطى - شـبرا مصـر